

مدخل إلى علوم القرآن

IUQR1224



المحتويات

مدخل إلى مادة علوم القرآن

عناصر الدرس

مقدمـــــــــــــــــــــــــة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد.

فالقرآن الكريم كتاب خَتم الله به الكتب، وأنزله على نبي ختم به الأنبياء، بِدِين عام خالد ختم به الأديان. فهو رسالة الخالق لإصلاح الخلق، وهدية السماء لهداية الأرض، أنهى إليه منزلة كل تشريع، وأودَعَه كل نهضة، وناط به كل سعادة. وهو حجة الرسول ﷺ وآيته الكبرى؛ يقوم في فم الدنيا شاهدًا برسالته، ناطقًا بنبوته، دليلًا على صدْقه وأمانته. وهو ملاذ الدِّين الأعلى، يستند الإسلام إليه في عقائده وعباداته، وحِكمه وأحكامه، وآدابه وأخلاقه، وقصصه ومواعظه، وعلومه ومعارفه. وهو عماد لغة العرب الأسمى، تدين له اللغة في بقائها وسلامتها، وتستمد علومها منه على تنوعها وكثرتها، وتفوق سائر اللغات العالمية به في أساليبها ومادتها.

وهو أولًا وآخرًا القوة المحوِّلة التي غيرت صورة العالم، ونقلت حدود الممالك، وحوّلت مجرى التاريخ، وأنقذت الإنسانية العاثرة؛ فكأنما خُلق الوجود خلقًا جديدًا.

لذلك كله، كان القرآن الكريم موضع العناية الكبرى من الرسول ﷺ وصحابته، ومِن سلف الأمة وخلفها جميعًا إلى يوم الناس هذا.

وقد اتخذت هذه العناية أشكالًا مختلفة؛ فتارة ترجع إلى لفظه وأدائه، وأخرى إلى أسلوبه وإعجازه، وثالثة إلى كتابته ورسمه، ورابعة إلى تفسيره وشرحه، إلى غير ذلك... ولقد أفرد العلماء كل ناحية من هذه النواحي بالبحث والتأليف، ووضعوا من أجلها العلوم، ودوّنوا الكتب، وتباروا في هذا الميدان الواسع

أشواطًا بعيدة، حتى زخرت المكتبة الإسلامية بتراث مجيد من آثار سلفنا الصالح وعلمائنا الأعلام.

وكانت هذه الثروة ولا تزال مفْخرة نتحدّى بها أُمم الأرض، ونُفحم بها أهل الملل والنحل في كل عصر ومصر. وهكذا أصبح بين أيدينا الآن مصنفات متنوعة، وموسوعات قيِّمة، فيما نسميه: علم القراءات، وعلم التجويد، وعلم الرسم العثماني، وعلم التفسير، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم غريب القرآن، وعلم إعجاز القرآن، وعلم إعراب القرآن، وما شاكل ذلك من العلوم الدينية والعربية، مما يُعتبر بحق أروع مظهر عرفه التاريخ لحراسة كتاب هو سيد الكتب. وبات هذا المظهر معجزة جديدة مصدّقة لقوله ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

ولقد أنجبت تلك العلوم الآنفة وليدًا جديدًا، هو مزيج منها جميعًا، وسليل لها جميعًا، فيه مقاصدها وأغراضها وخصائصها وأسرارها؛ والولد سر أبيه. وقد أسموه: علوم القرآن. وهو موضوع دراستنا في هذا المحاضرات إن شاء الله تعالى.

هذا المدخل هو ما قدّم به الزرقاني - رحمه الله- كتابه (مناهل العرفان في علوم القرآن)، مع تصرف يسير، آثرت التقديم به لما حواه من كلمات جامعة تغني عن غيرها.

معنى كلمة "علوم القرآن"

قبل أن نشرع في الحديث عن هذا العلم، يحسن بنا أن نفهم المراد باسمه الذي سُمي به؛ وذلك يقتضي أن نتحدث أولًا عن طرفيْه، وعن الإضافة بينهما، ثم عن المراد بهذا المركّب بعد نقله، وتسمية هذا الفن المدوّن به. فنبدأ بكلمة: "علوم" فنقول:

"العلوم": جمع عِلْم، والعلْم في اللغة مصدر يرادف: الفهم والمعرفة، وهو نقيض الجهل؛ يقال: علِم علْمًا، فهو عالِم. ويرادف: الجزم أيضًا في رأي.

وقيل: العلْم هو: إدراك الشيء على ما هو به. وقيل: زوال الخفاء من المعلوم. وقيل غير ذلك...

ثم تداولت هذا اللفظ اصطلاحات مختلفة.

فالحكماء يريدون به صورة الشيء الحاصلة في العقل.

والمتكلمون يعرّفون العلْم بأنه: صفة يتجلّى بها الأمر لمن قامت به.

والمادِّيون يزعمون أن العلْم ليس إلا خصوص اليقينيّات التي تستند إلى الحس وحده.

وينقسم العلْم إلى قسمين: قديم وحادث:

فالعلْم القديم هو القائم بذاته تعالى، ولا يشبّه بالعلوم المحدَثة للعباد.

والعلْم المحدَث ينقسم إلى ثلاثة أقسام: بدهيّ، وضروري، واستدلالي.

فالبدهيّ: ما لا يحتاج إلى تقديم مقدّمة، كالعلْم بوجود نفسه.

والضروريّ: ما لا يحتاج فيه إلى تقديم مقدّمة، كالعلْم بثبوت الصانع.

والاستدلالي: هو الذي لا يحصل بدون نظر وفكر.

ويطلق "العلْم" في لسان الشرع العام على: معرفة الله تعالى وآياته وأفعاله في عباده وخلْقه.

قال الإمام الغزالي في (الإحياء): "قد كان العلْم يطلَق على العلْم بالله تعالى وآياته، وبأفعاله في عباده وخلْقه، فتصرّفوا فيه بالتخصيص حتى اشتهر في المناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها؛ ولكن ما ورد في فضل العلم

والعلماء أكثره في المعنى الأول". اهـ.

وقيل: إن المراد بالعلْم المفترض على كل مسلم أن يتعلّمه هو: علم المعاملة الشامل لما يُصلح الظاهر من عبادات وعادات إسلامية، ولما يُصلِح الباطن من عقائد الإسلام وأخلاقه.

وروى الأزهري عن سعد بن زيد عن ابن أبي عبد الرحمن المقرئ، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف: ٦٨] قال: لذو عمل بما علّمناه. فقلت: يا أبا عبد الرحمن، ممن سمعت هذا؟ قال: من ابن عيينة. قلت: حسبي.

وروي عن ابن مسعود أنه قال: "ليس العلم بكثرة الحديث، ولكن العلم بالخشية".

قال الأزهري: "ويؤيِّد ما قاله: قولُ الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال المناوي في التعاريف: "العلْم الشرعي ثلاثة: التفسير، والحديث، والفقه".

قلت: ويؤيده ما رواه أبو داود، وابن ماجه، والحاكم في (مستدركه)، والبيهقي في (سننه)، بإسناد فيه ضعف، عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ قال: ((العلْم ثلاثة، وما سوى ذلك فهو فضل: آية محكَمة، أو سُنّة قائمة، أو فريضة عادلة)).

ومن كلام الشافعي - كما في (الأماني الشيخونية) للسيد المرتضى:

كل العلوم سوى القرآن مشغلة ❖ إلا الحديث وإلا الفقه في الدين
العلْم ما كان فيه قال حدثنا ❖ وما سواه فوسواس الشياطين

ولا شك أن العلْم في اصطلاح الشارع، إنما هو العلم الشرعي، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ

بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ ﴾ [العنكبوت: ٤٩]. وقال: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٦- ٧].

والذي يعنينا هنا هو: العلم في اصطلاح علماء التدوين، لأننا بصدد الكلام في علوم القرآن كفنّ مدوَّن، وهو في عُرفهم يُطلَق على المعلومات المنضبطة بجهة واحدة. وقيل غير ذلك... وما ذكرناه أَوْلاها بالقبول.

معنى "القرآن" لغةً واصطلاحًا

أما لفظ: "القرآن"، فهو في اللغة: مصدر مرادف للقراءة، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٧، ١٨]، ثم نقل من هذا المعنى المصدري، وجُعل اسمًا للكلام المُعجز المنزَل على النبي ﷺ من باب إطلاق المصدر على مفعوله.

ذلك ما اختاره غير واحد، وهو الأرجح، استنادًا إلى موارد اللغة وقوانين الاشتقاق.

ويدل عليه أيضًا: ما رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة > عن النبي ﷺ قال: ((خُفّف على داود # القرآن، فكان يأمر بدوابّه فتُسرج، فيقرأ القرآن قبل أن تُسرَج دوابه. ولا يأكل إلا مِن عمَل يده)).

ثم رواه في موضع آخر بلفظ: ((خُفّف على داود القراءة، فكان يأمر بدابته لتُسرَج، فكان يقرأ قبل أن يفرغ))، يعني: القرآن.

فأطلق في الحديث "القرآن" على الزبور، من باب المعنى اللغوي؛ وهو نص في المسألة.

وقيل: هو وصف من: "القرء" بمعنى: الجمع. قال ابن منظور: معنى "القرآن"

معنى الجمع، وسُمِّي قرآنًا، لأنه يجمع السُّوَر، فيضمّها. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٧]، أي: جمْعه وقراءته. ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٨]، أي: قراءته... وقرأت الشيء قُرآنًا: جمعته وضمَمت بعضه إلى بعض، ومنه قولهم: ما قرأتْ هذه الناقة سلىً قط، وما قرأت جنينًا قط، أي: لم يضمّ رحمُها على ولد... ومعنى: قرأت القرآن: لفظت به مجموعًا.

وقيل: مشتق من: قرنت الشيء بالشيء.

وقيل: مرتجل، أي: موضوع من أول الأمر علَمًا على الكلام المعجز المنزَل، غير مهموز ولا مجرد من (أل).

وروي عن الشافعي: أنه قرأ القرآن على إسماعيل بن قسطنطين، وكان يقول: القرآن اسم وليس بمهموز، ولم يؤخذ من: "قرأت"، ولكنه اسم لكتاب الله مثل التوراة والإنجيل، ويهمز "قرأت"، ولا يهمز "قرآن".

وهذه الأقوال لا يخلو توجيه بعضها من كَلَفة، ولا من بُعد عن قواعد الاشتقاق وموارد اللغة.

معنى "القرآن"، اصطلاحًا:

هو: كلام الله المعجز، المنزَل على الرسول ﷺ المتعبَّد بتلاوته، المنقول عنه نقلًا متواترًا، والمكتوب في المصاحف. ومنهم من اقتصر على وصفَي النقل في المصاحف والتواتر؛ لأنهما يكفيان في تحصيل الغرض؛ وهو بيان القرآن وتمييزه عن جميع ما عداه، ولكن هذا الوصف أكمل لإخراج المحترزات منه.

فبقولهم: "المنزَل على النبي ﷺ"، خرج ما لم ينزل أصلًا مثل كلامنا، ومثل الحديث النبوي، وما نزل على غير النبي ﷺ كالتوراة والإنجيل. وخرجت الأحاديث القدسية إذا تواترت بقولهم: "المتعبَّد بتلاوته". وخرج بـ"المنقول تواترًا"

منسوخُ التلاوة، والقراءات غير المتواترة. وخرج بـ"المكتوب في المصاحف" منسوخُ التلاوة، ولو تواتر.

وأما قولهم: "كلام الله المعجز"، فهما صفتان له، دلّ عليهما قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٦]، وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقد خاض المتكلمون وأهل التصوف في اصطلاحات أخرى، لاعتبارات أملتْها عليهم عقائدهم، ومن ذلك قولهم: "القرآن هو: العلم اللّدنّي الإجمالي الجامع للحقائق كلها".

وقولهم: "القرآن هو الكلام النفسي، أو اللفظ الدال على الكلمات الأزلية الحكمية"، إلى غير ذلك من أقوال تُخرجه عن حقيقته وما دلّت عليه ظواهر النصوص الشرعية التي تقدّم بعضُها.

كما دار حول القرآن فتنة عظيمة وهي: فتنة القول بخلق القرآن، لا نريد أن نطيل بالحديث عن جوانبها؛ إلا أن ما استقر عليه أئمة أهل السنة: أن القرآن كلام الله غير المخلوق، منه بدأ وإليه يعود. وأن الله تعالى تكلّم بالقرآن حقيقةً لا مجازًا.

ويطلَق القرآن على المكتوب بالألواح والصحف، وكذا على المحفوظ في الصدور. كما يطلَق على الكلّ وعلى البعض؛ فيقال لمن قرأ اللفظ المنزَل كلّه: إنه قرأ قرآنًا، وكذلك يقال لمن قرأ ولو آية منه: إنه قرأ قرآنًا.

فهو مشترك لفظي، بدليل التبادر عند إطلاق اللفظ على الكل وعلى البعض كليهما، والتبادر أمارة الحقيقة.

المعنى التركيبي لقولنا: علوم القرآن، وموضوع هذا الفن، وفائدته

الآن وقد انتهينا من الكلام على المتضايفين في لفظ علوم القرآن، ننتقل بك إلى أن الإضافة بينهما تشير إلى طوائف المعارف المتصلة بالقرآن. وينتظم ذلك: علم التفسير، وعلم القراءات، وعلم الرسم العثماني، وعلم إعجاز القرآن، وعلم أسباب النزول، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم إعراب القرآن، وعلم غريب القرآن، وعلوم الدين واللغة، إلى غير ذلك...

معنى علوم القرآن كفنّ مدوّن وموضوعه وفائدته:

ثم إن هذا اللفظ نقل من ذلك المعنى الإضافي، ثم جعل علَمًا على الفن المدوَّن، وأصبح مدلوله بعد النقل، وهو علم غير مدلوله قبل النقل؛ وهو مركّب إضافيّ، لأن هذا الفن ليس هو مجموعة العلوم الدينية والعربية، بل هو غيرها، وإن كان مستمدًّا منها ومأخوذًا عنها. ويمكن أن نعرّفه بأنه: مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله، وترتيبه وجمعه، وكتابته وقراءته، وتفسيره، وإعجازه، وناسخه ومنسوخه، ودفع الشبه عنه، ونحو ذلك.

وبعضهم يطلق على هذا العلم أيضًا: أصول التفسير، لأنه يتناول المباحث التي لا بد للمفسر من معرفتها للاستناد إليها في تفسير القرآن.

وموضوعه: القرآن الكريم من أية ناحية من النواحي المذكورة في التعريف.

وفائدة هذا العلم ترجع إلى الثقافة العالية العامة في القرآن الكريم، وإلى التسلح بالمعارف القيمة فيه، استعدادًا لحسن الدفاع عن حِمَى الكتاب العزيز، ثم إلى سهولة خوض غمار تفسير القرآن الكريم به، كمفتاح للمفسرين. فمثله من هذا

الناحية، كمثل علوم الحديث بالنسبة لمن أراد أن يدرس علم الحديث.

هذا، وإنما سُمّي هذا العلم: "علوم القرآن"، بالجمع دون الإفراد، للإشارة إلى أنه خلاصة علوم متنوعة، باعتبار أن مباحثه المدوّنة تتصل اتصالًا وثيقًا كما علمت بالعلوم الدينية والعلوم العربية، حتى إنك لتجد كل مبحث منها خليقاً أن يُسلك في عداد مسائل علم من تلك العلوم؛ فنسبته إليها كنسبة الفرع إلى أصوله، أو الدليل إلى مدلوله.

نشأة هذا العلم

كان الرسول ﷺ وأصحابه يعرفون عن القرآن وعلومه ما عرف العلماء، وفوق ما عرف العلماء من بعد؛ ولكن معارفهم لم توضع على ذلك العهد كفنون مدوّنة، ولم تُجمع في كتب مؤلّفة؛ لأنهم لم تكن لهم حاجة إلى التدوين والتأليف.

أما الرسول ﷺ فلأنه كان يتلقّى الوحي عن الله وحده. قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦- ١٩].

ثم بلّغ الرسول ما أُنزل عليه لأصحابه، وقرأه على الناس على مُكث، أي: على مهل وتؤدة، ليحسنوا أخذه، ويحفظوا لفظه، ويفهموا سره.

ثم شرح الرسول لهم القرآن، بقوله وبعمله وبتقريره وبخُلُقه، أي: بسنّته الجامعة لأقواله وأفعاله وتقريراته وصفاته، مصداقاً لقوله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]. ولكن الصحابة وقتئذ

كانوا عربًا خلصًا، متمتعين بجميع خصائص العروبة ومزاياها الكاملة، من قوة في الحافظة، وذكاء في القريحة، وتذوّق للبيان، وتقدير للأساليب، ووزن لما يسمعون بأدق المعايير، حتى أدركوا من علوم القرآن ومن إعجازه، بسليقتهم وصفاء فطرتهم، ما لا نستطيع نحن أن ندركه، مع زحمة العلوم وكثرة الفنون.

وكان الصحابة- رضوان الله عليهم- مع هذه الخصائص، أمِّيين، وأدوات الكتابة لم تكن ميسورة لديهم، والرسول نهاهم أن يكتبوا عنه شيئًا غير القرآن، وقال لهم أول العهد بنزول القرآن، فيما رواه مسلم في (صحيحه) عن أبي سعيد الخدري < : ((لا تكتبوا عني، ومن كتب غير القرآن فليمْحُه، وحدِّثوا عني فلا حرج، ومَن كذب عليّ متعمدًا فليتبوَّأ مقعدَه من النار))؛ وذلك مخافة أن يلتبس القرآن بغيره، أو يختلط بالقرآن ما ليس منه، ما دام الوحي نازلًا بالقرآن.

فلتلك الأسباب المتضافرة، لم تُكتب علوم القرآن، كما لم يُكتب الحديث الشريف، إلا أن النبي ﷺ كان قد رخّص لبعض أصحابه آخِر الأمر في الكتابة؛ فكتب عمرو بن العاص، وكتب عليّ، وكتب لأبي شاة. وكذا كتب النبي ﷺ للملوك وللرعية، بالإضافة إلى كتابة القرآن بطبيعة الحال، ولكن لم يتوسع في أمر الكتابة كما هو معلوم.

ومضى الرعيل الأول على ذلك في عهد الشيخين: أبي بكر وعمر، ولكن الصحابة كانوا مضرب الأمثال في نشر الإسلام وتعاليمه، والقرآن وعلومه، والسُّنة وتحريرها، تلقينًا لا تدوينًا، ومشافهة لا كتابة، إلا أنه قد تم الجمع الأول للقرآن في عهد أبي بكر.

ثم جاءت خلافة عثمان رضي الله عنه، وقد اتّسعت رقعة الإسلام، واختلط العرب الفاتحون بالأمم التي لا تعرف العربية، وخيف أن تذوب خصائص العروبة من

العرب من جرّاء هذا الفتح والاختلاف، بل خيف على القرآن نفسه أن يختلف المسلمون فيه، إن لم يجتمعوا على مصحف إمام؛ فتكون فتنة في الأرض وفساد كبير.

لهذا أمَر عثمان ﷺ أن يُجمع القرآن في مصحف إمام، وأن تُنسخ منه مصاحف يبعث بها إلى أقطار الإسلام، وأن يحرق الناس كل ما عداها، ولا يعتمدوا سواها؛ فكان هذا هو الجمع الثاني للقرآن الكريم. وتمت كتابة المصحف الإمام بما يحتمل وجوه القراءات، وبهذا العمل وضع عثمان ﷺ الأساس لما نسمّيه: "علْم رسم القرآن"، أو "علم الرسم العثماني".

ثم جاء عليّ ﷺ فلاحظ العُجمة تحيف على اللغة العربية، وسمع ما أوجس منه خيفة على لسان العرب، فأمر أبا الأسود الدؤلي أن يضع بعض قواعد لحماية لغة القرآن من هذا العبث والخلل، وخطّ له الخطط، وشرع له المنهج. وبذلك يمكننا أن نعتبر أن عليًّا ﷺ قد وضع الأساس لما نسمّيه: "علم النحو"، ويتبعه "علم إعراب القرآن"، على الخلاف في هذه الرواية.

ثم انقضى عهد الخلافة الرشيدة، وجاء عهد بني أمية، وهِمّة مشاهير الصحابة والتابعين متجهة إلى نشر علوم القرآن بالرواية والتلقين، لا بالكتابة والتدوين. ولكن هذه الهمّة في هذا النشر يصح أن نعتبرها تمهيدًا لتدوينها.

وعلى رأس من ضرب بسهم وفير في هذه الرواية: الأربعة الخلفاء، وابن عباس، وابن مسعود، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير؛ وكلهم من الصحابة رضي الله عنهم.

وعلى رأس التابعين في تلك الرواية: مجاهد، وعطاء، وعكرمة، وقتادة، والحسن البصري، وسعيد بن جبير، وزيد بن أسلم.

وهؤلاء جميعًا نعتبرهم واضعي الأساس لما يسمَّى: علم التفسير، وعلم أسباب النزول، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم غريب القرآن، ونحو ذلك...

ومن أقدم ما وصلَنا كبدء لتدوين علوم القرآن: كتاب (الناسخ والمنسوخ) لقتادة بن دعامة السدوسي، وكتاب (التفسير) لمجاهد بن جبر المكي؛ وهما من كبار التابعين، وهما مطبوعان متداولان الآن.

أطوار بدء التدوين

وفي القرن الثاني، انتشر تدوين بعض من علوم القرآن، وعلى وجه الخصوص: التفسير.

ومن أوائل الكاتبين في التفسير: يزيد بن هارون، وشعبة بن الحجاج، وسفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح؛ وتفاسيرهم جامعة لأقوال الصحابة والتابعين.

ثم تلاهم في القرن الثالث: يحيى بن سلام المغربي، ثم ابن جرير الطبري؛ وكتابه أجل التفاسير وأعظمها؛ لأنه أوّل من عرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، كما عرض للإعراب والاستنباط.

أما علوم القرآن الأخرى، ففي مقدّمة المؤلفين فيها: علي بن المديني شيخ البخاري إذ ألّف في أسباب النزول، وأبو عبيد القاسم بن سلام إذ كتب في الناسخ والمنسوخ والقراءات، وابن قتيبة إذ كتب في مشكل القرآن؛ وهم من علماء القرن الثالث. وفي مقدّمة من ألّف في غريب القرآن: أبو بكر السجستاني، وكذا النسائي حيث ألّف في فضائل القرآن، والدوري حيث ألّف في قراءات النبي ﷺ؛ وهم من علماء القرن الرابع.

وفي طليعة مَن صنّف في إعراب القرآن: علي بن سعيد الحوفي؛ وهو من علماء

القرن الخامس. ومن أوائل من كتب في مبهمات القرآن: أبو القاسم عبد الرحمن، المعروف بالبسيلي؛ وهو من علماء القرن السادس. كذلك تصدّر للتأليف في مجاز القرآن: ابن عبد السلام، وفي القراءات: علَم الدين السخاوي؛ وهما من علماء القرن السابع. كما لا يمكن أن نُغفل دور علماء السُّنة ومدوّنيها في تضمين كتبهم أبوابًا في بعض أنواع علوم القرآن، كالتفسير، وأسباب النزول، وفضائل القرآن، ونحوها...

وهكذا قويت العزائم، وتبارت الهمم، ونشأت علوم جديدة للقرآن. وظهرت مؤلفات في كل نوع منها، سواء في ذلك: أقسام القرآن، وأمثال القرآن، وحجج القرآن، وبدائع القرآن، ورسم القرآن، وما أشبهها مما يملأ خزائن كاملة من أعظم المكتبات في العالم.

وأول من تكلم في فنون هذا العلم: الشافعي - رحمه الله- ؛ فروي أنه عندما سيق في محنته إلى الرشيد مكبّلًا بالحديد في بغداد، سأله الرشيد حين لمح علمَه وفضلَه، فقال: كيف علمك يا شافعي بكتاب الله ﷻ؟ فإنه أولى الأشياء أن يبتدأ به. فقال الشافعي: عن أي كتاب من كتب الله تسألني يا أمير المؤمنين؟ فإن الله تعالى قد أنزل كتبًا كثيرة. قال الرشيد: قد أحسنت، لكن إنما سألت عن كتاب الله المنزل على ابن عمي محمد ﷺ. فقال الشافعي: إن علوم القرآن كثيرة، فهل تسألني عن مُحكَمه ومتشابهه، أو عن تقديمه وتأخيره، أو عن ناسخه ومنسوخه، أو عن..؟ أو عن..؟ وصار يسرد عليه من علوم القرآن، ويجيب على كل سؤال، بما أدهش الرشيد والحاضرين.

وأوّل من ألّف في علوم القرآن: محمد بن خلف بن المرزبان، المتوفّى ٣٠٩هـ،

حيث ألّف كتابه: (الحاوي في علوم القرآن). وتلاه ابن الأنباري، المتوفى ٣٢٨هـ، وله: "عجائب علوم القرآن". وتلاه محمد بن علي الأدفوي، المتوفى سنة ٣٨٨هـ، حيث ألّف: "الاستغناء في علوم القرآن". وفي هذا القرن أيضًا، ألّف أبو الحسن الأشعري: "المختزن في علوم القرآن"، وهو كبير جدًّا.

ثم علي بن إبراهيم بن سعيد، الشهير بالحوفي، المتوفى سنة ٤٣٠هـ، وله كتاب سماه: (البرهان في علوم القرآن).

ثم جاء القرن السادس، فألّف فيه ابن الجوزي، المتوفى سنة ٥٩٧هـ، كتابين: أحدهما اسمه: (فنون الأفنان في علوم القرآن)؛ وقد طُبع محققًا. وهو صغير الحجم، ويبدو أنه غير الذي وصفه السيوطي بقوله: لم يقرأ مثله ولا قريبًا منه. والثاني اسمه: (المجتبى في علوم تتعلق بالقرآن)؛ وهو مخطوط بدار الكتب المصرية. وفي القرن السابع، ألّف علَم الدين السخاوي، المتوفى سنة ٦٤١هـ، كتابًا سماه: (جمال القرّاء)، وهو مطبوع في مجلدين.

وألّف أبو شامة، المتوفى سنة ٦٦٥هـ، كتابًا أسماه: (المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز)؛ وهما كما قال السيوطي: عبارة عن طائفة يسيرة ونبذ قصيرة بالنسبة للمؤلفات التي أُلفت بعد ذلك في هذا النوع.

ثم أهل القرن الثامن؛ فكتب فيه بدر الدين الزركشي، المتوفى سنة ٧٩٤هـ، كتابًا سماه: (البرهان في علوم القرآن)؛ وهو مطبوع في أربعة مجلدات، وهو من أعظم ما ألّف في هذا الفن.

ثم طلع القرن التاسع على هذا العلْم باليُمن والبركة، فدرج فيه وترعرع؛ إذ ألّف محمد بن سليمان الكافيجي، المتوفى سنة ٨٧٣هـ، كتابًا يقول السيوطي عنه: إنه لم

يسبق إليه. وهو مطبوع في مجلد لطيف، واسمه: (التيسير في قواعد علم التفسير).

وفي هذا القرن أيضًا، وضع جلال الدين البلقيني كتابًا سماه: (مواقع العلوم من مواقع النجوم). وفي هذا القرن التاسع أيضًا، ألف السيوطي كتابًا سماه: (التحبير في علوم التفسير)، ضمّنه ما ذكره البلقيني من الأنواع، مع زيادة مثلها. وأضاف إليه فوائد سمحت قريحته بنقلها. وقد أوفى هذا الكتاب على الاثنين بعد المائة من الأنواع.

وفرغ الإمام من تأليف تحبيره هذا سنة ٨٧٢هـ، غير أن نفسه الكبيرة لم تقنع بهذا المجهود العظيم، بل طمح إلى التبحر والتوسع والترتيب، فوضع كتابه الثاني كتاب: (الإتقان في علوم القرآن)؛ وهو عمدة الباحثين والكاتبين في هذا الفن. ذكر فيه ثمانين نوعًا من أنواع علوم القرآن على سبيل الإجمال والإدماج، ثم قال، بعد أن سردها نوعًا نوعًا: "ولو نوعت باعتبار ما أدمجته فيها، لزادت على الثلاثمائة". اهـ.

وتوفي السيوطي - رحمه الله- سنة ٩١١هـ، في مفتتح القرن العاشر، وكأن نهايته كانت نهاية لنهضة التأليف في علوم القرآن- عليه سحائب الرحمة والرضوان- فلم نرَ مَن سار في هذا المضمار مثله بعده، كما لم نر من برّز فيه قبله.

ثم عادت حركة النشاط والتأليف في هذا العلْم مرة أخرى. فألّف الشيخ طاهر الجزائري كتابًا جليلًا سماه: (التبيان في علوم القرآن)، يقع في قريب من ثلاثمائة صفحة، وفرغ من تأليفه سنة ١٣٣٥هـ.

وألف الشيخ محمود أبو دقيقة مذكّرة قيمة لطلاب تخصص الدعوة والإرشاد بكلية أصول الدين. وكذا الشيخ محمد علي سلامة، كتابه: (منهج الفرقان في علوم القرآن).

ثم الشيخ محمد بن عبد العظيم الزرقاني، حيث ألف كتابه: (مناهل العرفان في

علوم القرآن)؛ وهو من أجلّ المؤلفات في هذا الفن. وسوف نخصّه بالحديث إن شاء الله تعالى.

ثم الشيخ أحمد أحمد علي، فله مذكّرة في علوم القرآن.

ثم كتاب: (مباحث في علوم القرآن)، للدكتور صبحي الصالح؛ وقد انتشر انتشارًا واسعًا. ثم كتاب: (محاضرات في علوم القرآن)، لأحمد ياسين خياري.

ثم كتاب: (مباحث في علوم القرآن)، للشيخ مناع القطان.

فكتاب: (البيان في علوم القرآن)، للدكتورين: سليمان القرعاوي ومحمد الحسن.

وأخيرًا كتاب: (بحوث في علوم القرآن الكريم)، لشيخنا الدكتور عبد الغفور مصطفى.

وقد كتبتُ بعضًا من مباحث علوم القرآن على وجه الاختصار، أثناء تدريسي لطلاب كلية التربية، وضمنتُها مؤلفًا باسم: (المدخل الصغير إلى علوم القرآن والحديث والعقيدة والتفسير)، ولم يُطبع بعد.

ذكر طرف من العلوم التي عني بها هذا الفن (١)

عناصر الدرس

كلام "البلقيني" في المباحث التي تدور حولها في الغالب علوم القرآن

كتاب (مواقع العلوم من مواقع النجوم)، ذكر في مقدمته ما وصل إلى علمه مما حواه القرآن الشريف من أنواع علمه المنيف، فذكر أمورًا ستة:

الأمر الأول: مواطن النزول، وأوقاته، ووقائعه؛ وفي ذلك اثنا عشر نوعًا: المكي، المدني، السفري، الحضري، الليلي، النهاري، الصيفي، الشتائي، الفراشي، النومي، أسباب النزول، أول ما نزل، آخر ما نزل.

الأمر الثاني: السند، وهو ستة أنواع: المتواتر، الآحاد، الشاذ، قراءات النبيﷺ، الرواة، الحفاظ.

الأمر الثالث: الأداء، وهو ستة أنواع: الوقف، الابتداء، الإمالة، المد، تخفيف الهمزة، الإدغام.

الأمر الرابع: الألفاظ، وهو سبعة أنواع: الغريب، المعرَّب، المجاز، المشترك، المترادف، الاستعارة، التشبيه.

الأمر الخامس: المعاني المتعلقة بالأحكام، وهو أربعة عشر نوعًا: العام الباقي على عمومه، العام المخصوص، العام الذي أريد به الخصوص، ما خَص فيه الكتاب السنة، ما خصصت فيه السنة الكتاب، المجمَل، المبيّن، المؤوّل، المفهوم، المطلق، المقيد، الناسخ والمنسوخ، نوع من الناسخ والمنسوخ، وهو ما عمل به من الأحكام مدة معيّنة، والعامل به واحد من المكلفين.

الأمر السادس: المعاني المتعلقة بالألفاظ، وهو خمسة أنواع: الفصل، الوصل، الإيجاز، الإطناب، القصر.

ثم ذكر قسمًا لا يدخل تحت الحصر، مثل: الأسماء، الكنى، الألقاب، المبهمات.

وهناك قسم جامع سابع، يمكن أن يزاد على كلام البلقيني، وهو ما يتعلق بشرف القرآن، وهو أنواع؛ فمن ذلك: أسماؤه، وأسماء سوَره، وجمعه، وكتابته، وترتيبه، وخواصه، وآداب حامله وتاليه، وفضائله العامة، وفضائل سوَره، وفضل حفّاظه وقارئيه.

كلام "الزركشي" و"الطبري" في المباحث التي تدور حولها في الغالب علوم القرآن

صنف الزركشي كتابه: (البرهان في علوم القرآن)، فنقل عن القاضي أبي بكر بن العربي في كتابه: (قانون التأويل): أن علوم القرآن خمسون علمًا، وأربعمائة وسبعة آلاف علْم وسبعون ألف علْم، على عدد كلِم القرآن مضروبة في أربعة، لقول بعض السلف: لكل كلمة ظاهر وباطن، وحدّ ومطلع؛ وهذا مطلق دون اعتبار تراكيبه وما بينها من روابط؛ وهذا ما لا يحصَى، ولا يعلمه إلا الله ﷻ.

قال: وأمّ علوم القرآن ثلاثة أقسام: توحيد، وتذكير، وأحكام:

فالتوحيد: تدخل فيه معرفة المخلوقات، ومعرفة الخالق بأسمائه وصفاته وأفعاله.

والتذكير: ومنه: الوعد والوعيد، والجنة والنار، وتصفية الظاهر والباطن.

والأحكام: ومنها: التكاليف كلّها، وتبيين المنافع والمضار، والأمر، والنهى، والندب.

فالأول: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [النحل: ٢٢]، فيه: التوحيد كلّه في الذات، والصفات، والأفعال.

والثاني: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥].

والثالث: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم ﴾ [المائدة: ٤٩]. ولذلك قيل في معنى قوله ﷺ: ((﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١]، تعدل ثلث القرآن))، يعنى: في الأجر، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. وقيل: ثلثه في المعنى، لأن القرآن ثلاثة أقسام كما ذكرنا، وهذه السورة اشتملت على التوحيد؛ ولهذا المعنى صارت فاتحة الكتاب: (أم الكتاب)، لأن فيها الأقسام الثلاثة.

فأما التوحيد: فمن أوّلها إلى قوله: ﴿ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٤]. وأما الأحكام ففي ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]. وأما التذكير فمن قوله ﴿ اهْدِنَا ﴾ [الفاتحة: ٥] إلى آخرها؛ فصارت بهذا أمًا، لأنه يتفرع عنها كل نبت. وقيل: صارت أمًا، لأنها مقدمة على القرآن بالقَبْلية، والأم قبل البنت. وقيل: سُمِّيت (فاتحة)، لأنها تفتح أبواب الجنة، على وجوه مذكورة في مواضعها...

وقال محمد بن جرير الطبرى: يشتمل على ثلاثة أشياء: التوحيد، والأخبار، والديانات.

قال القاضي أبو المعالي: وعلى التحقيق أن تلك الثلاثة التي قالها محمد بن جرير تشمل هذه كلّها، بل أضعافَها؛ فإن القرآن لا يستدرك ولا تحصى غرائبه وعجائبه، قال تعالى: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وقيل: غيرُ ذلك...

كلام "الزرقاني" في المباحث التي تدور حولها في الغالب علوم القرآن

عندما اطلع السيوطي على كتاب الزركشي: (البرهان في علوم القرآن)، قوي عزْمه فألّف كتابه: (الإتقان)، الذي حوى ما سبقه وزاد عليه الكثير، إلا أنه أدخل فيه ما نوزع في اعتباره من علوم القرآن. ويحسن بنا هنا: أن نذكر ما ذكره الزرقاني حول ذلك، حيث قال: وتلك أشتات من العلوم توسَّع السيوطي فيها، حتى اعتبر منها علم الهيئة، والهندسة، والطب، ونحوها. ثم نقل عن أبي بكر بن العربي في (قانون التأويل) أنه قال: علوم القرآن خمسون وأربعمائة، وسبعة آلاف وسبعون ألْف علْم، على عدد كلِم القرآن مضروبة في أربعة... فذكر كلام ابن العربي السابق مختصرًا. ثم قال: وأحب أن تعرف أن هذا الكلام من السيوطي وابن العربي، محمول على ضرب كبير من التأويل والتوسع، بأن يراد من العلوم كل ما يدل عليه القرآن من المعارف، سواء أكانت علومًا مدوّنة أم غير مدوّنة، وسواء أكانت تلك الدلالة تصريحية أم تلميحية، عن قرب أم عن بعد؛ فأما أن تراد العلوم المدوّنة صراحة، فدون ذلك خرط القتاد، وصعود السماء.

وتحقيق القول في هذا الموضوع: أن القرآن الكريم كتاب هداية وإعجاز، من أجْل هذين المطمحين نزل، وفيهما تحدّث، وعليهما دلّ؛ فكل علْم يتصل بالقرآن من ناحية قرآنيته، أو يتصل به من ناحية هدايته، أو إعجازه، فذلك من علوم القرآن؛ وهذا ظاهر في العلوم الدينية والعربية. أما العلوم الكونية، وأما المعارف، والصنائع، وما جدّ أو يجدّ في العالَم من فنون ومعارف، كعلْم الهندسة، والحساب، وعلم الهيئة والفلك، وعلم الاقتصاد، والاجتماع، وعلم الطبيعة، والكيمياء، وعلم الحيوان، والنبات، فإن شيئًا من ذلك لا يجمل عدّه من علوم

القرآن، لأن القرآن لم ينزل ليدلل على نظرية من نظريات الهندسة مثلًا، ولا ليقرر قانونًا من قوانينها. وكذلك علم الهندسة لم يوضع ليخدم القرآن في شرح آياته، أو بيان أسراره. وهكذا القول في سائر العلوم الكونية والصنائع العالمية، وإن كان القرآن قد دعا المسلمين إلى تعلّمها وحذقها، والتمهّر فيها، خصوصًا عند الحاجة إليها.

وإنما قلنا: إنه لا يجمل اعتبار علوم الكون وصنائعه من علوم القرآن، مع أن القرآن يدعو إلى تعلّمها، لأن هناك فرقًا كبيرًا بين الشيء يحثّ القرآن على تعلّمه في عموماته أو خصوصاته، وبين العلم الذي يدلّ القرآن على مسائله، أو يرشد إلى أحكامه، أو يكون ذلك العلم خادمًا للقرآن بمسائله، أو أحكامه، أو مفرداته. فالأول: ظاهر أنه لا يُعتبر من علوم القرآن، بخلاف الثاني؛ وهو ما نريد أن نرشدك إليه، وأن تحرص أنت بدورك عليه.

أجَل، إن القرآن حضّ على معرفة علوم الكون، وصنائع العالَم، وحثّ على الانتفاع بكل ما يقع تحت نظرنا في الوجود، قال ﷻ: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١]. وقال جلّت حِكمته: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٣]؛ فلا يليق بالمسلمين -وهم المخاطبون بهذا- أن يفرّوا من وجه هذه المنافع العامة، ولا أن يزهدوا في علوم الكون، ولا أن يحرموا أنفسهم فوائد التمتع بثمرات هذه القوى العظيمة التي أودعها الله لخلقه في خزائن سمواته وأرضه.

ولهذا نص علماؤنا على أنّ تعلّم تلك العلوم الكونية، وحذق هذه الصناعات الفنية: فرض من فروض الكفايات، ما داموا في حاجة إليها لمصلحة الفرد أو

المجموع ؛ وذلك لأن البقاء في هذه الحياة للأصلح ، والحياة في هذا الوجود للسلام المسلّح ، والأسلحة -في كل عصر عامة ، وفي هذا العصر خاصة- إنما تقوم على التمهّر في العلوم، وعلى السبق في حلبة الصناعات والفنون. والويل فينا للضعيف، والحظ كل الحظ للقوي، والله تعالى يقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٦٠]. والنبي ﷺ يقول- فيما رواه مسلم عن أبي هريرة- : ((المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير. احرصْ على ما ينفعك، واستعنْ بالله، ولا تعجز. وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدّر الله، وما شاء فعل ؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان)).

تتمة كلام "الزرقاني"، ويتضمن أمثلة لإعجاز القرآن

وأنبّهك إلى شيء آخر جدير بالنظر والتقدير، وهو: أن القرآن الكريم في طريقة عرضه للهداية والإعجاز على الخلْق، قد حاكم الناس إلى عقولهم، وفتح عيونهم إلى الكون، وما في الكون من سماء وأرض، وبر وبحر، وحيوان ونبات، وخصائص وظواهر، ونواميس وسنن...

وكان القرآن في طريقةِ عرْضه هذه موفّقًا كل التوفيق، بل كان معجزًا أبهر الإعجاز، لأن حديثه عن تلك الكونيات كان حديث العليم بأسرارها، الخبير بدقائقها، المحيط بعلومها ومعارفها، على حين أن هذا الذي جاء بالقرآن رجل أمّيّ، نشأ في أمة أمّيّة جاهلة، لا صلة لها بتلك العلوم وتدوينها، ولا إلمام لها بكتبها ومباحثها، بل إن بعض تلك العلوم لم ينشأ إلا بعد عهد النبوّة ومهبط الوحي بقرون وأجيال ؛ فأنّى يكون لرجل أمّيٍّ كمحمد ﷺ ذلك السجل الجامع

لتلك المعارف كلها، إن لم يكن تلقاه من لدن حكيم عليم؟

قال ﷻ، مقررًا لهذا الإعجاز العلمي: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨، ٤٩].

ولعلّ من الحكمة أن نسوق لك نموذجيْن من القرآن، على سبيل التمثيل:

أوّلهما في سورة (النور)، إذ يقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [النور: ٤٣]. قل لي بربك! ألا يملكك العجَب حين تقرأ هذا النص الكريم الذي يتفق وأحدث النظريات العلمية في الظواهر الطبيعية من سحاب ومطر وبرق؟!

النموذج الثاني: يقول الله تعالى في سورة (القيامة)، مبيِّنًا ومقررًا كمال اقتداره على إعادة الإنسان وبعثه بعد موته: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ٣، ٤]. أرجو أن تقف قليلًا عند تخصيصه البَنان بالتسوية في هذا المقام، ثم تستمع بعد ذلك إلى هذا العِلْم الوليد: علم تحقيق الشخصية في عصرنا الأخير، وهو يقرر أن أدق شيء وأبدعه في بناء جسم الإنسان هو: تسوية البنان؛ حتى إنه لا يمكن أن تجد بنانًا لأحد يشبه بنان آخَر بحال من الأحوال. وقد انتهوا من هذا القرار إلى أن حكّموا البنان في كثير من القضايا والحوادث. ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤].

ولا يزال الكون وما يحدث في الكون من علوم وفنون وشؤون، لا يزال كل أولئك يشرح القرآن ويفسّره، ويميط اللثام عن نواحٍ كثيرة من أسراره،

وإعجازه، مصداقًا لقوله -جلّ ذكره-: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣]. ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١]. انتهى كلام الزرقاني الذي عقب به على كلام السيوطي، وقبله ابن العربي.

وما ختم به من حديث عن إعجاز القرآن العلمي، هو ضرب من ضروب إعجاز القرآن؛ وهو أحد علوم القرآن التي سوف يأتي الحديث عنها- إن شاء الله تعالى-.

أبواب علوم القرآن عند السيوطي

وهذا سرد لأبواب علوم القرآن التي توصّل إليها السيوطي - رحمه الله- وبحثها في كتابه العظيم، نتبعها-إن شاء الله- بمزيد توضيح للمراد منها، حسب تقسيمات البلقيني الجامعة، والقسم الذي أضفناه إليها:

الأول: معرفة المكي والمدني.

الثاني: معرفة الحضري والسفري.

الثالث: النهاري والليلي.

الرابع: الصيفي والشتائي.

الخامس: الفراشي والنومي.

السادس: الأرضي والسمائي.

السابع: أوّل ما نزل.

الثامن : آخِر ما نزل.

التاسع : أسباب النزول.

العاشر : ما نزل على لسان بعض الصحابة.

الحادي عشر : ما تكرّر نزوله.

الثاني عشر : ما تأخّر حُكمه عن نزوله ، وما تأخّر نزوله عن حُكمه.

الثالث عشر : معرفة ما نزل مفرّقًا وما نزل جمعًا.

الرابع عشر : ما نزل مشيّعًا وما نزل مفردًا.

الخامس عشر : ما أنزل منه على بعض الأنبياء ، وما لم ينزل منه على أحد قبل النبي ﷺ.

السادس عشر : كيفية إنزاله.

السابع عشر : معرفة أسمائه وأسماء سوَره.

الثامن عشر : جمعه وترتيبه.

التاسع عشر : عدد سوَره وآياته وكلماته وحروفه.

العشرون : حفّاظه ورواته.

الحادي والعشرون : العالي والنازل.

الثاني والعشرون : معرفة المتواتر.

الثالث والعشرون : المشهور.

الرابع والعشرون: الآحاد.

الخامس والعشرون: الشاذ.

السادس والعشرون: الموضوع.

السابع والعشرون: المدرَج.

الثامن والعشرون: معرفة الوقف والابتداء.

التاسع والعشرون: بيان الموصول لفظًا، المفصول معنىً.

الثلاثون: الإمالة والفتح وما بينهما.

الحادي والثلاثون: الإدغام، والإظهار، والإخفاء، والإقلاب.

الثاني والثلاثون: المد والقصر.

الثالث والثلاثون: تخفيف الهمزة.

الرابع والثلاثون: كيفية تحمّله.

الخامس والثلاثون: آداب تلاوته.

السادس والثلاثون: معرفة غريبه.

السابع والثلاثون: فيما وقع فيه بغير لغة الحجاز.

الثامن والثلاثون: فيما وقع فيه بغير لغة العرب.

التاسع والثلاثون: معرفة الوجوه والنظائر.

الأربعون: معرفة معاني الأدوات التي يحتاج إليها المفسِّر.

الحادي والأربعون: معرفة إعرابه.

الثاني والأربعون: قواعد مهمّة يحتاج المفسِّر إلى معرفتها.

الثالث والأربعون: المحكَم والمتشابِه.

الرابع والأربعون: مقدّمه ومؤخّره.

الخامس والأربعون: خاصِّه وعامّه.

السادس والأربعون: مجمله ومبيّنه.

السابع والأربعون: ناسخه ومنسوخه.

الثامن والأربعون: مُشكله، وموهم الاختلاف والتناقض.

التاسع والأربعون: مطلَقه ومقيّده.

الخمسون: في منطوقه ومفهومه.

الحادي والخمسون: وجوه مخاطباته.

الثاني والخمسون: حقيقته ومجازه.

الثالث والخمسون: تشبيهه واستعارته.

الرابع والخمسون: كناياته وتعريضه.

الخامس والخمسون: الحصر والاختصاص.

السادس والخمسون: الإيجاز والإطناب.

السابع والخمسون: الخبر والإنشاء.

الثامن والخمسون: بدائع القرآن.

التاسع والخمسون: فواصل الآي.

الستون: فواتح السوّر.

الحادي والستون: خواتم السوَر.

الثاني والستون: مناسبة الآيات والسوَر.

الثالث والستون: الآيات المشتبهات.

الرابع والستون: إعجاز القرآن.

الخامس والستون: العلوم المستنبَطة من القرآن.

السادس والستون: أمثاله.

السابع والستون: أقسامه.

الثامن والستون: في جدَله.

التاسع والستون: الأسماء والكنى والألقاب.

السبعون: مبهماته.

الحادي والسبعون: أسماء مَن نزل فيهم القرآن.

الثاني والسبعون: فضائل القرآن.

الثالث والسبعون: أفضل القرآن وفاضله.

الرابع والسبعون: مفردات القرآن.

الخامس والسبعون: خواصّه.

السادس والسبعون: رسوم الخط، وآداب كتابته.

السابع والسبعون: معرفة تأويله وتفسيره، وبيان شرفه والحاجة إليه.

الثامن والسبعون: شروط المفسِّر وآدابه.

التاسع والسبعون: غرائب التفسير.

الثمانون: طبقات المفسِّرين.

قال السيوطي: "فهذه ثمانون نوعًا على سبيل الإدماج، ولو نوّعت باعتبار ما أدمجته في ضمنها لزادت على الثلاثمائة؛ وغالب هذه الأنواع فيها تصانيف مفردة، وقفت على كثير منها". انتهى كلام السيوطي - رحمه الله- .

ونحن بعون الله، خلال دراستنا لهذا العلْم، سوف نتعرّض لكثير من تلك المباحث بصورة تفصيليّة؛ إلا أن ذلك لا يمنع من إلقاء الضوء عليها باختصار، ليتم للطالب الإلمام بها، والتطلع إلى الاستزادة من المعلومات التفصيلية عنها.

ذكر طرف من العلوم التي عني بها هذا الفن (٢)

عناصر الدرس

المكّيّ والمدنيّ

مبحث مواطن النزول وأوقاته:

ويندرج تحته: معرفة المكّيّ، والمدنيّ، والحضريّ، والسفريّ، والنهاريّ، والليليّ، والصيفيّ، والشتائيّ، والفراشيّ، والنوميّ، والأرضيّ، والسمائيّ، وأوّل ما نزل، وآخر ما نزل، وأسباب النزول، وما نزل على لسان بعض الصحابة، وما تكرر نزوله، وما تأخر حُكمه عن نزوله، وما تأخّر نزوله عن حُكمه، ومعرفة ما نزل مفرّقًا، وما نزل جمعًا، وما نزل مشيّعًا، وما نزل مفردًا، وما أُنزل منه على بعض الأنبياء، وما لم ينزل منه على أحد قبل النبي ﷺ وكيفية إنزاله.

أولًا: المكّيّ والمدنيّ.

أفرده بالتصنيف جماعة، منهم: مكي بن أبي طالب.

ومن فوائد معرفة ذلك:

العلْم بالمتأخّر، فيكون ناسخًا أو مخصّصًا على رأي من يرى تأخير المخصّص.

قال أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري، في كتاب: (التنبيه على فضل علوم القرآن): "مِن أشرف علوم القرآن: علْم نزوله، وجهاته، وترتيب ما نزل بمكة والمدينة، وما نزل بمكة وحُكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحُكمه مكي، وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة، وما يشبه نزول

المكي في المدني، وما يشبه نزول المدني في المكي، وما نزل بالجحفة، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية، وما نزل ليلًا، وما نزل نهارًا، وما نزل مشيعًا، وما نزل مفردًا، والآيات المدنيات في السوَر المكية، والآيات المكيات في السوَر المدنية، وما حُمل من مكة إلى المدينة، وما حُمل من المدينة إلى مكة، وما حُمل من المدينة إلى أرض الحبشة، وما نزل مجملًا، وما نزل مفسّرًا، وما اختلفوا فيه، فقال بعضهم: مدني، وبعضهم: مكي. فهذه خمسة وعشرون وجهًا من لم يعرفها ويميز بينها، لم يحلّ له أن يتكلم في كتاب الله تعالى". انتهى.

وقال ابن العربي في كتابه: (الناسخ والمنسوخ): الذي علمناه على الجملة من القرآن أن منه مكيًّا، ومدنيًّا، وسفريًّا، وحضريًّا، وليليًّا، ونهاريًّا، وسمائيًّا، وأرضيًّا، وما نزل بين السماء والأرض، وما نزل تحت الأرض في الغار".

اصطلاحات العلماء في المكّي والمدنيّ، وضوابطه

ولأهل العلْم في المكّيّ والمدنيّ اصطلاحات ثلاثة:

أشهرها: أن المكّيّ: ما نزل قبل الهجرة، والمدنيّ: ما نزل بعدها، سواء نزل بمكة أم بالمدينة، عام الفتح أو عام حجة الوداع، أم بسفر من الأسفار.

الثاني: أن المكّيّ: ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدنيّ: ما نزل بالمدينة. وعلى هذا، تثبت الواسطة، فما نزل بالأسفار لا يطلق عليه مكّيّ ولا مدنيّ.

قال السيوطي: ويدخل في مكة ضواحيها: كالمنزل بمنى، وعرفات، والحديبية،

وفي المدينة ضواحيها: كالمنزل ببدر، وأحد، وسلع.

الثالث: أن المكّيّ: ما وقع خطابًا لأهل مكة، والمدنيّ: ما وقع خطابًا لأهل المدينة.

قال القاضي أبو بكر: إنما يرجع في معرفة المكّيّ والمدنيّ إلى حفظ الصحابة والتابعين، ولم يرِد عن النبي ﷺ في ذلك قول.

وقال أبو الحسن بن الحصار في كتابه: (الناسخ والمنسوخ): المدنيّ باتفاق: عشرون سورة، والمختلف فيه: اثنتا عشرة سورة، وما عدا ذلك مكّيّ باتفاق. ثم نظم في ذلك أبياتًا. وكل نوع من المكّيّ والمدنيّ منه آيات مستثناة، إلا أن من الناس من اعتمد في الاستثناء على الاجتهاد دون النقل.

وقد ذكر بعض أهل العلم ضوابط في المكّيّ والمدنيّ؛ ومن ذلك: ما أخرجه الحاكم في (مستدركه)، والبيهقي في (الدلائل)، والبزار في (مسنده)، من طريق الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: "ما كان ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [الأنفال: ١٥] أُنزل بالمدينة، وما كان ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ [البقرة: ٢١] فبمكة". قال مكي: "هذا إنما هو في الأكثر وليس بعام، وفي كثير من السوَر المكية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾". وقال غيره: "الأقرب: حملُه على أنه خطاب المقصود به أو جلّ المقصود به: أهل مكة أو المدينة". وأخرج البيهقي في (الدلائل)، من طريق يونس بن بكير عن هشام بن عروة عن أبيه، قال: "كلّ شيء نزل من القرآن فيه ذكْر الأمم والقرون فإنما نزل بمكة، وما كان من الفرائض والسُّنن فإنما نزل بالمدينة".

مثال ما نزل بمكة وحُكمه مدني: ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ [الحُجُرات: ١٣]

الآية، نزلت بمكة يوم الفتح، وهي مدنية، لأنها نزلت بعد الهجرة. وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] كذلك...

ومثال ما نزل بالمدينة وحُكمه مكّيّ: سورة (الممتحنة)؛ فإنها نزلت بالمدينة مخاطبة لأهل مكة، وقوله في (النحل): ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ [النحل: ٤١] إلى آخرها، نزل بالمدينة مخاطبًا به أهل مكة، وصدْر (براءة) نزل بالمدينة خطابًا لمشركي أهل مكة.

ومثال ما يُشبه تنزيل المدني في السوَر المكية: قوله في (النجم): ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]، فإن "الفواحش": كل ذنب فيه حدّ، و"الكبائر": كلّ ذنب عاقبته النار، و"اللّمم": ما بين الحدّين من الذنوب، ولم يكن بمكة حدّ ولا نحوه.

ومثال ما حمل إلى الروم، ومثال ما حُمل إلى الحبشة: سورة (مريم)؛ فقد صحّ أن جعفر بن أبي طالب قرأها على النجاشي، وأخرجه أحمد في (مسنده).

الحضريّ والسفريّ، والليليّ والنهاريّ

الحضري والسفري:

أمثلة الحضري كثيرة، وأما السّفري فله أمثلة، منها: ﴿وَٱتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، نزلت بمكة عام حجة الوداع؛ فأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن جابر، قال: ((لما طاف النبي ﷺ قال له عمر: هذا مقام أبينا

إبراهيم؟ قال: نعم. قال: أفلا نتّخذه مصلّى؟ فنزلت)).

النهاري والليلي:

أمثلة النهاري كثيرة، قال ابن حبيب: "نزل أكثر القرآن نهارًا، وأما الليل فله أمثلة".

منها: آية تحويل القبلة؛ ففي (الصحيحين) من حديث ابن عمر: ((بينما الناس بقباء في صلاة الصبح، إذ أتاهم آت فقال: إن النبي ﷺ قد أُنزل عليه الليلة قرآن، وقد أُمر أن يستقبل القبلة)). وروى مسلم، عن أنس: ((أن النبي ﷺ كان يصلّي ببيت المقدس، فنزلت: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة: ١٤٤] الآية، فمرّ رجل من بني سلمة -وهم ركوع في صلاة الفجر، وقد صلّوْا ركعة- فنادى: ألا إنّ القبلة قد حُوّلت؛ فمالوا كلّهم نحو القِبلة)). لكن في (الصحيحين)، عن البراء: ((أنّ النبي ﷺ صلّى قبَل بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا. وكان يعجبه أن تكون قبلته قبَل البيت، وأنه أول صلاة صلاها العصر، وصلّى معه قوم. فخرج رجل ممن صلّى معه، فمرّ على أهل مسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليتُ مع رسول الله ﷺ قبَل الكعبة، فداروا كما هم قبَل البيت)). فهذا يقتضي أنها نزلت نهارًا بين الظهر والعصر.

قال القاضي جلال الدين: "والأرجح بمقتضى الاستدلال: نزولها بالليل، لأن قضية أهل قباء كانت في الصبح، وقباء قريبة من المدينة؛ فيبعد أن يكون رسول الله ﷺ أخّر البيان لهم من العصر إلى الصبح".

وقال ابن حجر: "الأقوى: أن نزولها كان نهارًا، والجواب عن حديث ابن عمر: أنّ الخبر وصل وقت العصر إلى من هو داخل المدينة وهم: بنو حارثة، ووصل وقت الصبح إلى من هو خارج المدينة وهم: بنو عمرو بن عوف في قباء".

الصيفيّ والشتائيّ، والفراشي والنوميّ، والأرضيّ والسمائيّ

الصيفيّ والشتائيّ:

قال الواحدي: أنزل الله في الكلالة آيتيْن: إحداهما في الشتاء، وهي التي في أول (النساء)، والأخرى في الصيف، وهي التي في آخرها. وفي (صحيح مسلم) عن عمر: "ما راجعت رسول الله ﷺ في شيء ما راجعته في الكلالة، وما أغلظ في شيء ما أغلظ لي فيه حتى طعن بإصبعه في صدري، وقال: ((يا عمر، ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء؟))".

الفِراشيّ والنوميّ:

من أمثلة الفِراشيّ: قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، لما أخرجه الترمذي والحاكم، عن عائشة قالت: "كان النبي ﷺ يحرس حتى نزلت، فأخرج رأسه من القبّة فقال: ((أيها الناس انصرفوا! فقد عصمني الله!))". وروى أبو يعلى في (مسنده) عن عائشة قالت: "أعطيت تسعًا..." الحديث، وفيه: "وإن كان الوحي لينزل عليه وهو في أهله فينصرفون عنه، وإن كان لينزل عليه وأنا معه في لحافِه".

وأما النّومي: فمن أمثلته سورة (الكوثر)، لما روى مسلم عن أنس قال: ((بينا رسول الله ﷺ بيْن أظهرنا إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسمًا، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال: أنزل علي آنفًا سورة، فقرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [سورة الكوثر])). ولكن يحمل ذلك على الحالة التي كانت تعتريه عند نزول الوحي؛ فقد ذكر العلماء أنه كان يؤخذ عن الدنيا.

الأرضيّ والسمائيّ:

قال ابن العربي: إنّ من القرآن سمائيًّا، وأرضيًّا، وما نزل بين السماء والأرض، وما نزل تحت الأرض في الغار. أمّا ما نزل تحت الأرض: فسورة (المرسلات)، كما في الصحيح عن ابن مسعود.

وأما مثال السمائيّ: فآخِر (البقرة)؛ ويستدل له بما أخرجه مسلم عن ابن مسعود: ((لما أُسري برسول الله ﷺ انتهى إلى سدرة المنتهى...)) الحديث، وفيه: ((فأعطيَ رسول الله ﷺ ثلاثًا: أعطيَ الصلوات الخمس، وأُعطيَ خواتيم سورة (البقرة)، وغفر لمن لا يشرك من أمته بالله شيئًا المقحمات)).

ذكر طرف من العلوم التي عني بها هذا الفن (٣)

عناصر الدرس

مـــــــواطن النــــــــزول

أوّل ما نزَل، وآخر ما نزَل، وأسباب النزول، وما نزل على لسان بعض الصحابة، وما تكرّر نزوله، وما تأخر حُكمه عن نزوله، وما تأخّر نزوله عن حُكمه، ومعرفة ما نزل مفرقاّ، وما نزل جمعاّ، وما نزل مشيعًا، وما نزل مفردًا، وما أنزل منه على بعض الأنبياء، وما لم ينزل منه على أحد قبل النبي ﷺ وكيفية إنزاله.

ومن باب الإشارة إلى هذه الموضوعات نقول:

اختلف في أوّل ما نزَل من القرآن على أقوال:

أحدها: وهو الصحيح: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]. روى الشيخان وغيرهما، عن عائشة، قالت: ((أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصادقة في النوم؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلَق الصبح. ثم حُبِّب إليه الخلاء؛ فكان يأتي حراء، فيتحنّث فيه الليالي ذوات العدد، ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة < فتزوّده لمثلها. حتى فجأَهُ الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملَك فيه، فقال: اقرأ، قال رسول الله ﷺ: فقلتُ: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد. ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلتُ: ما أنا بقارئ، فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد. ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطّني الثالثة حتى بلغ مني الجهد. ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ حتى بلغ ﴿مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ٥] فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره)) الحديث.

وأخرج الطبراني في (الكبير) بسند على شرط الصحيح، عن أبي رجاء

العطاردي، قال: "كان أبو موسى يقرئنا فيجلسنا حلقًا، عليه ثوبان أبيضان. فإذا تلا هذه السورة: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ قال: هذه أوّل سورة أنزلت على محمد ﷺ".

وقيل: (المدثر).

وقيل: (الفاتحة).

عِلْــــم كيفيـــــة إنزالــــــه

اختلف في كيفية إنزاله من اللوح المحفوظ على ثلاثة أقوال:

أحدها: وهو الأصح الأشهر: أنه نزل إلى سماء الدنيا ليلة القَدْر جملةً واحدة، ثم نزل بعد ذلك منجّمًا في عشرين سنة، أو ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين، على حسب الخلاف في مدة إقامته ﷺ بمكة بعد البعثة.

والصواب في المدة: أنه مكث عشر سنوات في المدينة، ومكث في مكة ثلاث عشرة سنة.

وأخرج الحاكم والبيهقي وغيرهما، من طريق منصور عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: "أُنزل القرآن في ليلة القدر جملة واحدة إلى سماء الدنيا، وكان بمواقع النجوم. وكان الله ينزله على رسول الله ﷺ بعضه في أثر بعض".

القول الثاني: أنه نزل إلى السماء الدنيا في عشرين ليلة قدر، أو ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين، في كل ليلة ما يقدر الله إنزاله في كل السَّنة. ثم نزل بعد ذلك منجمًا في جميع السَّنة.

القول الثالث: أنه ابتدئ إنزاله في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك منجّمًا في أوقات مختلفة من سائر الأوقات؛ وبه قال الشعبي.

قال ابن حجر في (شرح البخاري): "والأول هو الصحيح المعتمد.

السر في إنزاله جملة إلى السماء:

قال السيوطي: " تفخيم أمره، وأمْر من نزل عليه، وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخِر الكتب المنزَلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم، قد قربناه إليهم لننزله عليهم. ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجمًا بحسب الوقائع، لهبط به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله باين بينه وبينها، فجعل له الأمريْن: إنزاله جملة، ثم إنزاله مفرقًا، تشريفا للمنزَل عليه"؛ ذكر ذلك أبو شامة في: (المرشد الوجيز).

وقال ابن حجر في (شرح البخاري): "قد أخرج أحمد، والبيهقي في (الشُّعب)، عن واثلة بن الأسقع، أن النبي ﷺ قال: ((أنزلت التوراة لستّ مضيْن من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلَتْ منه، والزبور لثماني عشرة خلَتْ منه، والقرآن لأربع وعشرين خلَتْ منه))، وفي رواية: ((وصحُف إبراهيم لأول ليلة)). قال: وهذا الحديث مطابق لقوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ولقوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدْر: ١]، فيحتمل أن يكون ليلة القدر في تلك السنة كانت الليلة التي أنزل فيها جملةً إلى سماء الدنيا، ثم أنزل في اليوم الرابع والعشرين إلى الأرض أول ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ ".

قال السيوطي: "لكن يشكل على هذا ما اشتهر من أنه ﷺ بُعث في شهر ربيع. ويجاب عن هذا بما ذكروه: أنه نُبّئ أولًا بالرؤيا في شهر مولده، ثم كانت مدتها ستة أشهر".

أقول: وهذا واضح من قول عائشة الثابت في الصحيح، ويضاف إليه قول النبي ﷺ: ((الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوّة)). ومعلوم أن نبوّة النبي ﷺ وإنزال الوحي عليه استغرق ثلاثًا وعشرين سنة؛ فإذًا الجزء الذي هو من ستّ وأربعين هو: ستة أشهر، وهي المدة التي قضاها في الرؤيا. والله أعلم.

وقال أبو شامة أيضًا: "فإن قيل: ما السر في نزوله منجمًا؟ وهلا نزل كسائر الكتب جملة؟ قلنا: هذا سؤال قد تولّى الله جوابه، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ [الفرقان: ٣٢]، يعنون: كما أنزل على من قبلَه من الرسل، فأجابهم تعالى بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي: أنزلناه كذلك مفرّقًا، ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴾ [الفرقان: ٣٢] أي: لنقوِّي به قلبك؛ فإن الوحي إذا كان يتجدّد في كل حادثة كان أقوى بالقلب، وأشد عناية بالمرسَل إليه؛ ويستلزم ذلك كثرة نزول الملَك إليه، وتجدّد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة؛ ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان، لكثرة لقائه جبريل".

وقال غيره: إنما لم ينزل جملة واحدة، لأن منه الناسخ والمنسوخ، ولا يتأتى ذلك إلا فيما أنزل مفرقًا. ومنه: ما هو جواب لسؤال، وما هو إنكار على قول، قيل: أو على فعْل فعْل. فالحاصل: أنّ الآية تضمنت حكمتيْن لإنزاله مفرّقًا. وقد تلقى جبريل عليه السلام القرآن سماعًا عن رب العزة والجلال؛ وهي مسألة تهرّب منها بعض أهل الانحراف العقدي في هذا الباب.

قال السيوطي: "ويؤيد أنّ جبريل تلقّفه سماعًا من الله تعالى: ما أخرجه الطبراني من حديث النواس بن سمعان مرفوعًا: ((إذا تكلّم الله بالوحي، أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله. فإذا سمع بذلك أهلُ السماء صُعقوا وخرّوا سجّدًا. فيكون

أوّلهم يرفع رأسه: جبريل؛ فيكلّمه الله مِن وحيه بما أراد. فينتهي به على الملائكة، فكلما مرّ بسماء سأله أهلها: ماذا قال ربّنا؟ قال: الحق. فينتهي به حيث أُمر)).

وقال الجويني: "كلام الله المنزَل قسمان:

قسم قال الله لجبريل: "قُل للنبي الذي أنتَ مرسَل إليه: إن الله يقول: افعلْ كذا وكذا، وأمر بكذا وكذا"؛ ففهم جبريل ما قاله ربه، ثم نزل على ذلك النبي، وقال له ما قاله ربه، ولم تكن العبارة تلك العبارة، كما يقول الملِك لمن يثق به: "قل لفلان: يقول لك الملِك: اجتهد في الخدمة، واجمع جندك للقتال". فإن قال الرسول: "يقول الملِك: لا تتهاونْ في خدمتي، ولا تترك الجند تتفرّق، وحُثَّهم على المقاتلة"، لا يُنسب إلى كذِب ولا تقصير في أداء الرسالة.

وقسم آخر: قال الله لجبريل: "اقرأ على النبي هذا الكتاب". فنزل جبريل بكلمة من الله من غير تغيير، كما يكتب الملِك كتابًا ويسلّمه إلى أمين، ويقول: "اقرأه على فلان"؛ فهو لا يغيّر منه كلمة ولا حرفًا". انتهى.

قلت: القرآن هو: القسم الثاني. والقسم الأول هو: السُّنّة، ومنها: الحديث القدسي، كما يأتي تفصيله.

وقد ذكر العلماء للوحي كيفيّات:

إحداها: أن يأتيه الملَك في مثل صلصلة الجرس؛ وهذه الحالة أشد حالات الوحي عليه. وقيل: إنه إنما كان ينزل هكذا إذا نزلت آية وعيد وتهديد.

الثانية: أن ينفث في روعه الكلام نفثًا.

الثالثة: أن يأتيه في صورة الرجل فيكلّمه.

الرابعة: أن يأتيه الملَك في النوم.

الخامسة: أن يكلّمه الله إما في اليقظة، أو في النوم.

وقد ثبت في غير حديث نزول القرآن على سبعة أحرف.

اختلاف الأقوال في نزول القرآن على سبعة أحرف:

واختلف في معنى ذلك على نحو من أربعين قولًا:

أحدها: أنه من المشكل الذي لا يُدرَى معناه، لأن "الحرف" يصدق لغة على: حرف الهجاء، وعلى: الكلمة، وعلى: المعنى، وعلى: الجهة.

الثاني: أنه ليس المراد بالسبعة: حقيقة العدد، بل المراد: التيسير والتسهيل والسّعة. ولفظ "السبعة" يطلق على إرادة الكثرة في الآحاد، كما يُطلق "السبعون" في العشرات، و"السبعمائة" في المئين؛ ولا يراد العدد المعيّن.

ويردّه ما في حديث ابن عباس في (الصحيحين): أن رسول الله ﷺ قال: ((أقرأني جبريل على حرف، فراجعته؛ فلم أزل أستزيده ويزيدني، حتى انتهى إلى سبعة أحرف)). وفي حديث أبيّ عند مسلم: ((إن ربي أرسل إليّ أن أقرأ القرآن على حرف، فرددتُ إليه أن هوِّنْ على أمتي، فأرسل إليّ أن أقرأ على حرفين، فرددتُ إليه أن هوِّنْ على أمتي، فأرسل إليّ أن اقرأه على سبعة أحرف)).

وفي حديث: ((فنظرت إلى ميكائيل فسكت، فعلمتُ أنه قد انتهت العدّة)). فهذا يدل على إرادة حقيقة العدد وانحصاره.

الثالث: أن المراد بها: سبع قراءات، وتعقب: بأنه لا يوجد في القرآن كلمة تقرأ على سبعة أوجه إلا القليل، مثل: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠] و﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣].

الرابع: وأجيب: بأن المراد أن كل كلمة تُقرأ بوجه، أو وجهين، أو ثلاثة، أو أكثر، إلى سبعة؛ وهذا إذا قصد، فإن هناك ما يقرأ بأكثر من سبعة أوجه.

وقيل: غير ذلك.

وأظهرها: أن المراد: سبع لغات؛ وإلى هذا ذهب: أبو عبيد، وثعلب، والأزهري، وآخرون. واختاره ابن عطية، وصححه البيهقي في (الشُعب)، وتعقّب: بأن لغات العرب أكثر من سبعة. وأجيب: بأن المراد: أفصحها، فجاء عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: "نزل القرآن على سبع لغات".

السند - علم حفاظه ورواته

ننتقل إلى المبحث الثاني، وهو ما يتعلق بالسند، ويتضمّن:

علم حفّاظه ورواته، العالي والنازل، معرفة المتواتر، المشهور، الآحاد، الشاذ، الموضوع، المدرَج.

علْم معرفة حفّاظه ورواته:

روى البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: ((خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأبيّ بن كعب)) أي: تعلّموا منهم. والأربعة المذكورون: اثنان من المهاجرين، وهما:

المبتدأ بهما، واثنان من الأنصار، وسالم هو: ابن معقل، مولى أبي حذيفة، ومعاذ هو: ابن جبل.

قال الكرماني: "يحتمل أنه ﷺ أراد الإعلام بما يكون بعده، أي: أن هؤلاء الأربعة يبقَوْن حتى ينفردوا بذلك". وتعقب بأنهم لم ينفردوا، بل الذين مهروا في تجويد القرآن بعد العصر النبوي أضعاف المذكورين. وقد قُتل سالم مولى أبي حذيفة في وقعة اليمامة. ومات معاذ في خلافة عمر. ومات أبيّ وابن مسعود في خلافة عثمان. وقد تأخر زيد بن ثابت، وانتهت إليه الرياسة في الإقراء، وعاش بعدهم زمنًا طويلًا.

فالظاهر: أنه أمر بالأخذ عنهم في الوقت الذي صدر فيه ذلك القول، ولا يلزم من ذلك ألاّ يكون أحد في ذلك الوقت شاركهم في حفظ القرآن؛ بل كان الذي يحفظون مثل الذي حفظوه وأزْيد: جماعة من الصحابة. وفي الصحيح: في غزوة بئر معونة، أن الذين قُتلوا بها من الصحابة كان يقال لهم: القُرّاء، وكانوا سبعين رجلًا.

وروى البخاري أيضًا، عن قتادة، قال: "سألت أنس بن مالك: مَن جَمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ؟ فقال: أربعة، كلّهم من الأنصار: أُبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. قلت: من أبو زيد؟ قال: أحد عمومتي".

وروى أيضًا من طريق ثابت عن أنس، قال: "مات النبي ﷺ ولم يَجمع القرآن غيرُ أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد".

وقد استنكر جماعة من الأئمة الحصْر في الأربعة.

وقال القاضي أبو بكر الباقلاني: "الجواب عن حديث أنس من أوجُه:

أحدها: أنه لا مفهوم له؛ فلا يلزم ألا يكون غيرهم جمعَه.

الثاني: المراد: لم يجمعه على جميع الوجوه والقراءات التي نزل بها، إلا أولئك.

الثالث: لم يَجمع ما نُسخ منه بعد تلاوته وما لم يُنسخ، إلا أولئك.

الرابع: أن المراد بجمعه: تلقّيه مِن فِي رسول الله ﷺ لا بواسطة، بخلاف غيرهم؛ فيحتمل أن يكون تلقي بعضه بالواسطة.

الخامس: أنهم تصدّوا لإلقائه وتعليمه فاشتهروا به، وخفي حال غيرهم عمّن عرف حالهم؛ فحصر ذلك فيهم بحسب علْمه، وليس الأمر في نفس الأمر كذلك.

السادس: المراد بالجمع: الكتابة، فلا ينفي أن يكون غيرهم جمعَه حفظًا عن ظهر قلبه، وأما هؤلاء فجمعوه كتابة، وحفظوه عن ظهر قلب".

وقد ذكر أبو عبيد في كتاب (القراءات): "القرّاء من أصحاب النبي ﷺ، فعدّ من المهاجرين: الخلفاء الأربعة، وطلحة، وسعدًا، وابن مسعود، وحذيفة، وسالمًا، وأبا هريرة، وعبد الله بن السائب، والعبادلة، وعائشة، وحفصة، وأمّ سلمة، ومن الأنصار: عبادة بن الصامت، ومعاذًا الذي يُكنى: أبا حليمة، ومجمع بن جارية، وفضالة بن عبيد، ومسلمة بن مخلد. وصرّح بأن بعضهم إنما أكمله بعد النبي ﷺ، فلا يرد على الحصر المذكور في حديث أنس. وعدّ ابن أبي داود منهم: تميمًا الداري، وعقبة بن عامر".

وممن جمَعه أيضًا: أبو موسى الأشعري، ذكَره أبو عمرو الداني.

وقد اشتهر بإقراء القرآن من الصحابة سبعة: عثمان، وعليّ، وأبيّ، وزيد بن ثابت، وابن مسعود، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعري؛ كذا ذكرهم الذهبي في: (طبقات القراء)، قال: "وقد قرأ على أبيّ جماعة من الصحابة، منهم: أبو

هريرة، وابن عباس، وعبد الله بن السائب، وأخذ ابن عباس عن زيد أيضًا، وأخذ عنهم خلق من التابعين".

فممّن كان بالمدينة: ابن المسيّب، وعروة، وسالم، وعمر بن عبد العزيز، وسليمان وعطاء ابنا يسار، ومعاذ بن الحارث المعروف بمعاذ القارئ، وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج، وابن شهاب الزهري، ومسلم بن جندب، وزيد بن أسلم.

وبمكة: عبيد بن عمير، وعطاء بن أبي رباح، وطاوس، ومجاهد، وعكرمة، وابن أبي مليكة.

وبالكوفة: علقمة، والأسود، ومسروق، وعبيدة، وعمرو بن شرحبيل، والحارث بن قيس، والربيع بن خثيم، وعمرو بن ميمون، وأبو عبد الرحمن السلمي، وزر بن حبيش، وعبيد بن نضيلة، وسعيد بن جبير، والنخعي، والشعبي.

وبالبصرة: أبو العالية، وأبو رجاء، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، والحسن، وابن سيرين، وقتادة.

وبالشام: المغيرة بن أبي شهاب المخزومي صاحب عثمان، وخليفة بن سعد صاحب أبي الدرداء.

ثم تجرد قوم، واعتنوا بضبط القراءة أتم عناية، حتى صاروا أئمة يقتدَى بهم، ويُرحل إليهم.

فكان بالمدينة: أبو جعفر يزيد بن القعقاع، ثم شيبة بن نصاح، ثم نافع بن أبي نعيم.

وبمكة: عبد الله بن كثير، وحميد بن قيس الأعرج، ومحمد بن محيصن.

وبالكوفة: يحيى بن وثاب، وعاصم بن أبي النجود، وسليمان الأعمش، ثم حمزة، ثم الكسائي.

وبالبصرة: عبد الله بن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر، وأبو عمر بن العلاء، وعاصم الجحدري، ثم يعقوب الحضرمي.

وبالشام: عبد الله بن عامر، وعطية بن قيس الكلابي، وإسماعيل بن عبد الله بن المهاجر، ثم يحيى بن الحارث الذماري، ثم شريح بن يزيد الحضرمي.

واشتهر من هؤلاء في الآفاق الأئمة السبعة:

١. نافع، وقد أخذ عن سبعين من التابعين، منهم: أبو جعفر.
٢. وابن كثير، وأخذ عن عبد الله بن السائب الصحابي.
٣. وأبو عمرو، وأخذ عن التابعين.
٤. وابن عامر، وأخذ عن أبي الدرداء وأصحاب عثمان.
٥. وعاصم، وأخذ عن التابعين.
٦. وحمزة، وأخذ عن عاصم، والأعمش، والسبيعي، ومنصور بن المعتمر، وغيره.
٧. والكسائي، وأخذ عن حمزة وأبي بكر بن عياش.

ثم انتشرت القراءات في الأقطار، وتفرقوا أممًا بعد أمم، واشتهر من رواة كل طريق من طرق السبعة: راويان.

فعن نافع: قالون، وورش عنه.

وعن ابن كثير: قنبل، والبزي، عن أصحابه عنه.

وعن أبي عمرو: الدوري والسوسي، عن اليزيدي عنه.

وعن ابن عامر: هشام، وابن ذكوان عن أصحابه عنه.

وعن عاصم: أبو بكر بن عياش وحفص عنه.

وعن حمزة: خلَف وخلاد، عن سليم عنه.

وعن الكسائي: الدوري وأبو الحارث.

ثم لما اتسع الخرق، وكاد الباطل يلتبس بالحق، قام جهابذة الأمّة، وبالغوا في الاجتهاد، وجمعوا الحروف والقراءات، وعزوْا الوجوه والروايات، وميزوا الصحيح، والمشهور والشاذ، بأصول أصّلوها وأركان فصّلوها.

فأوّل من صنّف في القراءات: أبو عبيد القاسم بن سلام، ثم أحمد بن جبير الكوفي، ثم إسماعيل بن إسحاق المالكي صاحب قالون، ثم أبو جعفر بن جرير الطبري، ثم أبو بكر محمد بن أحمد بن عمر الداجواني، ثم أبو بكر بن مجاهد. ثم قام الناس في عصره وبعده بالتأليف في أنواعها جامعًا ومفردًا، وموجزًا ومسهبًا؛ وأئمة القراءات لا تحصى.

وقد صنف طبقاتهم حافظ الإسلام: أبو عبد الله الذهبي، ثم حافظ القراءات: أبو الخير بن الجزري.

معرفة العالي والنازل

وأما معرفة العالي والنازل من أسانيده، قال السيوطي: اعلم: أن طلب علوّ الإسناد سُنّة؛ فإنه قرب إلى الله تعالى. وقد قسمه أهل الحديث إلى خمسة أقسام، ورأيتها تأتي هنا:

الأول: القرب من رسول الله ﷺ من حيث العدد، بإسناد نظيف غير ضعيف؛ وهو أفضل أنواع العلوّ وأجلّها...

الثاني: القرب إلى إمام من أئمة الحديث، كالأعمش، وهشيم، وابن جريج، والأوزاعي، ومالك؛ ونظيره هنا: القرب إلى إمام من الأئمة السبعة...

الثالث: العلوّ بالنسبة إلى رواية أحد الكتب الستة: بأن يروي حديثًا لو رواه من طريق كتاب من الستة، وقع أنزل مما لو رواه من غير طريقها؛ ونظيره هنا: العلوّ بالنسبة إلى بعض الكتب المشهورة في القراءات، كـ(التيسير)، و(الشاطبية). ويقع في هذا النوع: الموافقات، والإبدال والمساواة، والمصافحات. ثم فصّل ذلك - رحمه الله- تفصيلًا دقيقًا لا نطيل به.

الرابع: تقدّم وفاة الشيخ عن قرينه الذي أخذ عن شيخه.

الخامس: العلو بموت الشيخ، لا مع التفات لأمر آخر، أو شيخ آخر متى يكون. قال بعض المحدثين: يوصف الإسناد بالعلو إذا مضى عليه من موت الشيخ خمسون سنة. وقال ابن منده: ثلاثون.

قال: "فهذا ما حررتُه من قواعد الحديث، وخرجت عليه قواعد القراءات، ولم أُسبق إليه، ولله الحمد والمنة".

وإذا عرفت العلو بأقسامه، عرفت النزول؛ فإنه ضده. وحيث ذم النزول، فهو ما لم ينجبر بكون رجاله أعلم، وأحفظ، وأتقن، أو أجلّ، أو أشهر، أو أورع؛ أما إذا كان كذلك، فليس بمذموم ولا مفضول.

معرفة: المتواتر، والمشهور، والآحاد، والشاذ، والموضوع، والمدرج

قال القاضي جلال الدين البلقيني: "القراءة تنقسم إلى متواتر، وآحاد، وشاذ".

فالمتواتر: القراءات السّبْع المشهورة.

والآحاد: قراءات الثلاثة التي هي تمام العَشر، ويلحق بها: قراءة الصحابة.

والشاذ: قراءات التابعين، كالأعمش، ويحيى بن وثاب، وابن جبير، ونحوهم...".

وتعقبه السيوطي بقوله: "هذا الكلام فيه نظر، يعرف مما سنذكره".

وأحسن من تكلم في هذا النوع: إمام القراء في زمانه شيخ شيوخنا: أبو الخير بن الجزري، قال في أول كتابه (النشر): "كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالًا، وصحّ سندها، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردّها، ولا يحلّ إنكارها؛ بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها، سواء كانت عن الأئمة السبعة، أم عن العشرة، أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين. ومتى اختلّ ركن من هذه الأركان الثلاثة، أطلق عليها: ضعيفة، أو شاذة، أو باطلة، سواء كانت عن السبعة، أم عمن هو أكبر منهم. هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف؛ صرح بذلك: الداني، ومكي، والمهدوي، وأبو شامة؛ وهو

مذهب السلف الذي لا يعرف عن أحد منهم خلافه...".

ثم قال ابن الجزري: "فقولنا في الضابط: "ولو بوجه"، نريد به: وجهًا من وجوه النحو، سواء كان أفصح أم فصيحًا، مجمعًا عليه أم مختلفًا فيه اختلافًا لا يضر مثله، إذا كانت القراءة مما شاع وذاع، وتلقّاه الأئمة بالإسناد الصحيح؛ إذ هو الأصل الأعظم، والركن الأقوم. وكم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو أو كثير منهم، ولم يعتبر إنكارهم. كإسكان ﴿بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] و﴿يَأْمُرُكُمْ﴾ وخفض ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ ونصب ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا﴾ [الجاثية: ١٤]، والفصل بين المضافين في ﴿قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، وغير ذلك.

قال الداني: "وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة، والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر، والأصح في النقل؛ وإذا ثبتت الرواية لم يردّها قياس عربية، ولا فشوّ لغة، لأن القراءة سنّة متّبعة يلزم قبولها والمصير إليها".

ثم قال ابن الجزري: "ونعني بموافقة أحد المصاحف: ما كان ثابتًا في بعضها دون بعض، كقراءة ابن عامر، ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٦٨] في البقرة بغير واو، و ﴿وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ﴾ [فاطر: ٢٥] بإثبات الباء فيهما؛ فإن ذلك ثابت في المصحف الشامي.

وكقراءة ابن كثير: "تجري من تحتها الأنهار" في آخر (براءة) بزيادة "من"؛ فإنه ثابت في المصحف المكي، ونحو ذلك. فإن لم تكن في شيء من المصاحف العثمانية، فشاذّ، لمخالفتها الرسم المجمع عليه.

وقولنا: ولو احتمالًا، نعني به: ما وافقه ولو تقديرًا، كـ"مَلِكِ يَوْمِ الدِّين"؛ فإنه كتب في الجميع بلا ألف؛ فقراءة الحذف توافقه تحقيقًا، وقراءة الألف توافقه

تقديرًا لحذفها في الخط اختصارًا كما كتب: "مَلِكِ يَوْمِ الدِّين".

وقد يوافق اختلاف القراءات الرسم تحقيقًا نحو: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ بالتاء والياء، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١] بالياء والنون، ونحو ذلك مما يدل تجرّده عن النقط والشكل في حذفه وإثباته، على فضل عظيم للصحابة } في علْم الهجاء خاصة، وفهم ثاقب في تحقيق كل علْم..."

إلى أن قال: "وقولنا: وصحّ سندها، نعني به: أن يروي تلك القراءة العدلُ الضابطُ عن مثله، وهكذا حتى ينتهي، وتكون مع ذلك مشهورة عند أئمة هذا الشأن، غير معدودة عندهم من الغلط، أو مما شذّ بها بعضهم".

وقال مكي: "ما روي في القرآن على ثلاثة أقسام:

قسم يُقرأ به ويكفُر جاحدُه، وهو: ما نقله الثقات، ووافق العربية وخطَّ المصحف.

وقسم صحّ نقله عن الآحاد، وصحّ في العربية، وخالف لفظه الخطَّ؛ فيُقبل ولا يُقرأ به لأمرين: مخالفته لما أُجمع عليه، وأنه لم يؤخذ بإجماع بل بخبر الآحاد؛ ولا يثبت به قرآن، ولا يكفر جاحده، ولبئس ما صنع إذ جحده.

وقسم نقله ثقة، ولا وجهَ له في العربية، أو نقله غير ثقة، فلا يقبل وإن وافق الخطَّ".

قال السيوطي: "قد تحرر لي أن القراءات أنواع:

الأول: المتواتر، وهو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم إلى منتهاه؛ وغالب القراءات كذلك.

الثاني: المشهور، وهو ما صح سنده ولم يبلغ درجة التواتر، ووافق العربية والرسم، واشتُهر عن القرّاء؛ فلم يعدّ من الغلط، ولا من الشذوذ،

ويُقرأ به على ما ذكر ابن الجزري. ويُفهمه كلام أبي شامة السابق. ومثاله: ما اختلفت الطرق في نقله عن السبعة، فرواه بعض الرواة عنهم دون بعض. وأمثلة ذلك كثيرة في فرْش الحروف من كتب القراءات، كالذي قبله. ومن أشهر ما صنّف في ذلك: (التيسير) للداني، وقصيدة الشاطبي، و(أوعية النشر في القراءات العشر)، و(تقريب النشر): كلاهما لابن الجزري. أقول: هكذا سماه الحافظ السيوطي: (أوعية النشر)، والكتاب مشهور بـ(النشر).

الثالث: الآحاد، وهو ما صح سنده، وخالف الرسم، أو العربية، أو لم يشتهر الاشتهار المذكور، ولا يقرأ به. من ذلك: ما أخرجه الحاكم عن ابن عباس، أنه ﷺ قرأ "لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفَسِكُم" بفتح الفاء. وأخرج عن عائشة، أنه ﷺ قرأ: "فَرُوْحٌ وَرَيْحَان"، يعني بضم الراء.

الرابع: الشاذ، وهو ما لم يصح سنده، وفيه كتب مؤلفة؛ من ذلك: قراءة "ملَك يومَ الدين" بصيغة الماضي، ونصب "يوم"، و "إياك يُعبَد" ببنائه للمفعول.

الخامس: الموضوع، كقراءات الخزاعي".

قلت: ومن ذلك أيضًا: ما كان من باب التصحيف، كقراءة بعضهم: "جعل السفينة في رجل أخيه"، بدلًا من قوله: ﴿ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ [يوسف: ٧٠]، وكمن قرأ: "صنعةَ الله ومن أحسن من الله صنعة"، بدلًا من: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة: ١٣٨] ونحو ذلك...

يقول السيوطي: وظهر لي سادس يشبهه من أنواع الحديث المدرج، وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير، كقراءة سعد بن أبي وقاص: "وله أخ أو أخت

من أم"، أخرجها سعيد بن منصور. وقراءة ابن عباس: "ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلًا من ربكم في مواسم الحج"، أخرجها البخاري. وقراءة ابن الزبير: "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون بالله على ما أصابهم"، قال عمر: فما أدري أكانت قراءته أم فسّر؟ أخرجه سعيد بن منصور، وأخرجه ابن الأنباري، وجزم بأنه تفسير.

علوم القرآن المتعلقة بالأداء

عناصر الدرس

الوقف والابتداء

أفرده بالتصنيف خلائق، منهم: أبو جعفر النحاس، وابن الأنباري، والزجاج، والداني، والعماني، والسجاوندي، وغيرهم. وهو فن جليل، به يعرف كيف أداء القراءة. روى النحاس عن عبد الله بن عمر < قال: "لقد عشنا برهة من دهرنا، وإنّ أحدنا ليؤتى الإيمان قبل القرآن. وتنزل السورة على محمد ﷺ، فنتعلّم حَلالها وحرامها، وما ينبغي أن يوقف عنده منها، كما تتعلّمون أنتم القرآن اليوم. ولقد رأينا اليوم رجالًا يُؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته، ما يدري ما أمْره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه".

قال النحاس: "فهذا الحديث يدل على أنهم كانوا يتعلّمون الأوقاف كما يتعلّمون القرآن".

قال السيوطي: "وقول ابن عمر: "لقد عشنا برهة من دهرنا" يدل على: أن ذلك إجماع من الصحابة ثابت. وقد أخرج هذا الأثر البيهقي في (سُننه).

وعن علي < في قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزّمل: ٤]، قال: "الترتيل: تجويد الحروف، ومعرفة الوقوف".

وقال النكزاوي: "باب الوقف عظيم القدر، جليل الخطر، لأنه لا يتأتى لأحد معرفة معاني القرآن، ولا استنباط الأدلة الشرعية منه، إلا بمعرفة الفواصل".

قال ابن الجزري: "لما لم يمكن القارئ أن يقرأ السورة أو القصة في نفس واحد، ولم يجز التنفس بين كلمتين حالة الوصل بل ذلك كالتنفس في أثناء الكلمة،

وجب حينئذ اختيار وقف للتنفس والاستراحة، وتعيّن ارتضاء ابتداء بعده، وتحتّم ألا يكون ذلك مما يُحيل المعنى ولا يُخل بالفهم؛ إذ بذلك يظهر الإعجاز، ويحصل القصد. ولذلك حضّ الأئمة على تعلّمه ومعرفته. وفي كلام عليّ دليل على وجوب ذلك، وفي كلام ابن عمر: برهان على أن تعلّمه إجماع من الصحابة. وصح بل تواتر عندنا: تعلّمه والاعتناء به من السلف الصالح، كأبي جعفر يزيد بن القعقاع، أحد أعيان التابعين، وصاحبه الإمام نافع، وأبي عمرو، ويعقوب، وعاصم، وغيرهم من الأئمة. وكلامهم في ذلك معروف، ونصوصهم عليه مشهورة في الكتب؛ ومن ثمّ اشترط كثير من الخلف على المجيز ألاّ يجيز أحدًا إلا بعد معرفته الوقف والابتداء. وصح عن الشعبي أنه قال: إذا قرأت ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن: ٢٦]، فلا تسكتْ حتى تقرأ: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٧]".

أنواع الوقف:

اصطلح الأئمة على: أنّ لأنواع الوقف والابتداء أسماء، واختلفوا في ذلك على أقوال كثيرة: فقال ابن الأنباري: "الوقف على ثلاثة أوجه: تام، وحسن، وقبيح.

فالتام: الذي يحسن الوقف عليه، والابتداء بما بعده، ولا يكون بعده ما يتعلق به، كقوله: ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٥]، وقوله: ﴿ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٦].

والحسن: هو الذي يحسن الوقف عليه، ولا يحسن الابتداء بما بعده، كقوله: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ [الفاتحة: ٢]، لأن الابتداء بـ ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لا يحسن، لكونه صفة لما قبله.

والقبيح: هو الذي ليس بتام ولا حسن، كالوقف على ﴿بِسْمِ﴾ كمن قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾. قال: ولا يتم الوقف على المضاف دون المضاف إليه، ولا المنعوت دون نعته، ولا الرافع دون مرفوعه، وعكسه، ولا الناصب دون منصوبه، وعكسه..." إلى آخر كلامه - رحمه الله- .

وقال غيره: الوقف ينقسم إلى أربعة أقسام: تام مختار، وكاف جائز، وحسن مفهوم، وقبيح متروك.

وقيل: غير ذلك على تفاصيل لا نطيل بها.

قال ابن الجزري: "أكثر ما ذكر الناس في أقسام الوقف غير منضبط، ولا منحصر، وأقرب ما قلته في ضبطه: أن الوقف ينقسم إلى: اختياري واضطراري، لأن الكلام إما أن يتم أو لا؛ فإن تم كان اختياريًا..." إلى أن قال: "وإن لم يتم الكلام كان الوقف عليه اضطراريًا، وهو المسمى بالقبيح، لا يجوز تعمّد الوقف عليه إلا لضرورة من انقطاع نَفَس ونحوه، لعدم الفائدة، أو لفساد المعنى، نحو: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ﴾ [الفاتحة: ٧]. وقد يكون بعضه أقبح من بعض، نحو: ﴿فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ﴾ [النساء: ١١]، لإيهامه أنهما مع البنت شركاء في النصف. وأقبح منه، نحو: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ [البقرة: ٢٦]، ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون: ٤]، ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ٤٣]. فهذا حكم الوقف اختياريًّا واضطراريًّا.

وأما الابتداء، فلا يكون إلا اختياريًّا، لأنه ليس كالوقف تدعو إليه ضرورة؛ فلا يجوز إلا بمستقلّ بالمعنى، موفٍ بالمقصود، ومثّل لذلك بالوقف على ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾ و﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١٧]؛ فالابتداء بـ﴿ابْنُ﴾ قبيح، وبـ﴿عُزَيْرٌ﴾ و﴿الْمَسِيحُ﴾ أشد قبحًا.

وقد يكون الوقف حسنًا، والابتداء به قبيحًا، نحو: ﴿ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الممتحنة: ١].

وقد ضبطت جلّ المصاحف الآن بعلامات للضبط تسهّل للقارئ معرفة الوقوف ومن ذلك:

وضع كلمة: "صلي" فوق الكلمة، تعني: أن الوقف جائز، لكن الوصل أوْلى.

ووضع كلمة: "قلي"، تعني: أن الوصل جائز، ولكن الوقف أوْلى.

ووضع حرف: "ج"، يعني: أن الوقف والوصل مستويان.

ووضع كلمة: "لا"، يعني: الوقف الممنوع.

ووضع حرف: "م" فوق الكلمة، يعني: الوقف اللازم.

ووضع ثلاث نقاط فوق كلمة، يتلوها ثلاث نقاط فوق كلمة تأتي بعدها، يعني: إذا وقفتَ على إحداهما، فلا تقفْ على الأخرى؛ ويسمَّى: وقف التعانق.

وكان أبو عمرو يتعمّد الوقف على رؤوس الآي، ويقول: "هو أحبّ إليَّ، فقد قال بعضهم: إن الوقف عليه سنّة".

وقال البيهقي في (الشُّعب) وآخرون: "الأفضل: الوقف على رؤوس الآيات، وإن تعلّقت بما بعدها، اتّباعًا لهدي رسول الله ﷺ وسنّته".

روى أبو داود وغيره، عن أم سلمة: ((أنّ النبي ﷺ كان إذا قرأ قطع قراءته آية آية، يقول: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ثم يقف، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ثم يقف، ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ثم يقف)).

والتوقف عن القراءة ثلاثة أنواع: الوقف، والقطع، والسكت:

فالقطع: عبارة عن قطع القراءة رأسًا، فهو كالانتهاء؛ فالقارئ به كالمعرض عن القراءة، والمنتقل إلى حالة أخرى غيرها. وهو الذي يُستعاذ بعده للقراءة المستأنفة، ولا يكون إلا على رأس آية، لأن رؤوس الآي في نفسها مقاطع.

أخرج سعيد بن منصور في سننه، عن ابن أبي الهذيل أنه قال: "كانوا يكرهون أن يقرؤوا بعض الآية، ويدَعوا بعضها". إسناده صحيح.

وعبد الله بن أبي الهذيل تابعي كبير، وقوله: "كانوا" يدل على: أن الصحابة كانوا يكرهون ذلك.

والوقف: عبارة عن قطع الصوت عن الكلمة زمنًا يتنفس فيه عادة بنيّة استئناف القراءة، لا بنيّة الإعراض؛ ويكون في رؤوس الآي وأوساطها، ولا يأتي في وسط الكلمة، ولا فيما اتصل رسمًا.

والسكت: عبارة عن قطع الصوت زمنًا هو دون زمن الوقف عادة، من غير تنفس. واختلاف ألفاظ الأئمة في التأدية عنه مما يدل على طوله وقصره.

قال ابن الجزري: "والصحيح: أنه مقيّد بالسماع والنقل، ولا يجوز إلا فيما صحت الرواية به لمعنى مقصود بذاته".

وللوقف في كلام العرب أوجُه متعدّدة، والمستعمل منها عند أئمة القراءة تسعة: السكون، والرَّوْم، والإشمام، والإبدال، والنقل، والإدغام، والحذف، والإثبات، والإلحاق.

فأما السكون فهو: الأصل في الوقف على الكلمة المحرّكة وصلًا، لأن معنى الوقف: الترك والقطع، ولأنه ضد الابتداء؛ فكما لا يُبتدأ بساكن، لا يوقف على متحرك؛ وهو اختيار كثير من القراء.

وأما الرَّوم فهو عند القراء: عبارة عن النطق ببعض الحركة، ويختص بالمرفوع، والمجرور، والمضموم، والمكسور.

وأما الإشمام فهو عبارة عن الإشارة إلى الحركة من غير تصويت، ويختص بالضمة سواء كانت حركة إعراب أم بناء، إذا كانت لازمة، أما العارضة، وميم الجمع عند مَن ضم، وهاء التأنيث، فلا روم في ذلك ولا إشمام.

وفائدة الرّوم والإشمام: بيان الحركة التي تثبت في الوصل للحرف الموقوف عليه، ليظهر للسامع أو الناظر كيف تلك الحركة الموقوف عليها.

فهناك أبواب من الإشمام، مثل: إشمام الصاد زايًا في قراءة: ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ﴾، و﴿ أَصۡدَقُ ﴾، و﴿ يَصۡدِفُونَ ﴾، وإشمام الياء الواو في: ﴿ قِيلَ ﴾، ﴿ وَجِاْيٓءَ ﴾، ﴿ وَغِيضَ ﴾، ونحوها...

وأما الإبدال ففي الاسم المنصوب المنوّن، يوقف عليه بالألف بدلًا من التنوين.

وفي الاسم المفرد المؤنث بالتاء، يوقف عليها بالهاء بدلًا منها، وغير ذلك...

وأما النقل ففيما آخره همزة بعد ساكن؛ فإنه يوقف عليه عند حمزة بنقل حركتها إليه، فتحرك بهاء ثم تحذف هي.

وأما الإدغام ففيما آخِره همز بعد ياء أو واو زائدتين؛ فإنه يوقف عليه عند حمزة أيضًا بالإدغام، بعد إبدال الهمز من جنس ما قبله، نحو: ﴿ ٱلنَّسِيٓءُ ﴾.

وأما الحذف ففيما يسمّى بياءات الزوائد عند من يثبتها وصلًا، ويحذفها وقفًا.

وأما الإثبات ففي الياءات المحذوفات وصلًا عند من يُثبتها وقفًا، نحو: ﴿ بِٱللَّهِ ﴾ و﴿ ٱلنَّصۡرُ ﴾.

وأمّا الإلحاق فما يلحق آخِر الكلِم من هاءات السكت عند مَن يلحقها في: "عَمَّ" و"فِيمَ"، والنون المشددة من جمع الإناث نحو: "هُنَّ"، والنون المفتوحة نحو: ﴿ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾، والمشدد المبني نحو: ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [ص: ٧٥].

و﴿ بِمُصْرِخِىَّ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقد أجمعوا على: لزوم اتّباع رسم المصاحف العثمانية في الوقف إبدالًا، وإثباتًا، وحذفًا، ووصلًا، وقطعًا؛ إلا أنه ورد عنهم اختلاف في أشياء بأعيانها، كالوقف بالهاء على ما كُتب بالتاء، وغيرها... ومن القراء من يتّبع الرسم في الجميع.

الموصول لفظًا المفصول معنىً

قال السيوطي: "وهو نوع مهم جدير أن يفرد بالتصنيف، وهو أصل كبير في الوقف، وبه يحصل حلّ إشكالات، وكشف معضلات كثيرة". ومثّل لذلك بقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩] إلى قوله: ﴿ جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٠]. قال: "فإن الآية في قصة آدم وحواء، كما يفهمه السياق، وصرّح به في حديث أخرجه أحمد، والترمذي وحسّنه، والحاكم وصحّحه، من طريق الحسن عن سمرة مرفوعًا. وأخرجه ابن أبي حاتم وغيره بسند صحيح، عن ابن عباس، لكن آخر الآية مشكل؛ حيث نسب الإشراك إلى آدم وحواء، وآدم نبيّ مكلّم، والأنبياء معصومون من الشرك قبل النبوة وبعدها إجماعًا. وقد جرّ ذلك بعضهم إلى حمل الآية على غير آدم وحواء، وأنها في رجل وزوجته كانا من أهل

الملك. وتعدّى إلى تعليل الحديث، والحكم بنكارته، وما زلت في وقفة من ذلك، حتى رأيت ابن أبي حاتم قال: "أخبرنا أحمد بن عثمان بن حكيم: حدثنا أحمد بن مفضل: حدثنا أسباط عن السدي في قوله: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قال: هذه فصل من آية آدم، خاصة في آلهة العرب".

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة، سمعت صدقة بن عبد الله بن كثير المكي يحدث عن السّدّي، قال: "هذا من الموصول المفصول". ثم قال: "فانحلّت عني هذه العقدة، وانجلت لي هذه المعضلة، واتّضح بذلك: أن آخِر قصة آدم وحواء: ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ﴾، وأنّ ما بعده تخلص إلى قصة العرب وإشراكهم الأصنام؛ ويوضّح ذلك: تغيير الضمير إلى الجمع بعد التثنية. ولو كانت القصة واحدة، لقال: "عمّا يُشركان"، كقوله: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَـٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠]. وكذلك الضمائر في قوله بعده: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾ [الأعراف: ١٩١] وما بعده إلى آخِر الآيات. وحسن التخلص والاستطراد من أساليب القرآن".

قلت: والصواب أن حديث سمرة ضعيف، لأن الحسن لم يسمع منه، وقد فسّر الحسن هذه الآية بغير ذلك، ولو كان ثابتًا عنده لما عدل عنه، ولكنه مفصول فعلًا، ولكن عند قوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ﴾؛ حيث انتهى الكلام عن آدم وحواء، ثم تخلّص إلى كل زوجين مشركين يشركان بالله فيما آتاهما من الولد؛ ولذا حسن الجمع في آخر الكلام لتعدّد الزوجين المشركين، وإن كان التعبير عن المثنى بالجمع مقبول ومشهور، وأمثلته كثيرة.

الإمالة والفتح وما بينهما

أفرده بالتصنيف جماعة من القراء، منهم: ابن الفاصح، عمل كتابه: قرة العين في الفتح، والإمالة، وبين اللفظين.

قال الداني: "الفتح والإمالة لغتان مشهورتان فاشيتان على ألسنة الفصحاء من العرب الذين نزل القرآن بلُغتهم. فالفتح: لغة أهل الحجاز، والإمالة: لغة عامة أهل نجد من تميم، وأسد، وقيس".

وروى ابن أبي شيبة عن إبراهيم، قال: "كانوا يرون: أنّ الألف والياء في القراءة سواء"، قال: "يعني بالألف والياء: التفخيم والإمالة".

وعن زر بن حبيش قال: "قرأ رجل على عبد الله بن مسعود: "طه" ولم يكسر، فقال: عبد الله: "طه" وكسَر الطاء والهاء. فقال الرجل: "طه" ولم يكسر، فقال عبد الله: "طه" وكسر الطاء والهاء، فقال الرجل: "طه" ولم يكسر. فقال عبد الله: "طه" وكسر، ثم قال: هكذا علّمني رسول الله ﷺ".

قال ابن الجزري: "هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. ورجاله ثقات، إلا محمد بن عبيد الله، وهو العرزمي؛ فإنه ضعيف عند أهل الحديث. وكان رجلًا صالحًا، لكن ذهبتْ كتبه، فكان يحدّث من حفظه، فأتي عليه من ذلك".

قال السيوطي: "وحديثه هذا أخرجه ابن مردويه في تفسيره، وزاد في آخِره: "وكذا نزل بها جبريل".

وعن صفوان بن عسال أنه: ((سمع رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿يَيَحْيَىٰ﴾، فقيل له: يا رسول الله، تُميل، وليس هي لغة قريش، فقال: هي لغة الأخوال بني سعد)).

والإمالة: أن ينحو بالفتحة نحو الكسرة، وبالألف نحو الياء كثيرًا، وهو: المحض، ويقال له أيضًا: الإضجاع والبطح. والكسر قليلًا: وهو بين اللفظين، ويقال له أيضًا: التقليل، والتلطيف، وبيْن بيْن.

وأما الفتح فهو: فتح القارئ فاه بلفظ الحرف، ويقال له: التفخيم.

والكلام في الإمالة من خمسة أوجه: أسبابها، ووجوهها، وفائدتها، ومَن يميل، وما يُمال.

أما أسبابها: فذكر القراء عشرة، قال ابن الجزري: وهي ترجع إلى شيئين، أحدهما: الكسرة. والثاني: الياء. وكل منهما يكون متقدمًا على محل الإمالة من الكلمة أو متأخرًا عنه. ويكون أيضًا مقدّرًا في محل الإمالة. وقد تكون الكسرة والياء غير موجودتيْن في اللفظ، ولا مقدّرتيْن في محل الإمالة، ولكنهما مما يعرض في بعض تصاريف الكلمة. وقد تمال الألف أو الفتحة لأجل ألف أخرى أو فتحة أخرى ممالة، وتسمّى هذه إمالة لأجل إمالة، وقد تمال الألف تشبيهًا بالألف الممالة.

قال ابن الجزري: "وتمال أيضًا بسبب كثرة الاستعمال، وللفرق بين الاسم والحرف، فتبلغ الأسباب اثني عشر سببًا".

تابع: علوم القرآن المتعلقة بالأداء

عناصر الدرس

الإدغـام، والإظهـار، والإخفـاء، والإقـلاب

الإدغام: هو: اللفظ بحرفين، حرفًا كالثاني مشدَّدًا؛ وينقسم إلى: كبير، وصغير.

فالإدغام الكبير:

ما كان أوّل الحرفيْن فيه متحركًا، سواء كانا مثليْن، أم جنسيْن، أم متقاربيْن. وسُمّي كبيرًا لكثرة وقوعه؛ إذ الحركة أكثر من السكون. وقيل: لما فيه من الصعوبة. وقيل: لشموله نوعَي المثليْن والجنسيْن والمتقاربيْن.

والمشهور بنسبته إليه من الأئمة العشرة: هو أبو عمرو بن العلاء. وورد عن جماعة خارج العشرة، كالحسن البصري، والأعمش، وابن محيصن، وغيرهم.

ووجهه: طلب التخفيف. وكثير من المصنفين في القراءات لم يذكروه البتة، كأبي عبيد في كتابه، وابن مجاهد في السبعة، ومكي في التبصرة، وغيرهم...

قال ابن الجزري: "ونعني بالمتماثلَيْن: ما اتفقا مخرجًا وصفة.

والمتجانسيْن: ما اتفقا مخرجًا، واختلفا صفة.

وبالمتقاربيْن: ما تقاربا مخرجًا أو صفة. وتفصيل ذلك في علْم التجويد".

وأما الإدغام الصغير:

فهو: ما كان الحرف الأول فيه ساكنًا. وهو واجب، وممتنع، وجائز. والذي جرت عادة القراء بذكْره في كتب الخلاف هو: الجائز، لأنه الذي اختلف القراء

فيه. وهو قسمان:

الأول: إدغام حرف من كلمة في حروف متعددة من كلمات متفرقة، وتنحصر في: "إذ"، و"قد"، و"تاء" التأنيث، و"هل"، و"بل".

الثاني: إدغام حروف قرُبت مخارجها.

يلحق بالقسميْن السابقيْن قسم آخَر اختلف في بعضه: وهو أحكام النون الساكنة والتنوين، ولهما أحكام أربعة: إظهار، وإدغام، وإقلاب، وإخفاء.

فالإظهار لجميع القراء عند ستة أحرف، وهي: حروف الحلق: الهمزة، والهاء، والعين، والحاء، والغين، والخاء. وبعضهم: يخفي عند الخاء والغين.

والإدغام في ستة: حرفان بلا غنّة وهما: اللام والراء، وأربعة بغنّة، وهي: النون، والميم، والياء، والواو. وبعضهم: يدغم في: الواو والياء بلا غنّة.

والإقلاب عند حرف واحد وهو: الباء، بقلب النون والتنوين عند الباء ميمًا خاصة، فتخفى بغنّة.

والإخفاء عند باقي الحروف وهي: خمسة عشر، مجموعة في أوائل هذا البيت:

صِف ذا ثنا كَم جاد شخصٌ قد سمَا ❖ دُم طيبا زِدْ في تُقى ضَع ظالمًا

المــــــــد والقــــــــصر

أفرده جماعة من القراء بالتصنيف.

قال السيوطي: "الأصل في المدّ: ما أخرجه سعيد بن منصور في (سُننه): حدّثنا شهاب بن خراش: حدثني مسعود بن يزيد الكندي قال: "كان ابن مسعود يُقرئ رجلًا، فقرأ الرجل: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ [التوبة: ٦٠] مُرسلة، فقال ابن مسعود: ما هكذا

أقرأنيها رسول الله ﷺ، فقال: كيف أقرأكها يا أبا عبد الرحمن؟ فقال: أقرأنيها: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ فمدّ". وهذا حديث حسن، جليل حُجة، ونصّ في الباب، رجال إسناده ثقات، أخرجه الطبراني في (الكبير).

قلت: بل تلقِّي القراء المتواتر هو: الأصل؛ وهو أعظم من هذا الحديث الفرد بمراحل كثيرة. والقراءات لا يُبحث عنها في كتب الحديث، وإنما العمدة فيها: النقل المتواتر الذي نقله الكواف في كل عصر ومصر، حتى رسول الله ﷺ. فلو اختلف القراء فيه، لكان التواتر في قراءة واحدة كافيًا، فكيف وقد أجمع القراء على هذا المد؟

والمدّ: عبارة عن زيادة مطّ في حرف المد على المد الطبيعي، وهو الذي لا تقوم ذات حرف المد دونه.

والقصر: ترك تلك الزيادة وإبقاء المد الطبيعي على حاله.

وحروف المد: الألِف مطلقًا، والواو الساكنة المضموم ما قبلها، والياء الساكنة المكسور ما قبلها.

وسببه: لفظي ومعنوي.

فاللفظي:

إمّا همز أو سكون. فالهمز يكون بعد حرف المد وقبله. والثاني: نحو: ﴿ءَادَمَ﴾ [المائدة: ٢٧] و﴿رَءَا﴾ و ﴿إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢] و﴿خَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩٧]، و﴿أُوتُواْ﴾ [النحل: ٢٧]، و﴿ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ﴾ [التكوير: ٨].

والأوّل إن كان معه في كلمة واحدة فهو: المتصل، نحو: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ [المطفّفين: ٤]، ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعلى: ٧] و﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الروم: ١٠] و﴿يُضِيٓءُ﴾ [النور: ٣٥]. وإن كان

حرف المد آخر كلمة، والهمز أوّل أخرى، فهو: المنفصل، نحو: ﴿ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [البقرة: ٤]، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ﴾ [البقرة: ٢١]، ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾ [البقرة: ١٣٦]، ﴿ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ﴿ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، ﴿ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦].

ووجْه المد لأجْل الهمز: أن حرف المد خفي، والهمز صعب؛ فزيد في الخفيّ ليتمكن من النطق بالصعب.

والسكون: إما لازم، وهو الذي لا يتغيّر في حاليْه نحو: ﴿ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٧]، و﴿ دَآبَّةٍ ﴾ [البقرة: ١٦٤]، و﴿ الٓمٓ ﴾ [البقرة: ١]، و﴿ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى ﴾ [الأنعام: ٨٠]، أو عارض: وهو الذي يعرض للوقف ونحوه، نحو: ﴿ ٱلْعِبَادِ ﴾ [يس: ٣٠]، و﴿ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص: ١٦]، و﴿ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، و﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾، و﴿ يُوقِنُونَ ﴾، حالة الوقف، و﴿ فِيهِ هُدًى ﴾ [البقرة: ٢]، و﴿ وَقَالَ لَهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٧] و﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ﴾ [آل عمران: ١٦]، حالة الإدغام.

ووجْه المدّ للسكون: التمكن من الجمع بين الساكنيْن؛ فكأنه قام مقام حركة.

وقد أجمع القراء على: مدّ نوعي المتصل وذي الساكن اللازم، وإن اختلفوا في مقداره. واختلفوا في مد النوعين الآخرين، وهما: المنفصل، وذو الساكن العارض، وفي قصرهما.

فأما المتصل فاتفق الجمهور على مدّه قدرًا واحدًا مشبعًا من غير إفحاش.

وأما ذو الساكن ويقال له: مدّ العدل لأنه يعدل حركة، فالجمهور أيضًا على: مدّه مشبعًا قدرًا واحدًا من غير إفراط. وذهب بعضهم: إلى تفاوته.

وأما المنفصل ويقال له: مدّ الفصل لأنه يفصل بين الكلمتيْن، ومد البسط لأنه يبسط بين الكلمتيْن، ومد الاعتبار لاعتبار الكلمتيْن من كلمة، ومد حرف بحرف

أي: مد كلمة بكلمة، والمد الجائز من أجل الخلاف في مدّه وقصره، فقد اختلفت العبارات في مقدار مدّه.

وأمّا العارض فيجوز فيه لكل من القراء كل من الأوجه الثلاثة: المد، والتوسط، والقصر؛ وهي: أوجه تخيير.

والمعنوي:

قصد المبالغة في النفي، وهو: سبب قوي مقصود عند العرب، وإن كان أضعف من اللفظي عند القراء. ومنه: مدّ التعظيم في نحو: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الزُّمَر: ٦]، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الصافات: ٣٥]، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

ويسمّى: مدّ المبالغة. وهذا مذهب معروف عند العرب، لأنها تمد عند الدعاء، وعند الاستغاثة، وعند المبالغة في نفي شيء، ويمدّون ما لا أصل له بهذه العلة.

قال ابن الجزري: "وقد ورد عن حمزة: مد المبالغة للنفي في: "لَا". التي للتبرئة نحو: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢].

قال أبو بكر أحمد بن الحسين بن مهران النيسابوري: "مدات القرآن على عشرة أوجُه:

١. مد الحجز في نحو: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ [البقرة: ٦]، ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦]، ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ [المؤمنون: ٨٢]، ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ﴾ [القمر: ٢٥]، لأنه أدخل بين الهمزتيْن حاجزًا خففّهما، لاستثقال العرب جمعهما؛ وقدْره: أِلف تامة بالإجماع، فحصول الحجز بذلك.

٢. ومد العدل في كل حرف مشدّد وقبله حرف مدّ ولين، نحو: ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾، لأنه يعدل حركة، أي: يقوم مقامها في الحجز بين الساكنيْن.

٣. ومدّ التمكين في نحو: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ [البقرة: ٥]، و﴿ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ [البقرة: ٣١]، و﴿ شَعَآئِرِ ﴾ [البقرة: ١٥٨]، وسائر المدات التي تليها همزة، لأنه جلب ليتمكن به من تحقيقها، وإخراجها من مخرجها.

٤. ومدّ البسط ويسمى أيضًا: مد الفصل، في نحو: ﴿ بِمَآ أُنزِلَ ﴾ [البقرة: ٤]، لأنه يبسط بين كلمتيْن، ويصل به بين كلمتيْن متصلتيْن.

٥. ومد الرَّوم في نحو ﴿ هَٰٓأَنتُمْ ﴾ [آل عمران: ٦٦]، لأنهم يرومون الهمزة من "أنتم"، ولا يحققونها، ولا يتركونها أصلًا، ولكن يلينونها ويشيرون إليها؛ وهذا على مذهب من لا يهمز ﴿ هَٰٓأَنتُمْ ﴾. وقدْره: ألِف ونصف.

٦. ومد الفرق: في نحو: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ ﴾، لأنه يفرق به بين الاستفهام والخبر، وقدره: ألِف تامة بالإجماع. فإن كان بين ألف المد حرف مشدد، زيد ألف أخرى ليتمكن به من تحقيق الهمزة، نحو: ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

٧. ومد البنية: في نحو: ﴿ مَآءٍ ﴾ [فاطر: ٢٧]، و﴿ دُعَآءً ﴾ [البقرة: ١٧١]، ﴿ وَنِدَآءً ﴾ [البقرة: ١٧١]، و﴿ زَكَرِيَّا ﴾ [آل عمران: ٣٧]، لأن الاسم بني على المد، فرقًا بينه وبين المقصور.

٨. ومد المبالغة في نحو: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾.

٩. ومد البدل من الهمزة في نحو: ﴿ ءَادَمَ ﴾، و"ءَاخَرِ"، و﴿ ءَامَنَ ﴾. وقدره: ألِف تامة بالإجماع.

١٠. ومدّ الأصل في الأفعال الممدودة، نحو: "جَاءَ" و"شَاءَ". والفرق بينه وبين مدّ البنية: أن تلك الأسماء بُنيت على المد، فرقًا بينها وبين المقصور، وهذه مدات في أصول أفعال أحدثت لمعان". انتهى.

تخفيف الهمز

قال السيوطي: "اعلم أنّ الهمز لما كان أثقل الحروف نطقًا، وأبعدها مخرجًا، تنوّع العرب في تخفيفه بأنواع التخفيف. وكانت قريش وأهل الحجاز أكثرهم له تخفيفًا؛ ولذلك أكثر ما يَرِد تخفيفه من طُرقهم: كابن كثير من رواية ابن فليح، وكنافع من رواية ورش، وكأبي عمرو؛ فإن مادة قراءته عن أهل الحجاز.

وقد أخرج ابن عدي عن ابن عمر قال: "ما همز رسول الله ﷺ، ولا أبو بكر، ولا عمر، ولا الخلفاء؛ وإنما الهمز بدعة ابتدعوها مِن بَعدهم".

قال أبو شامة: "هذا حديث لا يحتج به، وموسى بن عبيدة الربذي ضعيف عند أئمة الحديث".

وأحكام الهمز كثيرة، وتحقيقه أربعة أنواع:

أحدها: النقل لحركته إلى الساكن قبله فيسقط، نحو: ﴿ قَدَ أَفْلَحَ ﴾ [المؤمنون: ١] بفتح الدال؛ وبه قرأ نافع من طريق ورش، وذلك حيث كان الساكن صحيحًا آخرًا والهمزة أوّلًا.

ثانيها: الإبدال بأن تُبدل الهمزة الساكنة حرف مدّ من جنس حركة ما قبلها. فتبدل ألفًا بعد الفتح، نحو: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ ﴾ [طه: ١٣٢]، وواوًا بعد الضم نحو: ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦]، وياء بعد الكسر نحو: "جِيتَ"؛ وبه يقرأ أبو عمرو، وورش عن نافع، وحمزة عند الوقف، على تفصيل في ذلك.

ثالثها: التسهيل بينها وبين حركتها، على تفصيل عند القراء. فمنهم: من يدخل بينهما ألفًا. ومنهم: من لا يدخل. ومنهم: من يحققهما.

رابعها: الإسقاط بلا نقل، وفيه تفصيل أيضًا، مكانه كتب القراءات.

وهناك أبواب تتعلق بأداء اللفظ، لم يتعرض لها السيوطي في (الإتقان)، على سعة كتابه.

وهناك باب صفات الحروف مطلقًا، وإن كان جلّها يتعلق باللغة.

وهناك أحكام الميم الساكنة.

وهناك أحكام الغنة، وأحكام الراء واللام، والتفخيم، والترقيق، وغير ذلك من أبواب علم التجويد؛ وكان الذي ينبغي إدراج ذلك كله في علوم القرآن المتعلقة بالأداء.

ما يتعلق بالألفاظ

عناصر الدرس

معرفة غريبه

وقد أفرده بالتصنيف خلائق لا يحصَوْن، ومن أشهرها: كتاب (المفردات) للراغب الأصفهاني، وهو مطبوع متداول. ومن أهل العلم مَن نظم غريب القرآن على السُّوَر، ومن ذلك: كتاب (التيسير العجيب في تفسير الغريب) لابن المنير الإسكندراني، وهو مطبوع في جزء لطيف.

قال السيوطي في هذا العلْم: "ينبغي الاعتناء به؛ فقد أخرج البيهقي من حديث أبي هريرة مرفوعًا: ((أعربوا القرآن، والتمسوا غرائبه))".

وأخرج مثله عن عمر، وابن عمر، وابن مسعود، موقوفًا.

وأخرج من حديث ابن عمر مرفوعًا: ((من قرأ القرآن فأعربه، كان له بكل حرف عشرون حسنة. ومن قرأه بغير إعراب، كان له بكل حرف عشر حسنات)).

قال: "المراد بإعرابه: معرفة معاني ألفاظه، وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه عند النحاة، وهو: ما يقابل اللحن؛ لأن القراءة مع فقده ليست قراءة، ولا ثواب فيها. وعلى الخائض في ذلك: التثبت والرجوع إلى كتب أهل الفن، وعدم الخوض بالظن. فهذه الصحابة، وهم العرب العرباء، وأصحاب اللغة الفصحى، ومَن نزل القرآن عليهم وبلُغتهم، توقفوا في ألفاظ لم يعرفوا معناها، فلم يقولوا فيها شيئًا".

فذكر قول أبي بكر الصديق عندما سئل عن قوله: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس: ٣١]: "أي سماء تُظلّني، أو أيّ أرض تُقلّني، إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟".

وكذلك عمر بن الخطاب عندما قرأ على المنبر: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ قال: "هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأبّ؟" ثم رجع إلى نفسه، فقال: "إن هذا لهو التكلف يا عمر!".

وما جاء عن ابن عباس أنه قال: "كنت لا أدري ما ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأنعام: ١٤]؟ حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، يقول: أنا ابتدأتها".

ومعرفة هذا الفن للمفسِّر ضرورية.

قال السيوطي: "وأوْلى ما يرجع إليه في ذلك: ما ثبت عن ابن عباس وأصحابه الآخذين عنه؛ فإنه ورد عنهم ما يستوعب تفسير غريب القرآن بالأسانيد الثابتة الصحيحة.

ومن ذلك: ما صح عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ قال: "يصدِّقون".

﴿يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠] قال: "يتمادون".

﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ [عبس: ١٤] قال: "من القذر والأذى".

﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [الأحزاب: ٣٥] قال: "المصدّقين بما أنزل الله".

﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ﴾ [البقرة: ٤٩] قال: "نعمة".

﴿ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٤٦] قال: "الشرك".

وغير ذلك كثير...".

ومما قاله ابن المنير في (تيسيره):

﴿خَٰسِـِٔينَ﴾: مبعدين، طردًا سحقًا لأمثالهم وبعدًا. ﴿أَخْلَدَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]: يعني لزم السفالة ودام في سجية الرذالة".

وأكثر ما يرجع إليه في غريب القرآن: الشعر العربي.

قال أبو بكر الأنباري: "قد جاء عن الصحابة والتابعين كثيرًا: الاحتجاج على غريب القرآن ومُشكله، بالشعر.

وأنكر جماعة لا علْم لهم على النحويين ذلك، وقالوا: إذا فعلتم ذلك جعلتم الشعر أصلًا للقرآن. وقالوا: كيف يجوز أن يُحتجّ بالشِّعر على القرآن، وهو مذموم في القرآن والحديث؟

قال: وليس الأمر كما زعموه، مِن أنّا جعلنا الشِّعر أصلًا للقرآن، بل أردنا تبيين الحرف الغريب من القرآن بالشِّعر، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا

﴿ عَرَبِيًّا ﴾ [الزُّخرُف: ٣]، وقال: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

وقال ابن عباس: "الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها؛ فالتمسنا معرفة ذلك منه".

ثم أخرج من طريق عكرمة عن ابن عباس، قال: "إذا سألتموني عن غريب القرآن، فالتمسوه في الشِّعر؛ فإن الشعر ديوان العرب".

ومن أشهر ما روي عن ابن عباس في استشهاده على معاني الغريب بالشعر: مسائل نافع بن الأزرق له، وقد أخرجها الطستي، وابن الأنباري، والطبراني في (معجمه). وساقها السيوطي بطولها، ولكنها لا تصحّ؛ فأسانيدها واهية، وإن كان قد صح شيء منها يسير، من طُرق أخرى...

ما وقع فيه بغير لغة الحجاز

ورد ذلك في عدّة آثار، ومن ذلك ما أخرجه أبو عبيد عن ابن عباس، في قوله: ﴿ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴾ [النجم: ٦١] قال: "الغناء. وهي يمانية". وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة: "هي بالحمْيرية".

وأخرج أبو عبيد عن الحسن، قال: "كنا لا ندري ما ﴿ ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ [الكهف: ٣١] حتى لقيَنا رجلٌ من أهل اليمن، فأخبرَنا: أنّ "الأريكة" عندهم: الحجلة فيها السرير".

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك، في قوله تعالى: ﴿ لَا وَزَرَ ﴾ [القيامة: ١١]، قال: "لا حِيَل. وهي بلغة أهل اليمن".

وأخرج عن عكرمة، في قوله تعالى: ﴿ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ [الدخان: ٥٤]، قال: "هي لغة يمانية؛ وذلك أن أهل اليمن يقولون: زوّجنا فلانا بفلانة".

وأخرج عن محمد بن علي، في قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ ﴾ [هود: ٤٢] قال: "هي بلغة طيء: ابن امرأته".

وأخرج عن الضحاك في قوله تعالى: ﴿ أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ [يوسف: ٣٦] قال: "عنبًا، بلغة أهل عمان، يُسمّون العنب: خمرًا".

وأخرج عن قتادة، قال: "﴿ بَعْلًا ﴾ [الصافات: ١٢٥]: ربًا بلغة أزد شنوءة".

وأخرج أبو بكر بن الأنباري عن ابن الكلبي، قال: "﴿ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: ٢٢]: صغار اللؤلؤ، بلغة اليمن".

وأخرج في كتاب (الرد على من خالف مصحف عثمان) عن أبي صالح، في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ [الرعد: ٣١] قالوا: "أفلم يعلموا، بلغة هوازن".

وفي مسائل نافع بن الأزرق لابن عباس: "﴿ بُورًا ﴾ [الفرقان: ١٨]: هلكَى، بلغة عمان".

وفيها: "﴿ فَنَقَّبُوا۟ ﴾ [ق: ٣٦]: هربوا، بلغة اليمن".

وفيها: "﴿ لَا يَلِتْكُم ﴾ [الحُجرات: ١٤]: لا ينقصكم، بلغة بني عبس".

وقد ذكر السيوطي - رحمه الله- أكثر من عشرين لغة، جاءت بها بعض الألفاظ في القرآن؛ فمن أراد التوسع فعليه بـ(الإتقان).

ما وقع فيه بغير لغة العرب

أفرد له السيوطي كتابًا سماه: (المهذّب فيما وقع في القرآن من المعرّب).

وقد سبقه بالتأليف فيه جماعة، ومن أشهر ذلك: كتاب (المعرّب) للجواليقي.

وقد اختلف الأئمة في وقوع المعرّب في القرآن؛ فالأكثرون - ومنهم: الإمام الشافعي، وابن جرير، وأبو عبيدة، وغيرهم - على عدم وقوعه فيه، لقوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ [فصّلت: ٤٤]. وقد شدّد الشافعي النكير على القائل بذلك.

وقال ابن جرير: ما ورد عن ابن عباس وغيره، من تفسير ألفاظ من القرآن إنها بالفارسية، أو الحبشية، أو النبطية، أو نحو ذلك، إنما اتفق فيها توارد اللغات، فتكلّمت بها العرب، والفُرْس، والحبشة، بلفظ واحد.

وقيل غير ذلك في توجيه وقوع هذه الألفاظ...

وذهب آخرون - واختاره السيوطي - إلى وقوعه فيه، وأجابوا عن قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾: بأن الكلمات اليسيرة بغير العربية لا تخرجه عن كونه عربيًّا، والقصيدة الفارسية لا تخرج عنها بلفظة فيها عربية، وعن قوله تعالى: ﴿ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصّلت: ٤٤]: بأن المعنى من السياق: أكلام أعجمي، ومخاطَب عربي؟!

واستدلوا باستدلالات، أقواها: ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبي ميسرة التابعي الجليل، قال: "في القرآن من كلِّ لسان".

وروي مثله عن سعيد بن جبير، ووهب بن منبه.

قال السيوطي: "فهذه إشارة إلى: أنّ حكمة وقوع هذه الألفاظ في القرآن: أنه حوى علومَ الأوّلين والآخِرين، ونبأ كل شيء؛ فلا بد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن؛ ليتم إحاطته بكل شيء؛ فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفّها، وأكثرها استعمالًا للعرب".

واستدلوا بغير ذلك من أدلة.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام، بعد أن حكى القوليْن: "والصواب عندي: مذهبٌ فيه تصديق القوليْن جميعًا، وذلك: أن هذه الأحرف أصولها أعجمية، لكنها وقعت للعرب فعرّبتها بألسنتها، وحوّلتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها، فصارت عربية. ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمَن قال: إنها عربية فهو صادق، ومن قال: أعجمية فصادق". ومال إلى هذا القول الجواليقي، وابن الجوزي، وآخرون...

ومن أمثلة ذلك في القرآن:

"أَبَارِيقَ"، قال الجواليقي: "الإبريق": فارسي معرّب، ومعناه: طريق الماء، أو صبّ الماء على هينة. "أَبّ"، قال بعضهم: هو: الحشيش، بلغة أهل الغرب.

﴿ ٱبْلَعِي مَآءَكِ ﴾ [هود: ٤٤]، عن وهب بن منبه قال: "بالحبشية: ازدرديه".

﴿ أَخْلَدَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، قال الواسطي: "رَكَن، بالعبرية".

﴿ ٱلْأَرَآئِكِ ﴾، حكى ابن الجوزي أنها: السُّرر، بالحبشية.

والأمثلة على ذلك كثيرة جدًا...

معرفة الوجوه والنظائر

صنّف فيها قديمًا مقاتل بن سليمان، ومن المتأخِّرين: ابن الجوزي وغيره...

ومن أشهر ما كتب فيها: كتاب (قاموس القرآن)، أو (إصلاح الوجوه والنظائر) للدامغاني، وهو مطبوع متداول.

والوجوه: اللفظ المشترك الذي يُستعمل في عدّة معان، كلفظ: "الأمّة".

وقد أفرده السيوطي بكتاب سماه: (معترك الأقران في مشترك القرآن).

وأما النظائر فهي: الألفاظ المتواطئة، يعني: المتوافقة في المعنى.

وقد جعل بعضهم ذلك: من أنواع معجزات القرآن؛ حيث كانت الكلمة الواحدة تنصرف إلى عشرين وجهًا، وأكثر، وأقل، ولا يوجد ذلك في كلام البشر.

وذكر مقاتل في صدر كتابه حديثًا مرفوعًا: ((لا يكون الرجل فقيهًا كلّ الفقه حتى يرى للقرآن وجوهًا كثيرة)).

قال السيوطي: هذا أخرجه ابن سعد وغيره، عن أبي الدرداء موقوفًا، ولفظه: ((لا يَفقه الرجل كلَّ الفقه)). وقد فسّره بعضهم بأن المراد: أن يرى اللفظ الواحد يحتمل معاني متعدّدة، فيحمله عليها إذا كانت غير متضادة، ولا يقتصر به على معنى واحد.

وقيل: هو أن يرى له وجوهًا، فيهاب الإقدام عليه.

وقيل: غير ذلك...

وأخرج ابن سعد من طريق عكرمة عن ابن عباس: أنّ علي بن أبي طالب أرسله إلى الخوارج فقال: "اذهب إليهم فخاصمْهم، ولا تحاجّهم بالقرآن فإنه ذو وجوه، ولكن خاصمْهم بالسُّنة".

وأخرج من وجه آخر: "أن ابن عباس قال له: يا أمير المؤمنين، فأنا أعلم بكتاب الله منهم، في بيوتنا نزَل. قال: صدقتَ، ولكن القرآن حمّال ذو وجوه؛ تقول ويقولون. ولكن خاصمْهم بالسُّنن؛ فإنهم لن يجدوا عنها محيصًا. فخرج إليهم فخاصمهم بالسُّنن، فلم تَبق بأيديهم حجة".

وأمثلة هذا النوع كثيرة. ونذكر لذلك مثالًا واحدًا:

﴿ ٱلْهُدَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٩٣] يأتي على سبعة عشر وجهًا:

بمعنى الثبات: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦].

والبيان: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٥].

والدِّين: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ٨٨].

والإيمان: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦].

والدعاء: ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٧]، ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وبمعنى الرسل والكتب: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم ﴾ [البقرة: ٣٨].

والمعرفة: ﴿ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل: ١٦].

وبمعنى: النبي ﷺ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ ﴾ [البقرة: ١٥٩].

وبمعنى القرآن: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٣].

والتوراة: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [غافر: ٥٣].

والاسترجاع: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٧].

والحُجة: ﴿ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] بعد قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] أي: لا يهديهم حُجة.

والتوحيد: ﴿ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ ﴾ [القصص: ٥٧].

والسُّنة: ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [الزُّخرُف: ٢٢].

والإصلاح: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴾ [يوسف: ٥٢].

والإلهام: ﴿ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠] أي: ألْهَمهم المعاش.

والتوبة: ﴿ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

والإرشاد: ﴿ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [القصص: ٢٢].

وهناك قواعد جامعة في مثل ذلك، ومن ذلك قولهم:

كلّ ما في القرآن مِن ذكْر "الأسف": فمعناه: الحزن، إلاّ ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ﴾ [الزُّخرُف: ٥٥] فمعناه: أغضبونا.

وكلّ ما فيه من ذكْر ﴿ ٱلۡبُرُوجِ ﴾ [البروج: ١] فهي: الكواكب، إلا ﴿ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ ﴾ [النساء: ٧٨] فهي: القصور الطوال الحصينة.

وكلّ ما فيه من ذكْر ﴿ ٱلۡبَرِّ ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿ وَٱلۡبَحۡرِ ﴾، فالمراد بـ"الْبَحْر": الماء، وبـ"الْبَرِّ": التراب اليابس، إلا ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ ﴾ [الروم: ٤١] فالمراد به: البرية والعمران.

وكل ما فيه من "بخس" فهو: النقص، إلا ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: ٢٠] أي: حرام.

وكلّ ما فيه من "البعل" فهو: الزوج، إلا ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ [الصافات: ١٢٥] فهو: الصنم.

وهكذا على نزاع بطبيعة الحال في بعض ذلك...

معرفة الأدوات التي يحتاج إليها المفسر

والمراد بالأدوات هنا: الحروف، وما شاكلها من الأسماء، والأفعال، والظروف.

ومعرفة ذلك من المهمات المطلوبة لاختلاف مواقعها؛ ولهذا يختلف الكلام والاستنباط بحسبها، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

فاستعملت ﴿عَلَىٰ﴾ في جانب الحق، و﴿فِى﴾ في جانب الضلال، لأن صاحب الحق كأنه مستعلٍ يصرف نظره كيف شاء، وصاحب الباطل كأنه منغمس في ظلام، منخفض لا يدري أين يتوجه؟

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [التوبة: ٦٠]، عدل عن "اللام" إلى "في" في الأربعة مصارف الأخيرة إيذانًا إلى أنهم أكثر استحقاقًا للمتصدق عليهم بمن سبق ذكره باللام، لأن "في" للوعاء، فنبّه باستعمالها على أنهم أحقّاء بأن يجعلوا مظنة لوضع الصدقات فيهم، كما يوضع الشيء في وعائه مستقرًا فيه.

وعن ابن عباس قال: "الحمد لله الذي قال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥]، ولم يقل: "في صلاتهم".

والأمثلة كثيرة:

ومن ذلك كلمة ﴿أَحَدٌ﴾:

قال أبو حاتم في كتاب (الزينة): هو اسم أكمل من الواحد، ألا ترى أنك إذا قلت: "فلان لا يقوم له واحد"، جاز في المعنى أن يقوم اثنان فأكثر، بخلاف قولك: لا يقوم له أحد؟

وفي "الأحد" خصوصية ليست في "الواحد"، تقول: "ليس في الدار واحد"، فيجوز أن يكون من الدواب، والطير، والوحش، والإنس، فيعمّ الناس وغيرهم، بخلاف: "ليس في الدار أحد"، فإنه مخصوص بالآدميين دون غيرهم.

قال: ويأتي "الأحد" في كلام العرب بمعنى: الأول، وبمعنى: الواحد، فيستعمل في الإثبات، وفي النفي، نحو: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الصمد: ١] أي: واحد، وأول ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ﴾ [الكهف: ١٩]. وبخلافهما فلا يستعمل إلا في النفي، تقول: "ما جاءني من أحد"، ومنه: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٥] و﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٧]، ﴿فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧]، ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ [التوبة: ٨٤]. و"واحد" يستعمل فيهما مطلقاً.

و﴿أَحَدٌ﴾ يستوي فيه المذكر والمؤنث، قال تعالى: ﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، بخلاف الواحد، فلا يقال: كواحد من النساء، بل كواحدة.

و﴿ أَحَدٌ ﴾ يصلح للإفراد والجمع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، بخلاف ﴿ ٱلْوَٰحِدُ ﴾.

و"الأحد" له جمع من لفظه، وهو: الأحدون والآحاد، وليس للواحد جمع من لفظه، فلا يقال: واحدون، بل اثنان وثلاثة.

و"الأحد" ممتنع الدخول في الضرب، والعدد، والقسمة، وفي شيء من الحساب، بخلاف الواحد. انتهى ملخصًا.

ومن ذلك "أل": فهي على ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تكون اسمًا موصولًا بمعنى: "الذي" وفروعه؛ وهي الداخلة على أسماء الفاعلين والمفعولين، نحو: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٥] إلى آخر الآية، ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ﴾ [التوبة: ١١٢] الآية.

الثاني: أن تكون حرف تعريف، وهي نوعان: عهدية وجنسية، وكل منهما على ثلاثة أقسام:

فالعهدية: إما أن يكون مصحوبها معهودًا ذكريًّا، نحو: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ﴾ [المزَّمل: ١٥، ١٦].

أو معهودًا ذهنيًّا، نحو: ﴿ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴾ [التوبة: ٤٠].

أو معهودًا حضوريًّا، نحو: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: ٣].

والجنسية: إما لاستغراق الأفراد، وهي التي تخلفها كل حقيقة، نحو: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨].

وإما لاستغراق خصائص الأفراد، نحو: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ [البقرة: ٢] أي: الكتاب الكامل في الهداية، الجامع لصفات جميع الكتب المنزلة وخصائصها.

وإما لتعريف الماهية، والحقيقة، والجنس، نحو: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

الثالث: أن تكون زائدة، وهي نوعان:

لازمة، كالتي في الموصولات، وكالتي في الأعلام المقارنة لنقلها، كـ ﴿ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾

[النجم: ١٩] أو لغلبتها، كالبيت للكعبة، والمدينة لطيبة، والنجم للثريا، وهذه في الأصل للعهد.

وغير لازمة كالواقعة في الحال، وخرج عليه قراءة بعضهم: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] بفتح الياء أي ذليلاً، لأن الحال واجبة التنكير.

قال السيوطي: "إلا أنّ ذلك غير فصيح، فالأحسن تخريجها على حذف مضاف"، أي: خروج الأذل، كما قدّره الزمخشري.

وقد ذكر السيوطي في (إتقانه) أكثر من مائة أداة، وما تأتي له في القرآن، ثم قال: "ها قد أتيت على شرح معاني الأدوات الواقعة في القرآن، على وجه موجز مفيد محصل للمقصود منه، ولم أبسطه لأن محل البسط والإطناب إنما هو تصانيفنا في فن العربية وكُتبنا النحوية".

معرفة إعرابه

أفرده بالتصنيف خلائق، منهم: مكي بن أبي طالب.

وأشهر ما ألّف فيه: كتاب أبي البقاء العُكبَري. ومن التفاسير التي اهتمت بهذا الجانب: تفسير (البحر المحيط) لأبي حيان الأندلسي.

ومن فوائد هذا النوع: معرفة المعنى، لأن الإعراب يميز المعاني، ويوقف على أغراض المتكلمين.

أخرج أبو عبيد في (فضائله) عن عمر بن الخطاب قال: "تعلّموا اللحن والفرائض والسُّنن، كما تعلّمون القرآن".

وأخرج عن يحيى بن عتيق، قال: قلت للحسن: "يا أبا سعيد، الرجل يتعلّم العربية يلتمس بها حسن المنطق، ويقيم بها قراءته"، فقال الحسن: "يابْن أخي تعلّمها، فإن الرجل يقرأ الآية فيعيا بوجهها فيهلك فيها".

ويجب على مَن نظر في إعراب القرآن مراعاة أمور:

أحدها: أن يفهم معنى ما يريد أن يُعربه، مفردًا أو مركّبًا، قبل الإعراب. فمثلًا: قوله: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧]، إن كان المراد بـ﴿ٱلْمَثَانِي﴾: القرآن، فـ﴿مِّنَ﴾ للتبعيض، أو (الفاتحة) فلبيان الجنس.

الثاني: أن يراعي ما تقتضيه الصناعة؛ فربما راعى المعرب وجهًا صحيحًا ولا ينظر في صحته في الصناعة، فيخطئ. ومن ذلك: قول بعضهم: ﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ [النجم: ٥١]، إن ﴿وَثَمُودَاْ﴾: مفعول مقدّم؛ وهذا ممتنع، لأن لما النافية الصدر، فلا يعمل ما بعدها فيما قبلها، بل هو معطوف على {عادًا}، أو على تقدير: وأهلك ثمود.

الثالث: أن يكون مليًّا بالعربية لئلا يخرج على ما لم يثبت، كقول أبي عبيدة في: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ [الأنفال: ٥] إن "الكاف": قسَم، ويبطله: أن "الكاف" لم تجئ بمعنى واو القسَم.

الرابع: أن يتجنب الأمور البعيدة، والأوجه الضعيفة، واللغات الشاذة، ويخرج على القريب والقوي والفصيح.

الخامس: أن يستوفي جميع ما يحتمله اللفظ من الأوجه الظاهرة.

السادس: أن يراعي الشروط المختلفة بحسب الأبواب.

إلى غير ذلك من الشروط الكثيرة التي ذكرها السيوطي - رحمه الله- .

تابع: ما يتعلق بالألفاظ

عناصر الدرس

قواعد مهمة يحتاج المفسر إلى معرفتها

على المفسِّر أن يحيط بقواعد مهمة تتعلق بأبواب معيَّنة فمن ذلك مثلًا:

١. قواعد تتعلق بالضمائر ومرجعها، فمثلًا: الضمير لا بد له من مرجع يعود إليه، ويكون ملفوظًا به، سابقًا، مطابقًا به، نحو: ﴿ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨]، أو متضمّنًا له، نحو: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ ﴾ [هود: ٤٢]، فإنه عائد على العدل المتضمن له ﴿ ٱعۡدِلُواْ ﴾، أو دالًا عليه بالالتزام، نحو: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ ﴾ [يوسف: ٢] أي: القرآن لأن الإنزال متعلّق به.

٢. قاعدة في التذكير والتأنيث، فمثلًا التأنيث ضربان: حقيقي وغيره:

فالحقيقي لا تحذف تاء التأنيث من فعله غالبًا، إلا إن وقع فصل، وكلما كثر الفصل حسن الحذف.

والإثبات مع الحقيقي أوْلى ما لم يكن جمعًا.

أما غير الحقيقي، فالحذف فيه مع الفصل أحسن، نحو: ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. فإن كثر الفصل ازداد حسنًا، نحو: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ ﴾ [هود: ٦٧]. والإثبات أيضًا حسن، نحو: ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ ﴾ [هود: ٩٤]؛ فجمع بينهما في سورة (هود).

٣. قاعدة في التعريف والتنكير، فإن لكل منهما مقامًا لا يليق بالآخر.

أما التنكير فله أسباب:

أحدها: إرادة الوحدة، نحو: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ ﴾ [القصص: ٢٠]، أي: رجل واحد.

الثاني: إرادة النوع، نحو: ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ﴾ [ص: ٤٩]، أي: نوع من الذِّكر.

الثالث: التعظيم، بمعنى: أنه أعظم من أن يعيّن ويعرّف، نحو: ﴿ فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، أي: بحرب، أيّ حرب!

الرابع: التكثير، نحو: ﴿ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ [الأعراف: ١١٣]، أي: وافرًا جزيلًا.

ويحتمل التعظيم والتكثير معًا، نحو: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ ﴾ [الحج: ٤٢]، أي: رسل عظام، ذوو عدد كثير.

الخامس: التحقير، بمعنى: انحطاط شأنه إلى حد لا يمكن أن يعرّف، نحو: ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ﴾ [الجاثية: ٣٢] أي: ظنًا حقيرًا لا يُعبأ به، وإلا لاتّبعوه، لأن ذلك ديدنهم.

إلى غير ذلك من القواعد المهمة.

حقيقته ومجازه

لا خلاف في وقوع الحقائق في القرآن، وهي كلّ لفظ بقي على موضوعه، ولا تقديم فيه ولا تأخير؛ وهذا أكثر الكلام.

وأما المجاز، فالجمهور أيضًا على وقوعه فيه، وأنكره جماعة.

وشُبهتهم: أنّ المجاز أخو الكذب، والقرآن منزّه عنه، وأن المتكلّم لا يعدل إليه إلا إذا ضاقت به الحقيقة فيستعير؛ وذلك محال على الله تعالى.

وقد تبنّى هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية، ونصره تلميذه ابن القيم. وصنّف فيه الشيخ الأمين الشنقيطي كتابه: (نفي جواز المجاز في المنزل للإعجاز)، وهو مطبوع متداول.

وإنما دفعَهم لذلك تذرّع أهل الفِرق المنحرفة عن عقيدة أهل السُّنة والجماعة بالمجاز، في نفيهم ما أثبته الله لنفسه من صفات، كما فعل الزمخشري وغيره؛ وليس ذلك بلازم، لأن صفات الله لا نحيط بها، ولا نعلم كيفيّتها؛ فما الداعي للتذرع بالمجاز؟ وأمّا غير ذلك مما لا غيب فيه، فلا مانع من إطلاق القول بالمجاز فيه. وقد رضي ذلك مَن نفى المجاز إلا أنه سمّاه أسلوبًا من أساليب العرب، ولا مشاحّة في الاصطلاح.

قال السيوطي: "لو سقط المجاز من القرآن، سقط منه شطر الحسن؛ فقد اتفق البلغاء على: أن المجاز أبلغ من الحقيقة؛ ولو وجب خلوّ القرآن من المجاز، وجب خلوّه من الحذف، والتوكيد، وتثنية القصص، وغيرها...".

قال: "قد أفرده بالتصنيف الإمام عز الدين بن عبد السلام، ولخّصته مع زيادات كثيرة في كتاب سميته: (مجاز الفرسان إلى مجاز القرآن)، وهو قسمان:

القسم الأول:

المجاز في التركيب، ويسمّى مجاز الإسناد، والمجاز العقلي. وعلاقته: الملابسة؛ وذلك: أن يُسند الفعل أو شبهه إلى ما هو له أصالة، لملابسته له، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]: نسبت الزيادة -وهي فعل الله- إلى الآيات لكونها سببًا لها. وكذا قوله: ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]: نسب الإحلال إليهم لتسببهم في كفرهم بأمرهم إيّاهم به.

وهذا القسم أربعة أنواع:

أحدها: ما طرفاه حقيقيّان.

وثانيها: ما طرفاه مجازيّان.

وثالثها ورابعها: ما أحد طرفيْه حقيقيّ دون الآخر.

القسم الثاني:

المجاز في المفرد، ويسمّى: اللغوي، وهو: استعمال اللفظ في غير ما وُضع له أوّلًا، وأنواعه كثيرة:

أحدها: الحذف.

الثاني: الزيادة.

الثالث: إطلاق اسم الكل على الجزء.

الرابع: عكسه. أُلحق بهذين النوعين شيئان:

أحدهما: وصف البعض بصفة الكل، كقوله: ﴿ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ [العلق: ١٦]، فالخطأ صفة الكلّ، وصف به الناصية. وعكسه: كقوله: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ [الحِجر: ٥٢]، والوجل: صفة القلب.

والثاني: إطلاق لفظ بعض مرادًا به الكل.

الخامس: إطلاق اسم الخاص على العام.

والسادس: عكسه.

إلى آخر الأقسام الكثيرة التي ذكرها السيوطي - رحمه الله- مع أمثلتها من القرآن الكريم.

تشبيهه واستعارته

التشبيه:

التشبيه: نوع من أشرف أنواع البلاغة وأعلاها.

قال المبرّد في (الكامل): "لو قال قائل: هو أكثر كلام العرب، لم يبعد".

وقد أفرد تشبيهات القرآن بالتصنيف: أبو القاسم بن البندار البغدادي، في كتاب سماه: (الجمان).

وعرّفه جماعة بأنه: الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى. وقيل غير ذلك...

وأدواته: حروف، وأسماء، وأفعال.

فالحروف: "الكاف" نحو: ﴿ كَرَمَادٍ ﴾ [إبراهيم: ١٨]، و"كأنّ" نحو: ﴿ كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الصافات: ٦٥].

والأسماء: "مثل"، و"شبه"، ونحوهما مما يُشتق من المماثلة والمشابهة.

ينقسم التشبيه إلى أقسام باعتبارات عدّة، منها:

١. باعتبار طرفيْه:

ينقسم إلى أربعة أقسام: لأنهما إمّا حسّيّان أو عقليّان، أو المشبَّه به حسّي والمشبّه عقلي، أو عكسه.

مثال الأول: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يس: ٣٩].

ومثال الثاني: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤].

كذا مثّل به في (البرهان)، وكأنّه ظن أنّ التشبيه واقع في القسوة، وهو غير ظاهر؛ بل هو واقع بين القلوب والحجارة، فهو من الأول.

ومثال الثالث: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ ﴾ [إبراهيم: ١٨].

ومثال الرابع: لم يقع في القرآن، بل منع أصلًا، لأن العقل مستفاد من الحس؛ فالمحسوس أصل للمعقول، وتشبيهه به يستلزم جعل الأصل فرعًا والفرع أصلًا، وهو غير جائز.

٢. ينقسم باعتبار وجهه إلى: مفرد ومركّب.

والمركّب أن ينتزع وجه الشبه من أمور مجموع بعضها إلى بعض، كقوله: ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ [الجمعة: ٥].

فالتشبيه مركّب من أحوال الحمار، وهو: حرمان الانتفاع بأبلغ نافع، مع تحمّل التعب في استصحابه.

وينقسم باعتبارات أخرى إلى أقسام لا نطيل بذكرها هنا.

الاستعارة:

وأما الاستعارة فهي: تزاوج بين المجاز والتشبيه، نتجت عنه.

قال بعضهم: حقيقة الاستعارة: أن تُستعار الكلمة من شيء معروف بها، إلى شيء لم يُعرف بها. وحكمة ذلك:

إظهار الخفيّ، وإيضاح الظاهر الذي ليس بجليّ، أو حصول المبالغة أو المجموع.

مثال إظهار الخفيّ: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الزُّخرُف: ٤]، فإن حقيقته: "وإنه في أصل الكتاب"، فاستعير لفظ "الأم" للأصل، لأن الأولاد تنشأ من الأم كما تنشأ الفروع من الأصول. وحكمة ذلك: تمثيل ما ليس بمرئي حتى يصير مرئيًّا، فينتقل السامع من حد السماع إلى حد العيان؛ وذلك أبلغ في البيان.

ومثال إيضاح ما ليس بجليٍّ ليصير جليًّا: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ ﴾ [الإسراء: ٢٤]. فإن المراد: أمر الولد بالذل لوالديه رحمة، فاستعير للذل أولًا جانب، ثم للجانب جناح. وتقدير الاستعارة القريبة: "واخفض لهما جانب الذل"، أي: اخفض جانبك ذلًا. وحكمة الاستعارة في هذا: جعل ما ليس بمرئيّ مرئيًّا، لأجل حسن البيان.

ومثال المبالغة: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ [القمر: ١٢]، وحقيقته: "وفجّرنا عيون الأرض"، ولو عبر بذلك لم يكن فيه من المبالغة ما في الأول المشعر بأن الأرض كلها صارت عيونًا.

وأركان الاستعارة ثلاثة: مستعار وهو: لفظ المشبَّه به، ومستعار منه وهو: معنى اللفظ المشبّه، ومستعار له وهو: المعنى الجامع.

وأقسامها كثيرة باعتبارات عدّة.

كناياتـــــــه وتعريـــــــضه

هما من أنواع البلاغة، وأساليب الفصاحة. وقد تقدّم أنّ الكناية أبلغ من التصريح. وعرّفها أهل البيان بأنها: لفظ أريد به لازم معناه.

الكناية:

وللكناية أسباب:

أحدها: التنبيه على عظم القدرة، نحو: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: ١]، كناية عن آدم.

ثانيها: ترك اللفظ إلى ما هو أجمل، نحو: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [ص: ٢٣] فكنى بـ"النعجة" عن المرأة، كعادة العرب في ذلك؛ لأن ترك التصريح بذكر النساء أجمل منه؛ ولهذا لم تذكر في القرآن امرأة باسمها إلاّ مريم.

قال السهيلي: "وإنما ذكرت مريم باسمها على خلاف عادة الفصحاء لنكتة، وهو: أن الملوك والأشراف لا يذكرون حرائرهم في ملأ، ولا يبتذلون أسماءهن، بل يكنون عن الزوجة بالفرش، والعيال، ونحو ذلك، فإذا ذكروا الإماء لم يكنوا عنهن، ولم يصونوا أسماءهن عن الذكر. فلما قالت النصارى في مريم ما قالوا، صرّح الله باسمها، ولم يكن تأكيدًا للعبودية إلا التي هي صفة لها، وتأكيدًا لأن عيسى لا أب له، وإلا لُنسب إليه".

ثالثها: أن يكون التصريح مما يُستقبح ذكْره، ككناية الله عن الجماع بالملامسة، والمباشرة، والإفضاء، والرفث، والدخول، والسّرّ، في قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة: ٢٣٥]، والغشيان، في قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

رابعها: قصد البلاغة، والمبالغة، نحو: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾ [الزُّخرُف: ١٨]، كنى عن النساء بأنهن ينشأن في الترفه والتزين الشاغل عن النظر في الأمور ودقيق المعاني؛ ولو أتى بلفظ النساء لم يشعر بذلك، والمراد: نفي ذلك عن الملائكة.

إلى غير ذلك من المقاصد...

التعريض:

والفرق بين الكناية والتعريض: أن الكناية: ذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له، والتعريض: أن تذكر شيئًا تدل به على شيء لم تذكره. وقيل غير ذلك...

ومن أمثلة التعريض: قوله: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]: نسب الفعل إلى كبير الأصنام المتخذة آلهة، كأنه غضب أن تُعبد الصغار معه، تلويحًا لعابدها بأنها لا تصلح أن تكون آلهة لما يعلمون، إذا نظروا بعقولهم مِن عجْز كبيرها عن ذلك الفعل، والإله لا يكون عاجزًا فهو حقيقة أبدًا.

وللتعريض مقاصد عدة، منها:

التنويه بالموصوف، ومنه قوله: ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، أي: محمدًا ﷺ إعلاءً لقدْره، أي: أنه العلَم الذي لا يشْتبه.

وإما للتلطف به، نحو: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾ [يس: ٢٢]، أي: ومالكم لا تعبدون، بدليل قوله: ﴿ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ .

وإما لاستدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم، ومنه: ﴿ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزُّمَر: ٦٥]، خوطب النبي ﷺ وأُريد غيره، لاستحالة الشرك عليه شرعًا.

وإما للذم، نحو: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [الرعد: ١٩]، فإنه تعريض بذم الكفار، وأنهم في حكم البهائم الذين لا يتذكرون.

وإما للإهانة والتوبيخ، نحو: ﴿ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴾ [التكوير: ٨، ٩]، فإن سؤالها لإهانة قاتلها وتوبيخه.

إلى هنا نكون قد انتهينا من استعراض الأمر الرابع في تقسيمات البلقيني.

المعاني المتعلقة بالألفاظ (١)

عناصر الدرس

الفصل والوصل

هكذا ذكره البلقيني تحت هذا القسم من المعاني المتعلقة بالقرآن، ولم يُفرده السيوطي بعنوان مستقل، وهو غريب منه. وأما الزركشي فأفرده بمبحث مستقل، إلا أنه ليس بالمعنى المراد هنا، لأن الفصل والوصل يُطلق ويراد به ما يتعلق برسم القرآن أيضًا من كلمات كُتبتْ موصولة في بعض المواضع، وفي أخرى كُتبت مفصولة.

وسوف نتحدث عنه عند كلامنا على رسم القرآن، إن شاء الله تعالى.

وأما المراد هنا: فهو ما يصنع في الجمل: من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها، والمجيء بها منثورة، تستأنف واحدة منها بعد أخرى؛ وهو سر من أسرار البلاغة، بل إن بعضهم جعله حدًّا للبلاغة. فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها، فقال: "معرفة الفصل من الوصل"، وما ذاك إلا لغموضه ودقّة مسلكه.

ومثال ذلك: إذا كان المخبَر عنه في الجملتين واحدًا، كقولنا: "هو يقول ويفعل، ويضر وينفع، ويسيء ويُحسن، ويأمر وينهى، ويحلّ ويعقد، ويأخذ ويعطي، ويبيع ويشتري، ويأكل ويشرب"، وأشباه ذلك: ازداد معنى الجمع في الواو قوة وظهورًا، وكان الأمر حينئذ صريحًا؛ وذلك أنك إذا قلت: "هو يضر وينفع"، كنتَ قد أفدت بالواو أنك أوجبت له الفعليْن جميعًا، وجعلتَه يفعلهما معًا. ولو قلتَ: "يضرّ ينفع"، من غير واو، لم يجب ذلك؛ بل قد يجوز أن يكون قولك: "ينفع"، رجوعًا عن قولك: "يضر"، وإبطالًا له.

وقد بيّن الجرجاني الأصولَ والقوانين المتعلقة بشأن فصل الجمل ووصلها، وذكر من هذا الفن مسائل دقيقة في عطف الجُمل. ومن ذلك: أنه قد يؤتى بالجملة فلا تُعطف

على ما يليها، ولكن تعطف على جملة بينها وبين هذه التي تُعطف جملة أو جملتان، مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [القصص: ٤٤، ٤٥]. لو جريْت على الظاهر، فجعلت كلّ جملة معطوفة على ما يليها، منع منه المعنى؛ وذلك أنه يلزم منه أن يكون قوله: ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ معطوفًا على قوله: ﴿ فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ﴾، وذلك يقتضي دخوله في معنى "لكن"، ويصير كأنه قيل: "ولكنك ما كنت ثاويًا"، وذلك ما لا يخفى فساده. وإذا كان ذلك، بان منه أنه ينبغي أن يكون عطف مجموع ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ إلى ﴿ مُرْسِلِينَ ﴾ على مجموع قوله: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾ إلى قوله: ﴿ ٱلْعُمُرُ ﴾.

ومما جاء في كتاب الله على طريقة العرب في الوصل: قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣]، حيث قرأها ابن عامر مفصولة: ﴿ مَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ وهي كذلك في مصحف أهل الشام: بغير واو.

وقد ذكر المحاسبي أمثلة لِما لا يجوز فصله، ومنها قوله: ﴿ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقوله: ﴿ ٱلذَّكَرَ ﴾ [الحِجر: ٦]، فلا يجوز "السماء الأرض"، ولا "الذكر الأنثى"، فيكون معناهما واحدًا، ولِما لا يجوز وصله، كقوله: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [الفتح: ٢٩] فلا يجوز "محمد ورسول الله"، فيكونا اثنيْن. ثم قال: "ولا يجوز الفصل فيما لا يتم إلا بالوصل، ولا يجوز الوصل فيما لا يتم معناه إلا بالفصل". فذكر أمثلة للوقف في مواضع مرتبطة بما بعدها، وهو مبحث متعلق بالوقف والابتداء، وقد سبق مرورنا به.

الحصر والاختصاص

الحصر، ويقال له: القصر وهو: تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص، ويقال: إثبات الحكم للمذكور، ونفيه عمَّا عداه.

وينقسم إلى: قصر الموصوف على الصفة، وقصر الصفة على الموصوف؛ وكل منهما إما حقيقي وإما مجازي.

مثال قصر الموصوف على الصفة حقيقيًّا: "ما زيدٌ إلا كاتب" أي: لا صفة له غيرها. وهو عزيز لا يكاد يوجد، لتعذّر الإحاطة بصفات الشيء، حتى يمكن إثبات شيء منها ونفي ما عداها بالكلية، ويبعد أن تكون للذات صفة واحدة ليس لها غيرها؛ ولذا لم يقع في التنزيل.

ومثاله مَجازيًّا: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، أي: أنه مقصور على الرسالة، لا يتعداها إلى التبري من الموت الذي استعظموه، الذي هو من شأن الإله.

ومثال قصر الصفة على الموصوف حقيقيًّا: لا إله إلا الله.

ومثاله مجازيًّا: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ [الأنعام: ١٤٥] الآية، كما قال الشافعي: "إن الكفار لما كانوا يُحلّون الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أُهل لغير الله به، وكانوا يحرّمون كثيرًا من المباحات، وكانت سجيّتهم تخالف وضع الشرع، ونزلت الآية مسبوقة بذكر شبههم في البَحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحامي، وكان الغرض إبانة كذبهم، فكأنه قال: لا حرام إلا ما أحللتموه؛ والغرض: الرد عليهم والمضادة، لا الحصر الحقيقي".

وينقسم الحصر باعتبارات إلى أقسام أخرى...

وطرق الحصر كثيرة:

فمنها: النفي والاستثناء، نحو: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ [المائدة: ١١٧].

ومنها: "إنما"، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأحقاف: ٢٣]، ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ ﴾ [هود: ٣٣]، ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾ .

ومنها: تقديم المعمول نحو: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ، ﴿ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

ومنها: ضمير الفصل نحو: ﴿ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ﴾، أي: لا غيره، ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

ومنها: تقديم المسند إليه مثل قوله: ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ ، أي: لا يعلمهم إلا نحن؛ ومنه: ﴿ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ .

وغير ذلك كثير، ونازع في بعض ذلك جماعة من أهل العلم.

الإيجاز والإطناب

وهما من أعظم أنواع البلاغة، حتى قال بعضهم: البلاغة هي: الإيجاز والإطناب.

قال الزمخشري: "كما أنه يجب على البليغ في مظان الإجمال أن يجمل ويوجز، فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل أن يفصّل ويشبع".

واختلف هل بين الإيجاز والإطناب واسطة، وهي: المساواة، أم لا؟

قال بعضهم: المساواة غير محمودة ولا مذمومة، وهي المتعارف من كلام أوساط الناس الذين ليسوا في رتبة البلاغة.

والإيجاز: أداء المقصود بأقلّ من عبارة المتعارف.

والإطناب: أداؤه بأكثر منها، لكون المقام خليقًا بالبسط.

والمساواة لا تكاد توجد في القرآن، وما مثّل به بعضهم لها لا يسلّم له.

والإيجاز والاختصار بمعنى واحد.

والإطناب قيل: بمعنى الإسهاب، وقيل: الإسهاب: التطويل لفائدة أو لا لفائدة.

والإيجاز قسمان: إيجاز قصر، وإيجاز حذف.

إيجاز القصر:

قال بعضهم: هو تكثير المعنى بتقليل اللفظ.

وسبب حُسنه: أنه يدل على التمكّن في الفصاحة، ولهذا قال ﷺ: ((أوتيتُ جوامع الكلِم)).

والأمثلة على ذلك كثيرة.

ومن بديع الإيجاز:

قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ إلى آخرها؛ فإنه نهاية التنزيه. وقد تضمنت الرد على نحو أربعين فرقة، كما أفرد ذلك بالتصنيف بعض أهل العلم.

وقوله: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ﴾ [هود: ٤٤] الآية، أمَر فيها، ونهَى، وأخبر، ونادى، ونعت، وسمّى، وأهلك، وأبقى، وأسعد، وأشقى، وقص من الأنباء ما لو شرح ما اندرج في هذه الجملة من بديع اللفظ، والبلاغة، والإيجاز، والبيان، لجفّت الأقلام. وقد أفردت بلاغة هذه الآية بالتأليف.

وفي (العجائب) للكرماني: "أجمع المعاندون على أن طوق البشر قاصر عن الإتيان بمثل هذه الآية، بعد أن فتّشوا جميع كلام العرب والعجم، فلم يجدوا

مثلها في فخامة ألفاظها، وحسن نظمها، وجودة معانيها، في تصوير الحال مع الإيجاز من غير إخلال".

إيجاز الحذف:

ومن أسبابه:

مجرد الاختصار والاحتراز عن العبث لظهوره.

ومنها: التنبيه على أن الزمان يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف، وأن الاشتغال بذكره يفضي إلى تفويت المهم؛ وهذه هي فائدة باب التحذير والإغراء؛ وقد اجتمعا في قوله تعالى: ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ﴾ [الشمس: ١٣]، فـ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ ﴾ تحذير بتقدير: ذروا، و ﴿ وَسُقْيَـٰهَا ﴾ إغراء بتقدير: الزموا.

ومنها: التفخيم والإعظام لما فيه من الإبهام، ولهذا القصد يؤثر في المواضع التي يراد بها التعجب والتهويل على النفوس؛ ومنه: قوله في وصف أهل الجنة: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ [الزُّمَر: ٧٣]، فحذف الجواب، إذ كان وصف ما يجدونه ويلقونه عند ذلك لا يتناهى. وكذا قوله: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ [الأنعام: ٢٧]، أي: لرأيت أمرًا فظيعًا لا تكاد تحيط به العبارة.

ومنها: التخفيف، لكثرة دورانه في الكلام، كما في حذف حرف النداء، نحو: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ ﴾ [يوسف: ٢٩]، ونون ﴿ لَمْ ﴾، إلى غير ذلك من الأسباب الكثيرة...

شروط الحذف وأنواعه:

وللحذف شروط ثمانية:

منها: وجود دليل عليه.

ومنها: ألا يؤدي حذفه إلى اختصار المختصر، ومن ثم لم يحذف اسم الفعل لأنه اختصار للفعل.

ومنها: ألا يكون عاملًا ضعيفًا، فلا يحذف الجارّ مثلًا.

ومنها: ألا يكون المحذوف عوضًا عن شيء، وغير ذلك.

كما أن للحذف أنواعًا:

النوع الأول: ما يسمّى بالاقتطاع وهو: حذف بعض حروف الكلمة.

النوع الثاني: ما يسمّى بالاكتفاء وهو: أن يقتضي المقام ذكر شيئْن بينهما تلازم وارتباط، فيكتفي بأحدهما عن الآخر لنكتة، كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي: والبرد. وخصّص الحرّ بالذِّكر، لأن الخطاب للعرب، وبلادهم حارة، والوقاية عندهم من الحرّ أهمّ، لأنه أشد عندهم من البرد.

وقيل: لأن البرد تقدّم ذكر الامتنان بوقايته صريحًا في قوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠] وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ [النحل: ٥].

ومن أمثلة هذا النوع: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، أي: والشر. وإنما خصّ الخير بالذكر لأنه مطلوب العباد ومرغوبهم، أو لأنه أكثر وجودًا في العالم، أو لأن إضافة الشر إلى الله ليس من باب الآداب، كما قال ﷺ: ((والشرُّ ليس إليك)).

النوع الثالث: ما يسمّى بالاحتباك، وهو من ألطف الأنواع وأبدعها، وأفرده بالتصنيف البقاعي. وهو: أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن

الثاني ما أثبت نظيره في الأول، كقوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ ﴾ [البقرة: ١٧١] الآية. التقدير: ومثل الأنبياء والكفار كمثل الذي ينعق والذي ينعق به، فحذف من الأول الأنبياء لدلالة الذي ينعق عليه، ومن الثاني الذي ينعق به لدلالة الذين كفروا عليه.

ومأخذ هذه التسمية من: الحبك الذي معناه: الشّد والإحكام، وتحسين أثر الصنعة في الثوب؛ فحبْك الثوب: سدّ ما بين خيوطه من الفُرج، وشدّه وإحكامه بحيث يمنع عنه الخلل مع الحسن والرونق.

النوع الرابع: ما يسمى بالاختزال، هو ما ليس واحدًا مما سبق. وهو أقسام، لأن المحذوف إما كلمة: اسم، أو فعل، أو حرف، أو أكثر. والأمثلة على ذلك كثيرة...

الإطناب:

أما الإطناب فكما انقسم الإيجاز إلى: إيجاز قصر وإيجاز حذف، كذلك انقسم الإطناب إلى: بسط وزيادة.

فمن الإطناب بالبسط: الإطناب بتكثير الجمل كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠] الآية، في سورة (البقرة)؛ أطنب فيها أبلغ الإطناب لكون الخطاب مع الثقليْن، وفي كل عصر وحين، للعالِم منهم والجاهل، والموافق منهم والمنافق.

والثاني: يكون بأنواع:

أحدها: دخول حرف فأكثر من حروف التأكيد. وإنما يحسن تأكيد الكلام بها إذا كان المخاطب به منكرًا أو مترددًا. ويتفاوت التأكيد بحسب قوة الإنكار وضعفه. ثم باب الزيادة في الحروف. وزيادة الأفعال قليل، والأسماء أقل.

ومنه: التأكيد الصناعي، وهو أقسام:

منها : التوكيد المعنوي بكلّ وأجمع.

ومنها : التأكيد اللفظي وهو : تكرار اللفظ الأول.

ومن أنواع الإطناب بالبسط : التكرير ، والإطناب بالصفة ، وبالبدل ، وبعطف البيان ، وبعطف أحد المترادفيْن على الآخر ، وبعطف العام على الخاص ، والعكس ، وبوضع الظاهر موضع المضمر ، والتذييل ، والتكميل ، والتتميم ، إلى غير ذلك مما أوصله السيوطي - رحمه الله- إلى إحدى وعشرين طريقة ، تنظر في محالّها.

المعاني المتعلقة بالألفاظ (٢)

عناصر الدرس

الخـــبر والإنـــشاء

والكلام ينحصر في هذين النوعين.

الخبر:

والخبَر، قيل: ما يدخله التصديق والتكذيب، وقيل غير ذلك...

والقصد بالخبر: إفادة المخاطب، وقد يرِد بمعنى: الأمر نحو: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وبمعنى: الدعاء نحو: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، أي: أعنّا، ومنه: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المَسَد: ١]، فإنه دعاء عليه، وكذا: ﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة: ٣٠]، وكذا: ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ﴾ [المائدة: ٦٤]. وله معان أخرى...

وللخبر أقسام، منها: الوعد، والوعيد، وغير ذلك...

الإنشاء:

وأمّا الإنشاء فهو أقسام أيضًا، منها:

الاستفهام: وهو طلب الفهم، وهو بمعنى: الاستخبار.

وأدواته: الهمزة، وهل، وما، ومن، وأي، وكم، وكيف، وأين، وأنّى، ومتى، وأيان.

وله أغراض:

الأول: الإنكار.

الثاني: التوبيخ والتقريع نحو: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٣].

الثالث: التقرير، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشَّرح: ١، ٢].

الرابع: التعجب، نحو: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨].

الخامس: العتاب، كقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]. وغير ذلك كثير...

ومن أقسام الإنشاء:

الأمر وهو: طلب فعل غير كف. وصيغته: "افعلْ، ولْيفعل"؛ وهي حقيقة في الإيجاب، نحو: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [المجادلة: ١٣]، ﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢]. وترِد مجازًا لمعان أخر، منها:

الندب نحو: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

والإباحة نحو: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢].

والتهديد نحو: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فُصِّلَت: ٤٠]؛ إذ ليس المراد: الأمر بكل عمل شاءوا.

والإهانة نحو: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]. وغير ذلك كثير أيضًا...

ومن أقسام الإنشاء: النهي وهو: طلب الكف عن فعل، وصيغته: "لا تفعلْ"، وهي حقيقة في التحريم.

وترد مجازًا لمعان، منها:

الكراهة نحو: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ [الإسراء: ٣٧].

والدعاء نحو: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ [آل عمران: ٨].

والإرشاد نحو: ﴿ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠١]. وغير ذلك من المقاصد...

بدائع القرآن

أفرده بالتصنيف ابن أبي الأصبع، فأورد فيه نحو مائة نوع، وهي: المجاز، والاستعارة، والتشبيه، والكناية، والإرداف، والتمثيل، والإيجاز، والاتساع، والإشارة، والمساواة، والبسط، والإيغال، والتتميم، والتكميل، والاحتراس، والاستقصاء، والتذييل، والزيادة، والترديد، والتكرار، والتفسير، والإيضاح، ونفي الشيء بإيجابه، إلى غير ذلك... وقد تقدّم بعض ذلك، ومن أراد الاستزادة فليرجع لما كتبه السيوطي - رحمه الله- .

ونتكلم هنا على بعض هذه البدائع ومنها:

الإيهام وهو: التورية، وهي: أن يذكر لفظًا له معنيان: أحدهما قريب والآخر بعيد، ويقصد البعيد، ويورى عنه بالقريب، فيتوهمه السامع من أوّل وهلة.

وقد ذكر ابن حجر: أنّ من التورية في القرآن: قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ: ٢٨]، فإن ﴿ كَآفَّةٗ ﴾ بمعنى: مانع، أي: تكفّهم عن الكفر والمعصية، و"الهاء" للمبالغة؛ وهذا معنى بعيد. والمعنى القريب المتبادر: أنّ المراد: جميعًا، لكن منع من حمله على ذلك: أن التأكيد يتراخى عن المؤكّد، فكما لا تقول: رأيت جميعًا الناس، لا تقول: رأيت كافة الناس.

الاستخدام: وهو من أشرف أنواع البديع، وهو: أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مرادًا به أحد معانيه، ثم يؤتى بضميره، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴾ [المؤمنون: ١٢]، فإن المراد به: آدم. ثم أعاد عليه الضمير مرادًا به ولده، فقال: ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴾ [المؤمنون: ١٣].

الالتفات: وهو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر، أعني: من التكلم، أو الخطاب، أو الغيبة، إلى آخر منها بعد التعبير بالأول؛ هذا هو المشهور.

وقال السكاكي: "إما ذلك، أو التعبير بأحدهما فيما حقه التعبير بغيره".

وله فوائد، منها: تطرية الكلام، وصيانة السمع عن الضجر والملال، لما جُبلت عليه النفوس من حب التنقلات، والسآمة من الاستمرار على منوال واحد؛ وهذه فائدته العامة.

ومثاله من التكلم إلى الخطاب، ووجهه: حث السامع وبعثه على الاستماع، حيث أقبل المتكلّم عليه، وأعطاه فضل عناية تخصيص بالمواجهة: ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧١ وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [الأنعام: ٧١، ٧٢].

ومثاله من التكلم إلى الغيبة: قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ ﴾ [الفتح: ١، ٢]، والأصل: لنغفر لك.

ومثاله من الخطاب إلى الغيبة: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ [يونس: ٢٢] والأصل: بكم؛ ونكتة العدول عن خطابهم إلى حكاية حالهم لغيرهم: التعجب من كفرهم وفعلهم، إذ لو استمر على خطابهم لفاتت تلك الفائدة.

ويقرب من الالتفات نقل الكلام من خطاب الواحد، أو الاثنين، أو الجمع، لخطاب الآخر.

مثاله من الواحد إلى الاثنين: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ٧٨]، وإلى الجمع: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ﴾ [الطلاق: ١]، ومن الاثنين إلى الواحد: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٤٩]، ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه: ١١٧]، وإلى الجمع: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ [يونس: ٨٧].

ومنه أيضًا: الانتقال من الماضي، أو المضارع، أو الأمر، إلى آخر. ومثاله من الماضي إلى المضارع: ﴿ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ ﴾ [فاطر: ٩]، وإلى المضارع: ﴿ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٧٢].

الانسجام هو: أن يكون الكلام لخلوّه من العقادة منحدرًا، كتحدّر الماء المنسجم، ويكاد لسهولة تركيبه وعذوبة ألفاظه أن يسيل رقة. والقرآن كله كذلك.

قال أهل البديع: "وإذا قوي الانسجام في النثر جاءت قراءته موزونة بلا قصد، لقوّة انسجامه". ومن ذلك ما وقع في القرآن موزونًا؛ فمنه من بحر الطويل: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩].

قال الناظم:

أطال عذولي فيك كفرائه الهوى ❖ وآمنت يا ذا الظبا فأنسْ ولا تنفرْ
فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن ❖ ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾

ومن المديد: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ٢].

قال الناظم:

يا مديد الهجر هل من كتاب ❖ فيه آيات الشفا للسقيم
فاعلاتن فاعلن فاعلاتن ❖ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾

وهكذا...

فواصل الآي

الفاصلة: كلمة آخر الآية، كقافية الشعر، وقرينة السجع.

وقال الداني: "كلمة آخر الجملة".

وفرّق الداني بين الفواصل ورؤوس الآي، فقال: "الفاصلة هي: الكلام المنفصل عمّا بعده. والكلام المنفصل قد يكون رأس آية وغير رأس؛ وكذلك الفواصل يكنّ رؤوس آي وغيرها. وكل رأس آية فاصلة وليس كل فاصلة رأس آية".

قال: "ولأجل كون معنى الفاصلة هذا، ذكر سيبويه في تمثيل القوافي: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ [هود: ١٠٥]، و﴿مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ [الكهف: ٦٤]، وليسا رأس آيتين بإجماع، مع ﴿إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر: ٤] وهو رأس آية باتفاق".

وقال الجعبري: "لمعرفة الفواصل طريقان: توقيفي وقياسي:

أما التوقيفي: فما ثبت أنه ﷺ وقف عليه دائمًا تحقّقنا أنه فاصلة، وما وصله دائمًا تحققنا أنه ليس بفاصلة. وما وقف عليه مرة ووصله أخرى احتمل الوقف أن يكون لتعريف الفاصلة، أو لتعريف الوقف التام، أو للاستراحة.

وأما القياسي فهو: ما ألحق من المحتمل غير المنصوص بالمنصوص لمناسب ولا محذور في ذلك، لأنه لا زيادة ولا نقصان؛ وإنما غايته: أنه محل فصل أو وصل. والوقف على كل كلمة جائز، ووصل القرآن كله جائز؛ فاحتاج القياس إلى طريق تعرفه.

فنقول: فاصلة الآية كقرينة السجعة في النثر، وقافية البيت في الشعر. وما يذكر من عيوب القافية من اختلاف الحركة، والإشباع، والتوجيه، فليس بعيب في الفاصلة.

وقد عدّ البعض هذه الفواصل من باب السجع، ونفاه آخرون، وقالوا: لو كان القرآن سجعًا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، ولو كان داخلًا فيها لم يقع بذلك إعجاز. ولو جاز أن يقال: هو سجع معجز، لجاز أن يقولوا: شعر معجز. وكيف، والسجع مما كان تألفه الكهان من العرب؟ ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر، لأن الكهانة تنافي النبوّات، بخلاف الشعر، وقد قال ﷺ: ((أَسَجْعٌ كسَجْعِ الكهان))، فجعله مذمومًا.

قالوا: وما توهّموا أنه سجع، باطل، لأن مجيئه على صورته لا يقتضي كونه هو، لأن السجع يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع، وليس كذلك ما اتفق مما هو في معنى السجع من القرآن، لأن اللفظ وقع فيه تابعًا للمعنى.

ومنهم -وهو الوسط- مَن يرى: أن السجع وإن كان زينة للكلام، فقد يدعو إلى التكلف، فرئي ألا يستعمل في جملة الكلام، وألا يخلى الكلام منه جملة، وأنه يقبل منه ما اجتلبه الخاطر عفوًا بلا تكلف.

قال: وكيف يعاب السجع على الإطلاق، وإنما نزل القرآن على أساليب الفصيح من كلام العرب، فوردت الفواصل فيه بإزاء ورود الأسجاع في كلامهم. وإنما لم يجيء على أسلوب واحد، لأنه لا يحسن في الكلام جميعًا أن يكون مستمرًّا على نمط واحد، لما فيه من التكلف، ولما في الطبع من الملل، ولأن الافتنان في ضروب الفصاحة أعلى من الاستمرار على ضرب واحد؛ فلهذا وردت بعض آي القرآن متماثلة المقاطع، وبعضها غير متماثل.

وقد ألف الشيخ شمس الدين بن الصائغ كتابًا في الفواصل قال فيه: "اعلم أن المناسبة أمر مطلوب في اللغة العربية، يرتكب لها أمور من مخالفة الأصول". قال: "وقد تتبعت الأحكام التي وقعت في آخر الآي مراعاة للمناسبة، فعثرت منها على نيف عن الأربعين حكمًا".

فذكر منها: تقديم المعمول، نحو: ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾ [طه: ٢٣]، إذا أعربنا ﴿ ٱلْكُبْرَى ﴾: مفعول "نُري".

وتقديم ما هو متأخر في الزمان، نحو: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ [النجم: ٢٥].

وإثبات هاء السكت، نحو: ﴿ مَالِيَهْ ﴾، ﴿ سُلْطَٰنِيَهْ ﴾، ﴿ مَا هِيَهْ ﴾.

الجمع بين المجرورات، نحو: ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾ [الإسراء: ٦٩]، فإن الأحسن الفصل بينها، إلا أن مراعاة الفاصلة اقتضت عدمه وتأخير ﴿ تَبِيعًا ﴾.

العدول عن صيغة المضي إلى صيغة الاستقبال، نحو: ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧]، والأصل: قتلتم.

تغيير بنية الكلمة، نحو: ﴿ وَطُورِ ﴾ والأصل: سينا. وغير ذلك...

ثم قال ابن الصائغ: لا يمتنع في توجيه الخروج عن الأصل في الآيات المذكورة أمور أخرى مع وجه المناسبة؛ فإن القرآن العظيم، كما جاء في الأثر، لا تنقضي عجائبه.

ولا تخرج فواصل القرآن عن أحد أربعة أشياء: التمكين، والتصدير، والتوشيح، والإيغال.

قد فصلها وبيّن أمثلتها السيوطي - رحمه الله- فلتُنظر في محلها.

المعاني المتعلقة بالألفاظ (٣)، والمعاني المتعلقة بالأحكام (١)

عناصر الدرس

فواتح السور

أفردها بالتأليف ابن أبي الأصبع في كتاب سماه: (الخواطر السوانح في أسرار الفواتح).

وقد افتتح الله سوَر القرآن بعشرة أنواع من الكلام، لا يخرج شيء من السوَر عنها:

الأول: الثناء عليه تعالى، وهو قسمان: إثبات لصفات المدح، ونفي وتنزيه من صفات النقص. فالتحميد في خمس سوَر، و﴿تَبَارَكَ﴾ في سورتين، والتسبيح في سبع سور.

الثاني: حروف التهجي، في تسع وعشرين سورة.

الثالث: النداء في عشر سوَر.

الرابع: الجمل الخبرية، وهي كثيرة.

الخامس: القَسَم في خمس عشرة.

السادس: الشرط في سبع سوَر.

السابع: الأمر في ست سوَر.

الثامن: الاستفهام في ست سوَر.

التاسع: الدعاء في ثلاث.

العاشر: التعليل في ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١].

قال أهل البيان من البلاغة حُسن الابتداء، وهو: أن يتأنق في أول الكلام، لأنه أول ما يقرع السمع؛ فإن كان محررًا أقبل السامع على الكلام ووعاه، وإلا أعرض عنه، ولو كان الباقي في نهاية الحسن؛ فينبغي أن يؤتى فيه بأعذب اللفظ.

خواتم السوَر

وهى مثل الفواتح فى الحُسن، لأنها آخر ما يقرع الأسماع؛ فلهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعة، مع إيذان السامع بانتهاء الكلام حتى يبقى معه للنفوس تشوّق إلى ما يذكر بعد. فهي بين أدعية، ووصايا، وفرائض، وتحميد، وتهليل، ومواعظ، ووعد ووعيد، إلى غير ذلك...

كالدعاء الذي اشتملت عليه الآيتان من آخر سورة (البقرة).

وكالوصايا التي خُتمت بها سورة (آل عمران).

والفرائض التي خُتمت بها سورة (النساء)، وحسُن الختم بها لما فيها من أحكام الموت الذي هو آخر أمر كل حي، ولأنها آخر ما أُنزل من الأحكام.

وكالتبجيل والتعظيم الذي خُتمت به (المائدة).

وكالوعد والوعيد الذي خُتمت به (الأنعام).

وكالتحريض على العبادة بوصف حال الملائكة الذي خُتمت به (الأعراف).

وكالحض على الجهاد وصلة الأرحام الذي خُتم به (الأنفال).

ونفس الأمر في أواخر ما نزل من القرآن جملة.

فانظر براعة آخر آية نزلت وهي قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وما فيها من الإشعار بالآخرية المستلزمة للوفاة.

وكذلك آخر سورة نزلت، وهي سورة (النصر)، فيها الإشعار بالوفاة، كما أخرجه البخاري عن ابن عباس.

مناسبة الآيات والسور

أفرده بالتأليف العلامة أبو جعفر بن الزبير، شيخ أبي حيان، في كتاب سماه: (البرهان في مناسبة ترتيب سوَر القرآن)، ثم الشيخ برهان الدين البقاعي في كتاب سماه: (نظم الدرر في تناسب الآي والسوّر)؛ وهو كتاب عظيم ضخم، مطبوع في اثنين وعشرين مجلدًا. وهو لا يقتصر فقط على المناسبات وإنما يفسر الآيات.

وكذا ألف فيه السيوطي - رحمه الله- .

وهو علم شريف قل اعتناء المفسرين به، لدقته. وممن أكثر فيه: الإمام الرازي، وقال في تفسيره: "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط".

وقال بعضهم: "لا يطلب للآي الكريمة مناسبة، لأنها على حسب الوقائع المفرّقة".

قال: "وفصل الخطاب: أنها على حسب الوقائع تنزيلًا، وعلى حسب الحكمة ترتيبًا وتأصيلًا؛ فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ، مرتّبة سوَره كلها وآياته بالتوقيف، كما أنزل جملة إلى بيت العزة".

والمناسبة في اللغة: المشاكلة والمقاربة، ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينها، عام أو خاص، عقلي أو حسي أو خيالي، أو غير ذلك من أنواع العلاقات...

ومن تلك الروابط الكثيرة: التضاد. كقوله في سورة (البقرة): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ﴾ [يس: ١٠] الآية؛ فإن أول السورة كان حديثًا عن القرآن، وأن من شأنه الهداية للقوم الموصوفين بالإيمان، فلما أكمل وصف المؤمنين عقّب بحديث الكافرين؛ فبينهما جامع وهمي بالتضاد من هذا الوجه. وحكمته: التشويق، وكما قيل: وبضدّها تتبيّن الأشياء.

وحكى الخطابي: أن الصحابة لما اجتمعوا على القرآن، وضعوا سورة (القدر) عقب (العلَق). استدلوا بذلك على: أن المراد بهاء الكناية في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ﴾ [القدر: ١]: الإشارة إلى قوله: ﴿ٱقْرَأْ﴾ [العلق: ١]. قال القاضي أبو بكر ابن العربي: "وهذا بديع جدًّا".

وقال الزركشي: "ومن ذلك: افتتاح السوَر بالحروف المقطّعة، واختصاص كل واحدة بما بُدئت به حتى لم يكن لِتَرد ﴿الٓمٓ﴾ [البقرة: ١] في موضع ﴿الٓر﴾ [يونس: ١]، ولا ﴿حمٓ﴾ [الزُّخرُف: ٢] في موضع ﴿طسٓ﴾ [النمل: ١].

وذلك أن كلّ سورة بدئت بحرف منها، فإن أكثر كلماتها وحروفها مماثل له؛ فحُق لكل سورة منها ألا يناسبها غير الواردة فيها. فلو وضع ﴿قٓ﴾ [ق: ١] موضع ﴿نٓ﴾ [القلم: ١] لعدم التناسب الواجب مراعاته في كلام الله. وسورة (ق) بدئت به لما تكرر فيها من الكلمات بلفظ "القاف" من ذكر القرآن، والخلق وتكرير القول، ومراجعته مرارًا، والقرب من ابن آدم، وتلقي الملَكين، وقول العتيد والرقيب، والسائق، والإلقاء في جهنم، والتقدم بالوعد، وذكر المتقين، والقلب، والقرون، والتنقيب في البلاد، وتشقق الأرض، وحقوق الوعيد، وغير ذلك...".

الآيـــــات المـــــــتشابهات

وهذا الفن يسمَّى أيضًا: متشابه النظم.

وقد أفرده بالتصنيف خلْق، ومنهم الكرماني، وكتابه: (البرهان في توجيه متشابه القرآن) مطبوع في مجلد لطيف. ومن أحسن ما أُلِّف فيه كتاب: (ملاك التأويل)، لأبي جعفر بن الزبير الغرناطي، وهو مطبوع في مجلدين ضخمين.

وألَّف فيه جماعة من غير توجيه لأجل ضبط الحفظ ؛ ومن ذلك : (سبيل التثبيت واليقين) لصفي الدين المصري. ونظَم ذلك بعضُهم في نظم ليسهل حفظه. وقد كتبتُ في ذلك أبياتًا وهي قيد التنقيح.

والقصد به : إيراد القصة الواحدة في صور شتّى ، وفواصل مختلفة ، بل تأتي في موضع واحد مقدّمًا ، وفي آخر مؤخرًا ، كقوله في (البقرة) : ﴿ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ [البقرة : ٥٨]، وفي (الأعراف) : ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ [الأعراف : ١٦١].

وفي (البقرة) : ﴿ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ١٧٣]، وسائر القرآن : ﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ [المائدة : ٣].

وهذه أمثلة منه بتوجيهها :

قوله تعالى في (البقرة) : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ٢]، وفي (لقمان) : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ [لقمان : ٣]؛ لأنه لما ذكر في (البقرة) مجموع الإيمان ناسب المتقين ، ولما ذكر في لقمان الرحمة ناسب المحسنين.

قوله تعالى في سورة (البقرة) : ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [البقرة : ٨٠]، وفي (آل عمران) : ﴿ مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ [آل عمران : ٢٤]، قال ابن جماعة لأن قائل ذلك فرقتان من اليهود : إحداهما قالت : إنما نعذَّب بالنار سبعة أيام عدد أيام الدنيا. والأخرى قالت : إنما نعذّب أربعين عدة أيام عبادة آبائهم العجل. فآية (البقرة) تحتمل قصد الفرقة الثانية حيث عبر بجمع الكثرة ، و(آل عمران) بالفرقة الأولى حيث أتى بجمع القلة.

القسم السادس: المعاني المتعلقة بالأحكام: المحكَم والمتشابه

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ [آل عمران: ٧].

وفي تلك المسألة ثلاثة أقوال:

أحدها: أن القرآن كلّه مُحكَم، لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١].

الثاني: كلّه متشابه، لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزُّمَر: ٢٣].

الثالث- وهو الصحيح-: انقسامه إلى: محكَم ومتشابه، للآية المصدّر بها.

والجواب عن الآيتين: أن المراد بإحكامه: إتقانه، وعدم تطرّق النقص والاختلاف إليه، وبتشابهه: كونه يشبه بعضُه بعضًا في الحق والصدق والإعجاز.

وقد اختلف في تعيين المحكَم والمتشابه على أقوال:

فقيل: المحكم: ما عُرف المراد منه، إما بالظهور، وإما بالتأويل.

والمتشابه: ما استأثر الله بعلْمه، كقيام الساعة، وخروج الدجال، والحروف المقطّعة في أوائل السوَر.

وقيل: المحكَم: ما لا يحتمل من التأويل إلا وجهًا واحدًا، والمتشابه: ما احتمل أوجهًا. وقيل غير ذلك...

واختلف: هل المتشابه مما يمكن الاطلاع على علمه، أو لا يعلمه إلا الله، على قولين منشؤهما الاختلاف في قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾، هل هو معطوف؟ و يقولون: حال، أو مبتدأ خبره: ﴿يَقُولُونَ﴾، والواو للاستئناف.

والأكثرون من الصحابة والتابعين وأتباعهم ومَن بعدَهم - خصوصًا أهل السُّنة - ذهبوا إلى الثاني ؛ وهو أصح الروايات عن ابن عباس.

ويدل لصحة مذهب الأكثرين : ما أخرجه عبد الرزاق في (تفسيره) والحاكم في (مستدركه)، عن ابن عباس : أنه كان يقرأ قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ويقول : "يقول الراسخون في العلم : آمنا به". فهذا يدل على أن الواو للاستئناف، لأن هذه الرواية وإن لم تثبت بها القراءة، فأقل درجاتها أن يكون خبرًا بإسناد صحيح إلى ترجمان القرآن ؛ فيقدَّم كلامه في ذلك على مَن دونَه.

ويؤيد ذلك : أن الآية دلت على ذم متّبعي المتشابه، ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة، وعلى مدح الذين فوّضوا العلْم إلى الله وسلّموا إليه، كما مدح الله المؤمنين بالغيب.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : "نزل القرآن على أربعة أحرف : حلال وحرام لا يُعذر أحد بجهالته، وتفسير تفسّره العرب، وتفسير تفسّره العلماء، ومتشابه لا يعلمه إلا الله ؛ ومن ادّعى علمَه سوى الله فهو كاذب".

قال الطيبي : المراد بالمحكَم : ما اتّضح معناه، والمتشابه بخلافه، لأن اللفظ الذي يقبل معنًى إما أن يحتمل غيره، أوْ لا، والثاني النص. والأول إما أن تكون دلالته على ذلك الغير أرجح، أو لا، والأول هو الظاهر. والثاني إما أن يكون مساويه، أو لا، والأول هو المجمَل، والثاني المؤوّل.

فالمشترك بين النص والظاهر هو : المحكَم، والمشترك بين المجمل والمؤوّل هو : المتشابه.

فإن قيل : ما الحكمة في إنزال المتشابه ممن أراد لعباده به البيان والهدى؟

قلت : إن كان مما يمكن علمه فله فوائد :

منها: الحث للعلماء على النظر الموجب للعلم بغوامضه، والبحث عن دقائقه؛ فإن استدعاء الهمم لمعرفة ذلك من أعظم القرب.

ومنها: ظهور التفاضل وتفاوت الدرجات؛ إذ لو كان القرآن كلّه محكَمًا لا يحتاج إلى تأويل ونظر، لاستوت منازل الخلق، ولم يظهر فضل العالِم على غيره.

وإن كان مما لا يمكن علمه فله فوائد.

منها: ابتلاء العباد بالوقوف عنده والتوقف فيه، والتفويض والتسليم، والتعبد بالاشتغال به من جهة التلاوة، كالمنسوخ - وإن لم يجز العمل بما فيه - ، وإقامة الحجة عليهم؛ لأنه لما نزل بلسانهم ولغتهم وعجزوا عن الوقوف على معناه - مع بلاغتهم وأفهامهم - دل على أنه نزل من عند الله، وأنه الذي أعجزهم عن الوقوف على معناه.

المعاني المتعلقة بالأحكام (٢)

عناصر الدرس

مقدّمـــــــــه ومـــــــــؤخّره

وهو قسمان:

الأول: ما أشكل معناه بحسب الظاهر، فلما عرف أنه من باب التقديم والتأخير اتّضح.

وهو جدير أن يفرد بالتصنيف؛ وقد تعرض السلف لذلك في آيات.

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة، في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا ﴾ [التوبة: ٨٥]، قال: "هذا من تقاديم الكلام، يقول: لا تعجبْك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة".

وأخرج عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ (١) قَيِّمًا ﴾ [الكهف: ١، ٢]، قال: "هذا من التقديم والتأخير: أنزل على عبده الكتاب قيّمًا، ولم يجعل له عوجًا".

وأخرج عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران: ٥٥]

قال: "هذا من المقدّم والمؤخر، أي: رافعك إليّ ومتوفّيك".

الثاني: ما ليس كذلك، وقد ألّف فيه العلامة شمس الدين بن الصائغ كتابه: (المقدمة في سر الألفاظ المقدّمة)، قال فيه: "الحكمة الشائعة الذائعة في ذلك: الاهتمام".

ثم قال: "هذه الحكمة إجمالية.

وأما تفاصيل أسباب التقديم وأسراره، فقد ظهر لي منها في الكتاب العزيز عشرة أنواع:

الأول: التبرك، كتقديم اسم الله تعالى في الأمور ذات الشأن، ومنه قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ١٨].

الثاني: التعظيم كقوله: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ [النساء: ٦٩]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة: ٦٢].

الثالث: التشريف، كتقديم الذكر على الأنثى، نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٥]الآية، و﴿ ٱلْحُرُّ ﴾ في قوله: ﴿ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾ [البقرة: ١٧٨]، و﴿ ٱلْحَىَّ ﴾ الحيّ في قوله: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ [الأنعام: ٩٥]الآية، ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ [فاطر: ٢٢]".

ثم ذكر باقيها مفصّلة بأمثلتها.

خاصّه وعامّه

العامّ: لفظ يستغرق الصالح له من غير حصر.

وصيغ العموم كثيرة منها:

كل مبتدأة، نحو: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن: ٢٦].

أو تابعة، نحو: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر: ٣٠].

و"الذي"، و"التي"، وتثنيتهما، وجمعهما، نحو: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ [الأحقاف: ١٧]، فإن المراد به: كل من صدر منه هذا القول، بدليل قوله بعد: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ [الأحقاف: ١٨]، ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [البقرة: ٨٢]، ﴿ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ ﴾ [النساء: ١٥] الآية، ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ﴾ [النساء: ١٦].

و"أي"، و"ما"، و"مَن" شرطًا واستفهامًا وموصولًا، نحو: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

والجمع المضاف، نحو: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١].

والمعرف بـ"أل"، نحو: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥].

واسم الجنس المضاف نحو: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور: ٦٣] أي: كل أمر الله.

والمعرّف بـ"أل"، نحو: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، أي: كل بيع. ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، أي: كل إنسان، بدليل قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [العصر: ٣]، إلى غير ذلك...

العام على ثلاثة أقسام:

الأول: الباقي على عمومه، وذكر الزركشي في (البرهان): أنه كثير في القرآن، وأورد منه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس: ٤٤].

ومنه أيضًا قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] الآية، فإنه لا خصوص فيها.

الثاني: العام المراد به الخصوص.

الثالث: العام المخصوص. وللناس بينهما فروق.

ومن أمثلة المراد به الخصوص: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، والقائل واحد: نعيم بن مسعود الأشجعي، أو أعرابي من خزاعة.

ومنها: قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ٥٤] أي: رسول الله ﷺ لِجمْعه ما في الناس من الخصال الحميدة.

وأما المخصوص فأمثلته في القرآن كثيرة جدًّا؛ وهو أكثر من المنسوخ؛ إذ ما من عام إلا وقد خُصّ.

ثم المخصِّص له: إما متّصل، وإما منفصل.

فالمتصل: خمسة وقعت في القرآن وهي؛ الاستثناء، والوصف، والشرط، والغاية، وبدل البعض من الكلّ.

ومن أمثلة ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]، ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣]، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة: ١٨٠].

والمنفصل: آية أخرى في محل آخر، أو حديث، أو إجماع، أو قياس.

ومن أمثلة ما خُصّ بالقرآن: قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣] خصّ بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] الآية.

ومن أمثلة ما خُصّ بالحديث :

قوله تعالى : ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ ﴾ [البقرة: ٢٧٥] خُص منه البيوع الفاسدة ؛ وهي كثيرة بالسُّنة.

ومن أمثلة ما خُصّ بالإجماع :

آية المواريث ، خُصّ منها الرقيق فلا يرث بالإجماع ، ذكره مكي.

ومن أمثلة ما خُصّ بالقياس :

آية الزنى ، في قوله تعالى : ﴿ فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور: ٢]، خُصّ منها العبد ، بالقياس على الأمَة المنصوصة في قوله تعالى : ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [النساء: ٢٥]، المخصّص لعموم الآية ، ذكره مكي أيضًا. وفي بعض ذلك نزاع بين الفقهاء.

مجملـــــه ومبيّنـــــه

المجمَل : ما لم تتضح دلالته ؛ وهو واقع في القرآن عند الجمهور ، وخالف في ذلك الإمام داود الظاهري.

وفي جواز بقائه مجملًا أقوال ، أصحّها : لا يبقى المكلّف بالعمل به ، بخلاف غيره.

وللإجمال أسباب :

منها : الاشتراك ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ [التكوير: ١٧]، فإنه موضوع لأقبل وأدبر. ﴿ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فإن القرء موضوع للحيض والطهر.

﴿ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، يحتمل الزوج والولي ؛ فإن كلًا منهما بيده عقدة النكاح. إلى غير ذلك من أسباب الإجمال...

وقد يقع التبيين :

متصلًا، نحو : ﴿ مِنَ ٱلۡفَجۡرِ ﴾ [البقرة: ١٨٧]، بعد قوله تعالى : ﴿ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ ﴾ .

ومنفصلًا في آية أخرى نحو قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] دال على جواز الرؤية، ومفسّر أن المراد بقوله : ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]: لا تحيط به، دون لا تراه.

وقوله : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ ﴾ [البقرة: ٣٧]، فسّره قوله : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا ﴾ [الأعراف: ٢٣] الآية.

وقد يقع التبيين بالسّنّة مثل قوله : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [يونس: ٨٧]، فإنها مجملة لاحتمال الصلاة لكل دعاء، وقيل : لا ؛ بل يحمل على كل ما ذكر إلا ما خص بدليل.

ناسخه ومنسوخه

أفرده بالتصنيف خلائق لا يحصَوْن، منهم : أبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو داود السجستاني، وأبو جعفر النحاس، وابن الأنباري، ومكّي، وابن العربي.

قال الأئمة : "لا يجوز لأحد أن يفسّر كتاب الله، إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ".

ويأتي النسخ بمعنى : الإزالة، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ

﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ [الحج: ٥٢].

وبمعنى: التبديل، ومنه، قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ [النحل: ١٠١].

وبمعنى: التحويل، كتناسخ المواريث بمعنى: تحويل الميراث من واحد إلى واحد.

وبمعنى: النقل من موضع إلى موضع؛ ومنه: نسخت الكتاب، إذا نقلت ما فيه حاكيًا للفظه وخطه.

والنسخ مما خصّ الله به هذه الأمة لِحِكم، منها: التيسير. وقد أجمع المسلمون على جوازه، وأنكره اليهود ظنًّا منهم أنه بداء، كالذي يرى الرأي ثم يبدو له؛ وهو باطل، لأنه بيان مدة الحكم كالإحياء بعد الإماتة وعكسه، والمرض بعد الصحة وعكسه، والفقر بعد الغنى وعكسه؛ وذلك لا يكون بداء، فكذا الأمر والنهي.

واختلف العلماء فقيل: لا يُنسخ القرآن إلا بقرآن، لقوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ [البقرة: ١٠٦]، قالوا: ولا يكون مثل القرآن وخيرًا منه إلا قرآن.

وقيل: بل يُنسخ القرآن بالسّنَّة، لأنها أيضًا من عند الله، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣]، وجُعل منه آية الوصية الآتية.

ولا يقع النسخ إلا في الأمر والنهي، ولو بلفظ الخبر. أما الخبر الذي ليس بمعنى الطلب، فلا يدخله النسخ، ومنه: الوعد والوعيد.

والنسخ أقسام:

أحدها: نسخ المأمور به قبل امتثاله، وهو النسخ على الحقيقة، كآية النجوى.

الثاني: ما نُسخ مما كان شرعًا لمن قبلنا، كآية شرع القصاص، والدّيه، أو كان

أمر به أمرًا جمليًا، كنسخ التوجّه إلى بيت المقدس بالكعبة، وصوم عاشوراء برمضان. وإنما يسمّى هذا نسخًا تجوّزًا.

الثالث: ما أُمر به لسبب، ثم يزول السبب، كالأمر حين الضعف والقلة بالصبر والصفح، ثم نسخ بإيجاب القتال؛ وهذا في الحقيقة ليس نسخًا بل هو من قسم المُنسَأ كما قال تعالى: "أَوْ نَنسَأْهَا"، فالمُنسَأ هو: الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون، وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى. وبهذا يضعف ما لهج به كثيرون من أن الآية في ذلك منسوخة بآية السيف، وليس كذلك؛ بل هي من المُنسأ بمعنى: أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما، لعله يقتضي ذلك الحكم، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، وليس بنسخ؛ إنما النسخ: الإزالة للحكم حتى لا يجوز امتثاله.

والنسخ في القرآن على ثلاثة أضرب:

أحدها: ما نُسخ تلاوته وحكمه معًا، قالت عائشة: "كان فيما أُنزل: "عشر رضعات معلومات"، فنُسخن بخمس معلومات. فتوفي رسول الله ﷺ وهنّ مما يُقرأ من القرآن". رواه الشيخان.

الثاني: ما نُسخ حكمُه دون تلاوته؛ وهذا الضرب هو الذي فيه الكتب المؤلفة. وهو على الحقيقة قليل جدًّا، وإن أكثر الناس من تعداد الآيات فيه؛ فإن المحققين منهم كالقاضي أبي بكر بن العربي بيّن ذلك وأتقنه.

ومن أمثلة المنسوخ:

قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ [البقرة: ١٨٠]، الآية: منسوخة قيل: بآية المواريث، وقيل: بحديث: ((ألا لا وصيّةَ لوارث))، وقيل:

بالإجماع، حكاه ابن العربي.

وقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ ﴾ [البقرة: ١٨٤]، قيل: منسوخة بقوله: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقيل: محكمة و لا مقدّرة.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٤]: منسوخة بقوله بعده: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال ابن الحصار: إنما يرجع في النسخ إلى نقل صريح عن رسول الله ﷺ، أو عن صحابي يقول: "آية كذا نسخت كذا".

قال: "وقد يحكم به عند وجود التعارض المقطوع به من علْم التاريخ، ليعرف المتقدّم والمتأخر".

قال: "ولا يعتمد في النسخ قول عوام المفسرين، بل ولا اجتهاد المجتهدين، من غير نقل صحيح، ولا معارضة بيّنة، لأن النسخ يتضمن رفع حكم وإثبات حكم تقرر في عهده ﷺ؛ والمعتمد فيه: النقل والتاريخ، دون الرأي والاجتهاد.

الضرب الثالث: ما نُسخ تلاوته دون حكمه.

وقد أورد بعضهم فيه سؤالًا، وهو: ما الحكمة في رفع التلاوة مع بقاء الحكم، وهلاّ بقيت التلاوة ليجتمع العمل بحكمها وثواب تلاوتها؟

ومن أمثلته: عن زر بن حبيش قال: "قال لي أبيّ بن كعب: كم آي تعدّ سورة الأحزاب؟ قلت: اثنتين وسبعين آية، أو ثلاثًا وسبعين آية. قال: إن كانت لتعدل سورة (البقرة)، وإن كنا لنقرأ فيها آية الرجم. قلت: وما آية الرجم. قال: "إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتة، نكالًا من الله، والله عزيز حكيم".

مُشكله، وموهم الاختلاف والتناقض

المراد به: ما يوهم التعارض بين الآيات، وكلامه تعالى منزّه عن ذلك، كما قال: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]؛ ولكن قد يقع للمبتدئ ما يوهم اختلافًا، وليس به في الحقيقة، فاحتيج لإزالته كما صنف في مختلف الحديث، وبيان الجمع بين الأحاديث المتعارضة. وقد تكلم في ذلك ابن عباس، وحكي عنه التوقف في بعضها.

فعن سعيد بن جبير قال: "جاء رجل إلى ابن عباس فقال: رأيت أشياء تختلف عليّ من القرآن. فقال ابن عباس: ما هو؟ أشَكٌّ؟! قال: ليس بشكّ، ولكنه اختلاف. قال: هات ما اختلف عليك من ذلك. قال: أسمع الله يقول: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقال: ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٤٢]، فقد كتموا. وأسمعه يقول: ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ثم قال: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [الصافات: ٢٧]. وقال: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ [فُصِّلت: ٩]، حتى بلغ ﴿ طَآئِعِينَ ﴾ [فُصِّلت: ١١]، ثم قال في الآية الأخرى: ﴿ أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٢٧]، ثم قال: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ [النازعات: ٣٠]. وأسمعه يقول: ﴿ كَانَ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٤٣] ما شأنه يقول: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ ﴾.

فقال ابن عباس: أما قوله ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣]، فإنهم لما رأوا يوم القيامة، وأن الله يغفر الذنوب ولا يغفر شركًا ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره، جحده المشركون رجاء أن يغفر لهم، فقالوا: ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾، فختم الله على أفواههم، فتكلّمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون؛

فعند ذلك ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

وأما قوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، فإنه إذا نفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾. ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾.

وأما قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصّلت: ٩]، فإن الأرض خُلقت قبل السماء، وكانت السماء دخانًا، فسواهن سبع سموات في يومين بعد خلق الأرض.

وأما قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، يقول جعل فيها جبلًا، وجعل فيها نهرًا، وجعل فيها شجرًا، وجعل فيها بحورًا.

وأما قوله: ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾، فإن الله كان ولم يزل كذلك، وهو كذلك عزيز حكيم، عليم قدير، لم يزل كذلك.

فما اختلف عليك من القرآن فهو يشبه ما ذكرت لك. وإن الله لم ينزل شيئًا إلا وقد أصاب الذي أراد، ولكن أكثر الناس لا يعلمون".

أخرجه بطوله: الحاكم في (المستدرك) وصححه؛ وأصله في الصحيح.

المعاني المتعلقة بالأحكام (٣)،
والقسم الأخير: ما لا يدخل تحت الحصر

عناصر الدرس

مطلقــــــه ومقيــــــده

المُطلق: الدال على الماهية بلا قيد، وهو مع المقيّد كالعام مع الخاص. قال العلماء: متى وُجد دليل على تقييد المطلق صِير إليه، وإلا فلا؛ بل يبقى المطلق على إطلاقه والمقيّد على تقييده، لأن الله تعالى خاطبَنا بلغة العرب.

والضابط: أن الله إذا حكم في شيء بصفة أو شرط، ثم ورد حُكم آخر مطلقًا، نُظر: فإن لم يكن له أصل يُردُّ إليه إلا ذلك الحكم المقيّد وجب تقييده به، وإن كان له أصل غيره لم يكن ردّه إلى أحدهما بأوْلى من الآخر.

فالأول مثل: اشتراط العدالة في الشهود على الرجعة والفَرْق والوصية في قوله: ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [الطلاق: ٢]، وقوله: ﴿ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٦]، وقد أطلق الشهادة في البيوع وغيرها في قوله: ﴿ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ﴾ [النساء: ٦]، والعدالة شرط في الجميع.

وكذلك ما اشترط في كفارة القتل من الرقبة المؤمنة، وإطلاقها في كفارة الظهار واليمين، والمطلق كالمقيّد في وصف الرقبة.

فمذهب الشافعي: حمل المطلق على المقيّد في الجميع.

ومن العلماء من لا يحمله، ويجوّز إعتاق الكافر في كفارة الظهار واليمين.

والثاني: مثل تقييد الصوم بالتتابع في كفارة القتل والظهار، وتقييده بالتفريق في صوم التمتّع، وأطلق كفارة اليمين وقضاء رمضان؛ فيبقى على إطلاقه من جوازه مفرقًا ومتتابعًا، لا يمكن حمله عليهما لتنافي القيدين، وهما: التفريق والتتابع، ولا على أحدهما لعدم المرجّح.

منطوقه ومفهومه

المنطوق:

المنطوق: ما دل عليه اللفظ في محلّ النطق. فإن أفاد معنى لا يحتمل غيره فهو النص، نحو: ﴿ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وقد نقل عن قوم من المتكلمين أنهم قالوا بندور النص جدًّا في الكتاب والسُّنة. وقد بالغ إمام الحرمين وغيره في الرد عليهم.

أما إذا أفاد معنًى مع احتمال غيره احتمالًا مرجوحًا، فهو الظاهر، نحو: ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، فإن الباغي يطلق على الجاهل وعلى الظالم، وهو فيه أظهر وأغلب، ونحو: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فإنه يقال للانقطاع: "طهر"، وللوضوء والغسل، وهو في الثاني أظهر. فإن حُمل على المرجوح لدليل فهو تأويل، ويسمّى المرجوح المحمول عليه: مؤولًا، كقوله: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الإسراء: ٢٤]، فإنه يستحيل حمله على الظاهر، لاستحالة أن يكون للإنسان أجنحة؛ فيُحمل على الخضوع وحسن الخلق.

وقد يكون مشتركًا بين حقيقتين، أو حقيقة ومجاز، ويصح حمله عليهما جميعًا.

ومن أمثلته: قوله: ﴿ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فإنه يحتمل: لا يضار الكاتب والشهيد صاحب الحق بجور في الكتابة والشهادة، ولا يضار بالفتح أي: لا يضرهما صاحب الحق بإلزامهما ما لا يلزمهما، وإجبارهما على الكتابة والشهادة.

ثم إن توقفت صحة دلالة اللفظ على إضمار، سُميت: دلالة اقتضاء، نحو: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف: ٨٢]، أي: أهلها.

وإن لم تتوقف، ودل اللفظ على ما لم يقصد به، سُميت: دلالة إشارة، كدلالة قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٧]، على صحة صوم من أصبح جنبًا، إذ إباحة الجماع إلى طلوع الفجر تستلزم كونه جنبًا في جزء من النهار.

المفهوم:

والمفهوم: ما دل عليه اللفظ لا في محلّ النطق، وهو قسمان: مفهوم موافقة، ومفهوم مخالفة.

فالأول: ما يوافق حُكمه المنطوق. فإن كان أوْلى، سمّي: فحوى الخطاب كدلالة: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ [الإسراء: ٢٣] على تحريم الضرب لأنه أشد.

وإن كان مساويًا، سمّي: لحن الخطاب أي: معناه. كدلالة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا ﴾ [النساء: ١٠]على تحريم الإحراق، لأنه مساوٍ للأكل في الإتلاف.

والثاني: ما يخالف حكمه المنطوق. وهو أنواع:

مفهوم صفة، وشرط، وغاية، وحصر.

واختلف في الاحتجاج بهذه المفاهيم على أقوال كثيرة، ورجح كثير من أهل العلْم أنها كلها حجة بشروط؛ وتفصيل ذلك في كتب الأصول.

وجـــــوه مخاطباتـــــه

قال ابن الجوزي في كتابه (النفيس): الخطاب في القرآن على خمسة عشر وجهًا. وقال غيره على أكثر من ثلاثين وجهًا:

أحدها: خطاب العام والمراد به العموم، كقوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ [الروم: ٤٠].

والثاني: خطاب الخاص والمراد به الخصوص، كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ ﴾ [المائدة: ٦٧].

الثالث: خطاب العام والمراد به الخصوص، كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ [الحج: ١]، لم يدخل فيه الأطفال والمجانين.

الرابع: خطاب الخاص والمراد العموم، كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ﴾ [الطلاق: ١]، افتتح الخطاب بالنبي ﷺ، والمراد سائر من يملك الطلاق.

الخامس: خطاب الجنس، كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ﴾.

السادس: خطاب النوع، نحو: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [البقرة: ٤٠].

السابع: خطاب العين، نحو: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ ﴾ [الأعراف: ١٩]

وقد ذكر السيوطي - رحمه الله- جملة كبيرة من أنواع الخطاب في القرآن الكريم مع أمثلتها، من أراد الاستزادة فليرجع إليها.

ما لا يدخل تحت الحصر: الأسماء والكنى والألقاب

ننتقل الآن أيها الطالب الكريم إلى القسم الأخير من تقسيمات البلقيني لعلوم القرآن، وهو ما لا يدخل تحت الحصر، ويندرج تحته جملة من العلوم، ومنها:

الأسماء والكنى والألقاب، والمبهمات، وأسماء من نزل فيهم القرآن.

الأسماء: فمن ذلك:

أسماء الأنبياء والمرسلين:

وفي القرآن منهم: خمسة وعشرون، هم مشاهيرهم.

﴿ ءَادَمُ ﴾ أبو البشر:

ذكر قوم أنه على وزن "أفعل": وصف مشتق من الأَدَمة، ولذا مُنع الصرف.

قال الجواليقي: "أسماء الأنبياء كلها أعجمية، إلا أربعة: ﴿ ءَادَمُ ﴾، و﴿ صَٰلِحٌ ﴾، و﴿ شُعَيْبٌ ﴾، و﴿ مُحَمَّدٌ ﴾ ".

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: "إنما سمى آدم لأنه خلق من أديم الأرض".

وقال قوم: هو اسم سرياني أصله: "آدام" بوزن: "خاتام"، عُرّب بحذف الألف الثانية.

وقال الثعلبي: "التراب بالعبرانية: "آدام"، فسمّي آدم به".

وقال ابن أبي خيثمة: "عاش تسعمائة سنة وستين سنة".

وقال النووي في (تهذيبه): "اشتهر في كتب التواريخ أنه عاش ألف سنة".

﴿ نُوحٌ ﴾:

قال الجواليقي: "أعجمي معرّب".

زاد الكرماني: "ومعناه بالسريانية: الساكن، وفي نسخة: الشاكر".

وقال الحاكم في (المستدرك): "إنما سُمّي نوحًا لكثرة بكائه على نفسه. واسمه: عبد الغفار".

وفي (المستدرك) عن ابن عباس قال: "كان بين آدم ونوح عشرة قرون".

وفيه عنه مرفوعًا: ((بعث الله نوحًا لأربعين سنة، فلبث في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عامًا، يدعوهم. وعاش بعد الطوفان ستين سَنَة، حتى كثر الناس وفشوْا)).

وذكر ابن جرير: أن مولد نوح كان بعد وفاة آدم بمائة وستة وعشرين عامًا.

﴿إِدْرِيسَ﴾:

قيل: إنه قبل نوح.

قال ابن إسحاق: "كان إدريس أوّل بني آدم أُعْطِي النبوة، وهو: "أخنوخ".

وقال وهب بن منبه: "إدريس جدّ نوح الذي يقال له: خنوخ، وهو اسم "سرياني".

وقيل: عربي مشتق من الدراسة، لكثرة درسه الصحف.

وفي (المستدرك) عن ابن عباس قال: "كان فيما بين نوح وإدريس ألف سنة".

﴿إِبْرَاهِيمُ﴾:

قال الجواليقي: "هو اسم قديم ليس بعربي. وقد تكلمت به العرب على وجوه، أشهرها: إبراهيم. وقالوا: "إبراهام"، وقرئ به في السّبع".

وهو اسم سرياني، معناه: أب رحيم. وقيل مشتق من: البرهمة وهي: شدة النظر؛ حكاه الكرماني في (عجائبه).

وهو ابن آزر، واسمه: تارح - بمثناة وراء مفتوحة، وآخره حاء مهملة -.

قال الواقدي: "ولد إبراهيم على رأس ألفي سنة مِن خلْق آدم".

وحكى النووي وغيره قولًا: أنه عاش مائة وخمسة وسبعين.

﴿إِسْمَاعِيلَ﴾:

قال الجواليقي: "ويقال بالنون آخِره". قال النووي وغيره: "هو أكبر ولد إبراهيم".

﴿إِسْحَقَ﴾ :

ولد بعد إسماعيل بأربع عشرة سنة ، وعاش مائة وثمانين سنة.

وذكر أبو علي بن مسكويه في كتاب (نديم الفريد) : أن معنى "إسحاق" بالعبرانية : الضحاك.

﴿يُوسُفُ﴾ :

في (صحيح ابن حبان) ، من حديث أبي هريرة مرفوعًا : ((إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم)).

وفي (المستدرك) عن الحسن : أن يوسف أُلقي في الجب وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، ولقي أباه بعد الثمانين ، وتوفي وله مائة وعشرون.

وفي (الصحيح) : ((أنه أُعطي شطر الحُسْن)).

إلى غير ذلك من أسماء للأنبياء والرسل ، عليهم السلام.

أسماء الملائكة عليهم السلام :

وفيه من أسماء الملائكة عليهم السلام :

﴿جِبْرِيل﴾ : و ﴿مِيكَائِيل﴾ :

وفيهما لغات : جِبريل- بكسر الجيم والراء- ، بلا همز ، وجَبرِيل- بفتح الجيم وكسر الراء ، بلا همز- ، وجبرائيل- بهمزة بعد الألف- .

وقرئ ميكاييل -بلا همز- ، وميكئل وميكال.

أخرج ابن جرير من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : "جبريل عبد الله ، وميكاييل عبيد الله ، وكل اسم فيه "إيل" فهو معبّد لله".

وأخرج عن عبد الله بن الحارث قال: "إيل: الله بالعبرانية".

و﴿ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ﴾ [البقرة: ١٠٢]:

أخرج ابن أبي حاتم عن علي قال: "هاروت وماروت ملكان من ملائكة السماء"، وقد أفرد السيوطي في قصتهما جزءًا".

في الترمذي من حديث ابن عباس: أن اليهود قالوا للنبي ﷺ أسماء المتقدمين من غير الأنبياء والرسل.

إلى غير ذلك من أسماء الملائكة.

غير الملائكة، والأنبياء والرسل:

كما أن فيه من أسماء المتقدمين غير الأنبياء والرسل:

﴿ عِمْرَٰنَ ﴾ [التحريم: ١٢] أبو مريم، وقيل: أبو موسى أيضًا. وأخوها ﴿ هَـٰرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، وليس بأخي موسى، كما في حديث أخرجه مسلم.

﴿ عُـزَيْرٌ ﴾ [التوبة: ٣٠].

و﴿ تُبَّعٍ ﴾ [الدخان: ٣٧]: وكان رجلًا صالحًا، كما أخرج الحاكم، وقيل: نبي، حكاه الكرماني في (عجائبه).

و﴿ لُقْمَـٰنَ ﴾ [لقمان: ١٢]: وقد قيل إنه كان نبيًّا، والأكثر على خلافه. وأخرج ابن أبي حاتم وغيره، من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: "كان لقمان عبدًا حبشيًّا نجارًا".

و﴿ يُوسُفُ ﴾ [غافر: ٣٤] الذي في سورة (غافر).

و ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ [مريم: ١٨]، في قوله: ﴿مَرۡيَمَ﴾ [مريم: ١٦]، قيل: إنه اسم رجل كان من أمثل الناس، أي: إن كنت في الصلاح مثل تقي؛ حكاه الثعلبي. وقيل: اسم رجل كان يتعرض للنساء. وقيل: إنه ابن عمها أتاها جبريل في صورته؛ حكاهما الكرماني في (عجائبه). وغير ذلك...

أسماء النساء: وفيه من أسماء النساء:

﴿مَرۡيَمَ﴾: لا غير، لنكتة سبق ذكرها في نوع الكناية. ومعنى "مريم" بالعبرية: الخادم.

أما الكُنى: فليس في القرآن منها غير أبي لهب، واسمه: عبد العزى، ولذلك لم يذكر باسمه لأنه حرام شرعًا.

وأما الألقاب: فمنها:

﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: لقب يعقوب ومعناه: عبد الله، وقيل: صفوة الله.

أخرج ابن جرير عن ابن عباس: أن إسرائيل كقولك: عبد الله.

وفيه لغات، أشهرها: بياء بعد الهمزة ولام، وقرئ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، بلا همز.

قال بعضهم: ولم يخاطب اليهود في القرآن إلا بـ﴿يَعۡقُوبَ﴾ [آل عمران: ٨٤]، دون "يا بني يعقوب" لنكتة، وهو: أنهم خوطبوا بعبادة الله، وذُكّروا بدين أسلافهم، موعظة لهم وتنبيهًا من غفلتهم؛ فسُموا بالاسم الذي فيه تذكرة بالله تعالى؛ فإن اسم مضاف إلى الله في التأويل. ولما ذكر موهبته لإبراهيم وتبشيره به، قال: (يَعۡقُوبَ)، وكان أولى من: ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، لأنها موهبة بمعقب آخر، فناسب ذكْر اسم يشعر بالتعقيب. ومنها:

﴿ٱلۡمَسِيحُ﴾[آل عمران: ٤٥]: لقبٌ لعيسى، ومعناه قيل: الصديق. وقيل: الذي

ليس لرجْله أخمص. وقيل: الذي لا يمسح ذا عاهة إلا برئ. وقيل: الجميل.

﴿ إِلْيَاسَ ﴾ [الأنعام: ٨٥] قيل: إنه لقب إدريس. أخرج ابن أبي حاتم بسند حسن، عن ابن مسعود قال: "﴿ إِلْيَاسَ ﴾ هو: ﴿ إِدْرِيسَ ﴾ [مريم: ٥٦]، و﴿ إِسْرَآءِيلَ ﴾ هو: ﴿ يَعْقُوبَ ﴾"، وفي قراءته: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات: ١٢٣]، ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴾ [الصافات: ١٣٠].

ومنها: "ذُو الْكِفْل":

قيل: إنه لقب ﴿ إِلْيَاسَ ﴾. وقيل: لقب "الْيَسَع". وقيل: لقب "يوشع". وقيل: لقب "زكريا".

ومنها:

"ذُو الْقَرْنَيْن": واسمه: إسكندر، وقيل: عبد الله بن الضحاك بن سعد. وقيل: المنذر بن ماء السماء. وقيل غير ذلك...

ولُقبَ ذا القرنين، لأنه بلغ قرنَي الأرض: المشرق والمغرب. وقيل: لأنه ملك فارس والرُّوم.

﴿ فِرْعَوْنَ ﴾ [طه: ٢٤]: واسمه: الوليد بن مصعب، وكنيته: أبو العباس. وقيل: إن فرعون لقب لكل من ملك مصر.

ومنها:

﴿ تُبَّعٍ ﴾: قيل: كان اسمه: أسعد بن ملكي كرب، وسُمِّي "تُبَّعًا" لكثرة مَن تبعه. وقيل: إنه لقب ملوك اليمن، سمّي كل واحد منهم "تُبّعًا" أي: يتبع صاحبه كالخليفة يخلف غيره.

المبهمات

أفرده بالتأليف: السهيلي، ثم ابن عساكر، ثم القاضي بدر الدين بن جماعة.

وللسيوطي فيه تأليف لطيف، جمع فوائد الكتب المذكورة، مع زوائد أخرى، على صغر حجمه جدًّا.

وللإبهام في القرآن أسباب:

الأول: الاستغناء ببيانه في موضع آخر، كقوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [الفاتحة: ٧]، فإنه مبيَّن في قوله تعالى: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النساء: ٦٩].

الثاني: أن يتعيّن لاشتهاره، كقوله تعالى: ﴿ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ [الأعراف: ١٩]، ولم يقل حواء، لأنه ليس له غيرها.

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، والمراد: نمروذ، لشهرة ذلك، لأنه المرسَل إليه. قيل: وقد ذكر الله فرعون في القرآن باسمه.

الثالث: قصد الستر عليه، ليكون أبلغ في استعطافه، نحو قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [البقرة: ٢٠٤] الآية، هو: الأخنس بن شريق، وقد أسلم بعدُ وحسُن إسلامه.

الرابع: ألا يكون في تعيينه كبير فائدة، نحو: ﴿ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، ﴿ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

الخامس: التنبيه على العموم، وأنه غير خاص، بخلاف ما لو عيّن، نحو: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا ﴾ [النساء: ١٠٠].

السادس: تعظيمه بالوصف الكامل دون الاسم، نحو: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ ﴾ [النور: ٢٢]، ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ [الزُّمَر: ٣٣]، ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ ﴾ [التوبة: ٤٠]، والمراد: الصّدّيق في الكلّ.

السابع: تحقيره بالوصف الناقص، نحو: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ [الكوثر: ٣].

ثم إنّ علْم المبهمات مرجعه: النقل المحض، لا مجال للرأي فيه؛ وهو على قسمين:

القسم الأول:

فيما أبهم: من رجل، أو امرأة، أو ملك، أو جني، أو مثنى، أو مجموع عرف أسماء كلهم، أو "من"، أو "الذي"، إذا لم يرد به العموم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠] هو: آدم وزوجه حواء- بالمد-، لأنها خُلقت من حيّ.

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا ﴾ [البقرة: ٧٢]اسمه: عاميل.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [الجمعة: ٢] هو: النبي ﷺ.

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ ﴾ [البقرة: ١٣٢] هم: إسماعيل، وإسحاق، ومدين، وزمران، وسرح، ونفش، ونفشان، وأميم، وكيسان، وسورح، ولوطان، ونافش، والأسباط أولاد يعقوب: اثنا عشر رجلًا: يوسف، وروبيل، وشمعون، ولاوي ويهوذا، ودان، ونفتالي -بفاء ومثناة-، وكاد، ويأشير، وإيشاجر، وريالون، وبنيامين.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ ﴾ [البقرة: ٢٠٤] هو: الأخنس بن شريق.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ﴾ [البقرة: ٢٠٧] هو: صهيب.

﴿ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ﴾ [البقرة: ٢٤٦] هو: شمويل. وقيل: شمعون. وقيل: يوشع.

﴿ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] قال مجاهد: "موسى".

﴿ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، قال: "محمد".

﴿ ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]: نمروذ بن كنعان.

﴿ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ ﴾ [البقرة: ٢٥٩]: عزير. وقيل: أرمياء. وقيل: حزقيل.

﴿ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ ﴾ [آل عمران: ٣٥]: حنة بنت فاقود.

﴿ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞ ﴾ [آل عمران: ٤٠]هي: أشياع، أو أشيع بنت فاقود.

﴿ مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣] هو: محمد ﷺ.

﴿ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [النساء: ٦٠]، قال ابن عباس: "هو: كعب بن الأشرف"، أخرجه أحمد.

﴿ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ [النساء: ٧٢]، هو: عبد الله بن أبيّ.

﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا ﴾ [النساء: ٩٤] هو: عامر بن الأضبط الأشجعي، وقيل: مرداس. والقائل ذلك: نفر من المسلمين، منهم أبو قتادة.

﴿ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا ﴾ [العلق: ٩، ١٠] هو: أبو جهل. والعبد هو: النبي ﷺ.

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ ﴾ [الكوثر: ٣] هو العاصي بن وائل. وقيل: أبو جهل. وقيل: عقبة بن أبي معيط. وقيل: أبو لهب. وقيل: كعب بن الأشرف.

﴿ ٱمۡرَأَتُهُۥ ﴾ [المَسَد: ٤]: امرأة أبي لهب: أم جميل العوراء بنت حرب بن أمية.

القسم الثاني:

في مبهمات الجموع الذين عُرفت أسماء بعضهم.

مثل قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ١١٨]، سمي منهم: رافع بن حرملة.

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ [البقرة: ١٤٢]، سمّي منهم: رفاعة بن قيس، وقردم بن عمر، وكعب بن الأشرف، ورافع بن حرملة، والحجاج بن عمرو، والربيع بن أبي الحقيق.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ ﴾ [البقرة: ١٧٠] الآية، سمّي منهم: رافع، ومالك بن عوف.

﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِ ﴾ [البقرة: ١٨٩]، سمّي منهم: معاذ بن جبل، وثعلبة بن غنم.

﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٥]، سمّي منهم: عمرو بن الجموح.

﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ ﴾ [البقرة: ٢١٩]، سمّي منهم: عمر، ومعاذ، وحمزة.

﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، سمّي منهم: عبد الله بن رواحة.

﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، سمّي منهم: ثابت بن الدحداح، وعبّاد بن بشر، وأسيد بن الحضير -مصغّر-.

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٢٣]، سمّي منهم: النعمان بن عمرو، والحارث بن زيد.

﴿ ٱلۡحَوَارِيُّونَ ﴾ [آل عمران: ٥٢]، سمي منهم: فطرس، ويعقوبس، ويحنس، وأندرايس.

أسماء من نزل فيهم القرآن

قال السيوطي: "رأيت فيهم تأليفًا مفردًا لبعض القدماء، لكنه غير محرّر، وكتاب (أسباب النزول) و(المبهمات) يغنيان عن ذلك.

من أمثلته: ما أخرجه أحمد وغيره، عن سعد بن أبي وقاص قال: "نزلت فيّ أربع آيات: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ [الأنفال: ١]، ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وآية تحريم الخمر، وآية الميراث".

وأخرج ابن أبي حاتم، عن رفاعة القرظي قال: "نزلت: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ﴾ [القصص: ٥١] في عشرة، أنا أحدهم".

إلى هنا، انتهت أقسام البلقيني - رحمه الله- ، وبقي القسم الذي اقترحناه، وهو ما يتعلق بشرف القرآن، ويندرج تحته مما ذكر السيوطي - رحمه الله- أبوابٌ كثيرة، سوف نعرض لبعضها لاحقًا إن شاء الله تعالى.

ما لا يدخله الحصر، وما يتعلق بشرف القرآن

عناصر الدرس

أمثـــال القـــرآن

فقد أفرده بالتصنيف: الإمام أبو الحسن الماوردي. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقد عدّه الشافعي مما يجب على المجتهد معرفتُه من علوم القرآن، فقال: ثم معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدوالّ على طاعته، المبيّنة لاجتناب معصيته.

ضرب الأمثال في القرآن يُستفاد منه أمور كثيرة: التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره بصورة المحسوس؛ فإن الأمثال تصوّر المعاني بصورة الأشخاص، لأنها أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس؛ ومن ثمّ كان الغرض من المثَل تشبيه الخفيّ بالجليّ، والغائب بالشاهد.

وأمثال القرآن قسمان: ظاهر مصرّح به، وكامن لا ذكر للمثَل فيه:

فمن أمثلة الأول: قوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ﴾ [البقرة: ١٧] الآيات، ضرب فيها للمنافقين مثلَيْن: مثلًا بالنار، ومثلًا بالمطر.

وأمّا الكامنة، فقال الماوردي: "سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم يقول: سمعت أبي يقول: سألت الحسين بن الفضل، فقلت: إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن، فهل تجد في كتاب الله: "خير الأمور

أوساطها"؟ قال: نعم. في أربعة مواضع: قوله تعالى: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

أقسام القرآن

وأما أقسام القرآن: فقد أفردها ابن القيم بالتصنيف في مجلد سماه: (التبيان في أقسام القرآن)، وهو مطبوع متداول.

والقصد بالقَسَم: تحقيق الخبر وتوكيده، حتى جعلوا مثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] قسمًا، وإن كان فيه إخبار بشهادة، لأنه لما جاء توكيدًا للخبر سُمّي قسمًا. وقد نزل القرآن بلغة العرب، ومن عادتها القسم إذا أرادت أن تؤكد أمرًا؛ ولا يكون القسَم إلا باسم معظّم. وقد أقسم الله تعالى بنفسه في القرآن في سبعة مواضع.

ومن ذلك: ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ﴾ [يونس: ٥٣].

والباقي كله قسَم بمخلوقاته، كقوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١]، ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ [الصافات: ١]، ﴿وَٱلشَّمْسِ﴾ [الشمس: ١]، ﴿وَٱلَّيْلِ﴾ [الشمس: ٤]، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ [الضحى: ١]، ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥].

فإن قيل: كيف أقسَم بالخلْق، وقد ورد النهي عن القسم بغير الله؟

أجيب عنه بأوجه:

أحدها: أنه على حذف مضاف، أي: وربّ التّين، وربِّ الشمس، وكذا الباقي.

الثاني: إن العرب كانت تعظّم هذه الأشياء، وتُقسم بها، فنزل القرآن على ما يعرفون.

الثالث: أن الأقسام إنما تكون بما يعظّمه المُقسِم أو يُجلّه وهو فوقه، والله تعالى ليس شيء فوقه، فأقسم تارة بنفسه، وتارة بمصنوعاته لأنها تدل على بارئ وصانع.

وهذا الأخير أقوى وأرجح.

جــــدل القــــرآن

أفرده بالتصنيف: نجم الدين الطوفي.

وقد اشتمل القرآن العظيم على جميع أنواع البراهين والأدلة، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحذير يبنى من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله قد نطق به، لكن أورده على عادة العرب دون دقائق طرق المتكلمين.

وزعم الجاحظ: أنّ المذهب الكلامي لا يوجد منه شيء في القرآن. وردّ عليه بأنه مشحون به. وتعريف المذهب الكلامي أنه: احتجاج المتكلم على ما يريد إثباته، بحجة تقطع المعاند له فيه.

ومنه نوع منطقيّ تستنتج منه النتائج الصحيحة من المقدّمات الصادقة؛ فإن الإسلاميين من أهل هذا العلم ذكروا: أنّ مِن أول سورة (الحج) إلى قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [الحج: ٧]: خمس نتائج تُستنتج من عشر مقدّمات. ثم ذكر تفصيل ذلك.

ومن الأنواع المصطلح عليها في علم الجدل: السّبْر والتقسيم. ومن أمثلته في القرآن: قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣] الآيتين؛ فإن الكفار لما حرّموا ذكور الأنعام تارة وإناثها أخرى، ردّ تعالى ذلك عليهم بطريق السبر والتقسيم، فقال: إن الخلق لله، خلَق من كل زوج مما ذكر، ذكرًا وأنثى؛ فممّ جاء تحريم ما ذكرتم؟ أي: ما علّته؟ لا يخلو إما أن يكون من جهة الذكورة، أو الأنوثة، أو اشتمال الرحم الشامل لهما، أو لا يدرى له علة؛ وهو التعبدي بأن أخذ ذلك عن الله تعالى. والأخذ عن الله تعالى: إما بوحي وإرسال رسول، أو سماع كلامه ومشاهدة تلقي ذلك عنه؛ وهو معنى قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٤٤]. فهذه وجوه التحريم لا تخرج عن واحد منها.

والأول: يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حرامًا. والثاني: يلزم عليه أن يكون جميع الإناث حرامًا. والثالث: يلزم عليه تحريم الصنفين معًا. فبطل ما فعلوه من تحريم بعض في حالة، وبعض في حالة، لأن العلة على ما ذكر تقتضي إطلاق التحريم، والأخذ عن الله بلا واسطة باطل ولم يدّعوه، وبواسطة رسول كذلك، لأنه لم يأت إليهم رسول قبل النبي ﷺ. وإذا بطل جميع ذلك، ثبت المدّعَى وهو: أن ما قالوه افتراء على الله وضلال.

ومنها: القول بالموجب.

ومنها: التسليم.

ومنها: الإسجال.

ومنها: الانتقال.

ومنها: المناقضة، وغير ذلك مما هو مذكور في موضعه، مع أمثلته من القرآن.

ما يتعلق بشرف القرآن

والآن، أيها الطالب الكريم، نشرع في القسم الذي اقترحنا إضافته إلى أقسام البلقيني، وهو: ما يتعلق بشرف القرآن. وهو أنواع، فمن ذلك: أسماؤه، وأسماء سوَره، وجمْعه، وكتابته، وترتيبه، وخواصّه، وآداب حامله وتاليه، وفضائله العامة، وفضائل سوَره، وفضل حفّاظه وقارئيه.

وقد ذكر السيوطي من ذلك أبوابًا في:

١. معرفة أسمائه وأسماء سوَره .
٢. وفي جمْعه وترتيبه.
٣. وفي عدد سوَره وآياته وكلماته وحروفه .
٤. وفي آداب تلاوته .
٥. وفي كيفية تحمّله .
٦. في فضائل القرآن .
٧. وفي أفضل القرآن وفاضله .
٨. وفي خواصّه.
٩. وفي رسوم الخط وآداب كتابته .
١٠. وفي إعجاز القرآن .

معرفة أسمائه وأسماء سوره

قال الجاحظ: "سمّى الله كتابه اسمًا مخالفًا لما سمّى العرب كلامهم على الجملة والتفصيل. فسمّى جملته "قرآنًا" كما سمّوا "ديوانًا"، وبعضه "سورة" كـ"قصيدة"، وبعضها "آية" كـ"البيت"، وآخرها "فاصلة" كـ"قافية".

وقال الإمام أبو المعالي عزيزي بن عبد الملك المعروف بشيذلة، في كتاب (البرهان): "اعلم أن الله سمّى القرآن بخمسة وخمسين اسمًا":

سماه: كتابًا ومبينًا، في قوله: ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [الزُّخرُف: ١، ٢].

وقرآنًا وكريمًا، في قوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ [الواقعة: ٧٧].

وكلامًا، في قوله: ﴿ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦].

ونورًا، في قوله: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤].

وهدى ورحمة، في قوله: ﴿ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل: ٧٧].

وفرقانًا، في قوله: ﴿ نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ [الفرقان: ١]..." إلى آخر كلامه.

ولا يسلّم ذلك له؛ فجلّ ما ذكره إنما هو أوصاف لا أسماء.

والسُّورة تُهمز ولا تهمز.

فمَن همزها جعلها من: "أسأرت" أي: أفضلت، من: السؤر وهو: ما بقي من الشراب في الإناء، كأنها قطعة من القرآن.

ومن لم يهمزها، فمن باب تسهيل الهمز.

وقيل: من سُور البناء، لارتفاع منزلتها كارتفاعه، أو لأنها كالقطعة من القرآن كما يُبنى السُّور منزلة فوق منزلة. وقيل غير ذلك...

قال السيوطي: وقد ثبت جميع أسماء السوَر بالتوقيف، من الأحاديث والآثار.
وقد يكون للسورة اسم واحد، وهو كثير. وقد يكون لها اسمان فأكثر من ذلك.
ومن ذلك: (الفاتحة)، فلها أسماء كثيرة منها:
(فاتحة الكتاب)، و(أم الكتاب)، و(أم القرآن)، و(السبع المثاني)، وغير ذلك...
و(المائدة) تسمى أيضًا: (العقود)، و(الأنفال): (بدر)، و(براءة): (التوبة).
وينبغي النظر في اختصاص كل سورة بما سُميت به. وقد اهتم أهل العلم بذلك؛ وهناك مباحث تتعلق بهذا الأمر. كما توجد مباحث تتعلق بإعراب أسماء السَور، تُنظر في موضعها.

جمعه وترتيبه

قال الخطابي: "إنما لم يجمع ﷺ القرآن في المصحف، لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته، ألهم الله الخلفاءَ الراشدين ذلك، وفاءً بوعده الصادق بضمان حِفظه على هذه الأمة؛ فكان ابتداء ذلك على يد الصّدّيق بمشورة عمر".

وقد كان القرآن كُتب كلّه في عهد رسول الله ﷺ، لكن غير مجموع في موضع واحد، ولا مرتّب السوّر.

وقال الحاكم: جُمع القرآن ثلاث مرات:

الجمع الأول: بحضرة النبي ﷺ.

الجمع الثاني: بحضرة أبي بكر الصّدّيق.

روى البخاري في (صحيحه) عن زيد بن ثابت، قال: "أرسل إليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده. فقال أبو بكر: إن عمر أتاني، فقال: إن القتل قد استحرّ بقرّاء القرآن، وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالقرّاء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن؛ وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. فقلت لعمر: كيف تفعل شيئًا لم يفعلْه رسول الله ﷺ؟ قال عمر: وهو والله خير. فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر.

قال زيد: قال أبو بكر: إنك شاب عاقل، لا نتّهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ؛ فتتبّع القرآن فاجْمعه. فوالله لو كلّفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمْع القرآن. قلت: كيف تفعلان شيئًا لم يفعلْه رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير. فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح به صدر أبي بكر وعمر.

فتتبّعتُ القرآن أجمعُه من العسب، واللخاف، وصدور الرجال. ووجدت آخر سورة (التوبة) مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع غيره: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، حتى خاتمة (براءة). فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر.

الجمع الثالث: ترتيب السوَر في زمن عثمان. روى البخاري عن أنس: "أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح إرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافُهم في القراءة، فقال لعثمان: أدرِك الأمّة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل إلى حفصة: أن أرسلي إلينا الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردّها إليك. فأرسلت بها حفصة".

قال أبو حاتم السجستاني: كتب سبعة مصاحف، فأرسل إلى مكة، وإلى الشام، وإلى اليمن، وإلى البحرين، وإلى البصرة، وإلى الكوفة. وحبس بالمدينة واحدًا.

وأما ترتيب الآيات: فالإجماع، والنصوص المترادفة على أن ترتيبها توقيفي، لا شبهة في ذلك.

وقد نقل الإجماع غير واحد، منهم: الزركشي.

وأما النصوص فكثيرة، ذكرها السيوطي - رحمه الله- .

وقال ابن الحصار: "ترتيب السوَر، ووضْع الآيات مواضعها، إنما كان بالوحي. كان رسول الله ﷺ يقول: ((ضعوا آية كذا في موضع كذا)). وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله ﷺ، ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف".

وأما ترتيب السوَر، فهل هو توقيفي أيضًا، أو هو باجتهاد من الصحابة؟ فيه خلاف؛ فجمهور العلماء على الثاني.

وقال الكرماني: "ترتيب السور هكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب، وعليه كان ﷺ يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه. وعرضه عليه في السنة التي توفي فيها مرتيْن. وكان آخر الآيات نزولًا: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، فأمره جبريل أن يضعها بين آيتي الربا والدّيْن".

وقال أبو جعفر النحاس: "المختار: أن تأليف السوَر على هذا الترتيب من رسول الله ﷺ، لحديث واثلة: ((أعطيت مكان التوراة السبع الطوال)) الحديث".

قال: "فهذا الحديث يدل على: أن تأليف القرآن مأخوذ عن النبي ﷺ، وأنه من ذلك الوقت. وإنما جمع في المصحف على شيء واحد، لأنه قد جاء هذا الحديث بلفظ رسول الله ﷺ على تأليف القرآن".

وهناك أدلة أخرى تؤيد هذا القول وهو أرجح، والله أعلم.

أما (السّبْع الطوال): فأوّلها (البقرة)، وآخرها (يونس)، وليس فيها (الأنفال) و(التوبة).

و(المئون): ما وليَها؛ سُميت بذلك، لأن كلّ سورة منها تزيد على مائة آية أو تقاربها.

و(المثاني): ما ولي (المئين)، لأنها ثنّتها أي كانت بعدها.

و(المفصَّل): ما ولي (المثاني) من قصار السوَر. سُمّي بذلك لكثرة الفصول التي بين السوَر بالبسملة، وقيل: لقلة المنسوخ منه. واختلف في أوّله على اثني عشر قولًا، أرجحها: (ق)، للحديث الوارد في ذلك.

عدد سوَره، وآياته، وكلماته، وحروفه

أما سوَره:

فمائة وأربع عشرة سورة، بإجماع من يعتدّ به. وقيل: وثلاث عشرة، بجعل (الأنفال) و(براءة) سورة واحدة.

والفائدة في تفصيل القرآن وتقطيعه سورًا كثيرة، منها:

أن القارئ إذا ختم سورة أو بابًا من الكتاب ثم أخذ في آخر، كان أنشط له وأبعث على التحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله.

وأما عدّ الآي:

فأفرده جماعة من القراء بالتصنيف، ونظمه من المتأخرين: الشيخ عبد الفتاح القاضي - رحمه الله- .

قال الزمخشري: "الآيات علم توقيفي، لا مجال للقياس فيه، ولذلك عدّوا ﴿الٓمٓ﴾ [البقرة: ١] آية حيث وقعت، و﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف: ١]. ولم يعدّوا ﴿الٓمٓر﴾ [الرعد: ١] و﴿الٓر﴾ [يونس: ١]. وعدّوا ﴿حمٓ﴾ [الأحقاف: ١] آية في سوَرها، و﴿طه﴾ [طه: ١] و﴿يسٓ﴾ [يس: ١]، ولم يعدّوا ﴿طسٓ﴾ [النمل: ١].

وقد ذكر السيوطي أدلة تؤيد ذلك، تنظَر.

قال بعضهم: سبب اختلاف السلف في عدد الآي: أن النبي ﷺ كان يقف على رءوس الآي للتوقيف، فإذا علم محلّها وصل للتمام، فيحسب السامع حينئذ أنها ليست فاصلة.

قال الداني: "أجمعوا على: أن عدد آيات القرآن: ستة آلاف آية. ثم اختلفوا فيما زاد على ذلك؛ فمنهم من لم يزد، ومنهم من قال: ومائتا آية وأربع آيات. وقيل: وأربع عشرة. وقيل: وتسع عشرة. وقيل: وخمس وعشرون. وقيل: وست وثلاثون".

يترتب على معرفة الآي وعدّها وفواصلها أحكام فقهية:

نذكر منها على سبيل المثال:

اعتبارها فيمن جهل (الفاتحة)، فإنه يجب عليه بدَلها سبع آيات.

أما كلمات القرآن:

فعدَّها قوم سبعة وسبعين ألف كلمة وتسعمائة وأربعًا وثلاثين كلمة، وقيل غير ذلك...

وسبب الاختلاف في عدّ الكلمات: أن الكلمة لها حقيقة ومجاز، ولفظ ورسم، واعتبار كل منها جائز، وكل من العلماء اعتبر أحد ذلك.

وأما عدّ حروفه:

فالخلاف فيه كبير، وقال السيوطي: "الاشتغال باستيعاب ذلك مما لا طائل تحته".

وقال السخاوي: "لا أعلم لعدد الكلمات والحروف من فائدة، لأن ذلك إن أفاد فإنما يفيد في كتاب يمكن فيه الزيادة والنقصان، والقرآن لا يمكن فيه ذلك.

مرسوم الخطّ، وآداب كتابته

أفرده بالتصنيف خلائق من المتقدمين والمتأخِّرين، منهم: أبو عمرو الداني.

وألّف في توجيه ما خالف قواعد الخط منه: أبو العباس المراكشي كتابًا سماه: (عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل)، بَيَّن فيه أن هذه الأحرف إنما اختلف حالها في الخط، بحسب اختلاف أحوال معاني كلماتها.

قال ابن فارس: "الذي نقوله: إن الخط توقيفي، لقوله تعالى: ﴿ عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ٤، ٥]، ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم: ١]. وإن هذه الحروف داخلة في الأسماء التي علّم الله آدم".

قال السيوطي: "وقد ورد في أمر "أبي جاد" ومبتدأ الكتابة أخبار كثيرة ليس هذا محلها، وقد بسطتها في تأليف مفرد".

وقال الإمام أحمد: "يحرم مخالفة مصحف الإمام، في واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك...".

وقال البيهقي في (شُعب الإيمان): "مَن كتب مصحفًا فينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به هذه المصاحف، ولا يخالفهم فيه، ولا يغيّر مما كتبوه شيئًا؛ فإنهم كانوا أكثر علمًا، وأصدق قلبًا ولسانًا، وأعظم أمانة منا؛ فلا ينبغي أن يظن بأنفسنا استدراكًا عليهم".

وينحصر أمر الرسم في: الحذف، والزيادة، والهمز، والبدل، والفصل، وما فيه قراءتان فكتبت إحداهما؛ وتفصيل ذلك في محلّه.

ويستحب كتابة المصحف، وتحسين كتابته، وتبيينها وإيضاحها، وتحقيق الخط دون مشقة.

وتعليقه فيُكره، وكذا كتابته في الشيء الصغير.

وأخرج أبو عبيد في فضائله عن عمر: أنه وجد مع رجل مصحفًا قد كتبه بقلم دقيق، فكرِه ذلك وضربه، وقال: "عظِّموا كتاب الله".

وأخرج عبد الرزاق عن علي: أنه كان يكره أن تُتّخذ المصاحف صغارًا.

وتحرم كتابته بشيء نجس، وأمّا بالذهب فهو حسن.

وتكره كتابته على الحيطان والجدران، وعلى السقوف أشد كراهة.

وهناك أحكام تتعلق بنقطه وشكله، وأخذ الأجرة على كتابته، وبيعه وشرائه، وتحليته بالذهب والفضة، والقيام له وتقبيله وتطييبه، إلى غير ذلك...

إعجاز القرآن

أفرده بالتصنيف خلائق، منهم: الخطابي، والرماني. وأشهر ما صنِّف فيه: كتاب (إعجاز القرآن) للقاضي أبي بكر الباقلاني؛ قال ابن العربي: "لم يصنَّف مثله". وهو مطبوع متداول.

و"المعجزة": أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة.

وهي: إمّا حِسِّيّة، وإمّا عقلية.

وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسّية، لبلادتهم وقلة بصيرتهم.

وأكثر معجزات هذه الأمّة عقلية، لفرط ذكائهم، وكمال أفهامهم، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة، خُصّت بالمعجزة العقلية الباقية، ليراها ذوو البصائر كما قال ﷺ: ((ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيتُه وحيًا أوحاه الله إليّ؛ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا))، أخرجه البخاري.

وقد تحدّى الله العرب- وهم أهل الفصاحة والبلاغة- أن يأتوا بمثله، وأمهلهم طول السنين، فلم يقدروا، كما قال تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٤]. ثم تحدّاهم بعشر سوَر منه، في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٣ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾ [هود: ١٣]. ثم تحداهم بسورة في قوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ الآية. ثم كرر في قوله: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٣] الآية.

فلما عجزوا عن معارضته والإتيان بسورة تشبهه- على كثرة الخطباء فيهم والبلغاء- نادى عليهم بإظهار العجز، وإعجاز القرآن، فقال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]. هذا، وهم الفصحاء اللد، وقد كانوا أحرص شيء على إطفاء نوره وإخفاء أمره، فلو كان في مقدرتهم معارضته لعدلوا إليها قطعًا للحجة.

وقد زعم النّظّام: أن إعجازه بالصّرفة، أي: أن الله صرف العرب عن معارضته، وسلب عقولهم، وكان مقدورًا لهم لكن عاقهم أمر خارجي، فصار كسائر المعجزات.

وقد بيّن فساد هذا القول غير واحد بعدّة أوجه، منها:

قوله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ ﴾ الآية؛ فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سُلبوا القدرة لم يبق فائدة لاجتماعهم.

ومنها: أنه لو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفة، لم يكن الكلام معجزًا، وإنما يكون بالمنع معجزًا فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه.

ومنها: شهادة العرب أنفسهم له بأنه معجز لا يشبه كلام البشر، كما ثبت في غير رواية.

وقيل غير ذلك...

وأما وجوه إعجازه فمن ذلك:

ما فيه من الإخبار عن الغيوب المستقبلة.

ومنها: الإخبار عن قصص الأوّلين وسائر المتقدمين، حكاية من شاهدها وحضَرها.

ومنها: الإخبار عما في الضمائر من غير أن يظهر ذلك بقول أو فعل.

ومنها: ما فيه من النّظم والتأليف والترصيف، وحسن البيان.

ومنها: كونه خارجًا عن جنس كلام العرب من النظم والنثر والخطب والشِّعر، مع كون حروفه في كلامهم.

ومنها: كون قارئه لا يكلّ، وسامعه لا يملّ، وإن تكررت عليه تلاوته.

ومنها: شمولية أحكامه، وكونه جامعًا لعلوم يطول شرحها ويشق حصرها.

ومنها: صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس، من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في حال آخر.

وغير ذلك مما ذكره أهل العلم...

وزاد في العصور الأخيرة ما يسمّى بالإعجاز العلْمي، والإعجاز العددي، وغيره...

واختلف في قدْر المعجز من القرآن، والمختار: أنه سورة قصيرة، أو ما يقوم مقامها من الآيات.

ويلاحظ أن السيوطي قد أدرج في علوم القرآن: ما يتعلّق بعلم التفسير كعلْم مستقل، فذكر بابًا في معرفة تأويله وتفسيره، وبيان شرفه والحاجة إليه، وآخر في شروط المفسّر وآدابه، وثالثًا في غرائب التفسير، وأخيرًا في طبقات المفسرين.

وتفصيل ذلك في علوم القرآن، يجعل علم التفسير بشموليته جزءًا من هذه العلوم، واستقلاليته عنها أولى. والله أعلم.

كما أدرج فيه بعض العلوم المستنبطة من القرآن، وقد سبق تعليق الزرقاني على ذلك، وذكر فيه ما حواه من فنون العلم التي نهلت كل طائفة منها ما يناسبها، وذكر فيه احتواءه على أنواع الصناعات وعلوم الأوائل، مثل: الطب، والجدل، والهيئة، والهندسة، والجبر، والمقابلة، والنجامة، وغير ذلك...

ونقل عن بعضهم قوله: ما من شيء إلا يمكن استخراجه من القرآن، لمن فهّمه الله؛ حتى أن بعضهم استنبط عمُر النبي ﷺ ثلاثًا وستين سنة، من قوله في سورة المنافقين: ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾ [المنافقون: ١١]، فإنها رأس ثلاث وستين سورة، وعقبها بـ(التغابن)، ليظهر التغابن في فقْده.

فضائل القرآن، فضائل السور والآيات (١)

عناصر الدرس

مقدمة

حديثنا سيكون أوّل حديث تفصيلي عن بعض علوم القرآن وهو عن: فضائل القرآن. وهو علْم مهم من أجلّ العلوم؛ لارتباطه بكتاب الله ﷻ ارتباطًا وثيقًا.

ومن ميزاته: أنه يرغّب في تلاوة كتاب الله، ويحثّ على حفظه، والعمل به؛ ولذا دخل الوضّاعون من هذا الباب، فوضعوا له الأحاديث لترغيب الناس وشغلهم بالقرآن.

وهو يوجِّه المسلم إلى السلاح الذي يحارب به الشيطان، ويعينه على مجابهة من أراد به الضر من الجان.

ويلفت نظر المسلم إلى التداوي بكتاب الله من الأمراض الجسدية، كما أنه شفاء من الأمراض النفسية.

ويعلم المسلم مدى منزلة النبي ﷺ، ومدى كرامة هذه الأمة على ربها حيث اختصهم بهذا الكتاب العظيم.

وأوّل من صنف في هذا العلم: الشافعي - رحمه الله- ، في كتاب سماه: (منافع القرآن).

ثم أكثر العلماء من التصنيف في ذلك باسم: (فضائل القرآن)، أو (ثواب القرآن).

ومنهم: أبو عبيد القاسم بن سلام، وابن زنجويه، وابن الضريس، وابن أبي شيبة، والفريابي، والنسائي، وغيرهم كثير... وقد طبع جلّ هذه الكتب وتداولها الناس.

وكثير ممن صنف في فضائل القرآن لا يقتصر في كتابه على فضائل السوَر والآيات، وإنما يكون تصنيفه شاملًا لما يتعلق بهذا العلم.

كما صنف في فضائل بعض السوَر على وجه الخصوص: الحافظ أبو نعيم، في فضل سورة (الإخلاص). وتلاه الحافظ أبو محمد الخلال في نفس السورة، وقد

طبع كتابه بتحقيقي. وصنّف السيوطي في فضائل سورتَي (القدر) و(الإخلاص). وصنّف تلميذه الحسيني في فضل سورة (الإخلاص) كذلك.

كما أفرد بعض أهل العلم لذلك أبوابًا في كتبهم، ويظهر ذلك في كتب التفسير المسندة، وكتب الحديث.

وقد منّ الله عليَّ بتأليف كتاب جامع في هذا الفن، إلا أنه مقتصر على فضائل السوَر والآيات، وسمّيته: (موسوعة فضائل سوَر وآيات القرآن)، وهو مرجع مهم لمن رام الاطلاع في هذا الفن، وطُبع منه مجلدان في الأحاديث الثابتة. وأمّا قسم الضعيف والموضوع، فلم يُطبع بعد. وقد اختصرت القسم الثابت في كتيّب صغير سمّيته: (الأحاديث الثابتة في فضائل سوَر وآيات القرآن)، وهو مطبوع متداول.

وفضائل القرآن تنقسم إلى قسمين: ويندرج تحته أمور، منها:

الأول: فضله بصفة شاملة، وفضل حملَته، فضل آياته وسوَره دون تعيين.

والثاني: فضل سوَر وآيات مخصوصة؛ ويندرج تحته بعض أنواع العلوم التي أفردها السيوطي، ومن ذلك ما سماه: (مفردات القرآن) وهو: غير الغريب، وما سماه: (خواص القرآن)

فضله إجمالًا

فمن أعظم فضائل القرآن: أنه الآية العظمى، والمعجزة الكبرى الدالة على رسالة النبي ﷺ التي تحدّى بها الإنس والجن، فقال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وروى البخاري ومسلم وغيرهما، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: ((ما من الأنبياء نبيّ

إلا أُعطِيَ من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيتُ وحيًا أوحاه الله إليَّ؛ فأرجو أن أكون أكثرَهم تابعًا يوم القيامة)).

ومن فضائل القرآن العظيمة: نزول السكينة على مَن يقرؤه، وغشيان الرحمة له، والتفاف الملائكة حوله، وذكْر الله له في الملإ الأعلى، لما رواه مسلم، عن أبي هريرة مرفوعًا: ((ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه فيما بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيَتْهم الرحمة، وحفّتهم الملائكة، وذكَرهم الله فيمن عنده)).

وأخرج مسلم، من حديث جابر بن عبد الله مرفوعًا: ((فإن خيرَ الحديث كتابُ الله...))، وذلك في خطبته ﷺ.

وأخرج الشيخان، من حديث أبي موسى مرفوعًا: ((مثَل المؤمن الذي يقرأ القرآن، مثل الأترجّة: طعمها طيّب، وريحها طيّب. ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن، كمثل التمرة: طعمها طيّب، ولا ريح لها. ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن، كمثل الريحانة: ريحها طيّب، وطعمها مُرّ. ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن، كمثل الحنظلة: طعمها مُرّ، ولا ريح لها)).

قال ابن كثير: "إن طيب الرائحة دارَ مع القرآن وجودًا وعدمًا؛ فدلّ على شرفه على ما سواه من الكلام الصادر من البَر والفاجر".

كما أن الله تعالى جعل القرآن شفاء، فقال ﷻ: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فُصِّلَت: ٤٤]، ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧].

وأخرج ابن ماجه وغيره، من حديث ابن مسعود مرفوعًا: ((عليكم بالشفاءيْن: العسل والقرآن)). وهو حديث حسن.

وأخرج أيضًا من حديث علي: ((خيرُ الدواء القرآن)).

وأخرج البيهقي في (الشُّعب) عن واثلة بن الأسقع: أن رجلًا شكا إلى النبي ﷺ وجعَ حلْقه، قال: ((عليك بقراءة القرآن)).

وأخرج ابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أشتكي صدري. قال: ((اقرأ القرآن))، لقول الله تعالى: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ .

وهذه الأحاديث -على ما فيها من ضعف- إلاّ أنه لها ما يشهد لمعناها في فضائل السوَر والآيات، خاصة في فضل (الفاتحة).

قال النووي في (شرح المهذب): "لو كتب القرآن في إناء، ثم غسله، وسقاه المريض، فقال الحسن البصري، ومجاهد، وأبو قلابة، والأوزاعي: لا بأس به. وكرهه النخعي". قال: "ومقتضى مذهبنا: أنه لا بأس به. فقد قال القاضي حسين، والبغوي، وغيرهما: لو كتب على حلوى وطعام، فلا بأس بأكله". انتهى.

وقد ورد جواز شرب الماء المقروء فيه القرآن في فضل (المعوِّذات)، وعن جعفر الصادق جواز ذلك في فضائل آية الكرسي.

وأخرج أحمد وغيره، من حديث عقبة بن عامر مرفوعًا: ((لو كان القرآن في إهاب ما أكلته النار)).

قال أبو عبيد: "أراد بالإهاب: قلب المؤمن، وجوفه الذي قد وعى القرآن".

وقال المناوي: ((لو كان القرآن في إهاب ما أكلته النار)). وفي رواية: ((ما مسته النار))؛ أي: لو صوّر القرآن وجُعل في إهاب وأُلقي في النار، ما مسّته ولا أحرقته ببركته. فكيف بالمؤمن المواظب لقراءته ولتلاوته؟. واللام في "النار" للجنس، والأوْلى جعلها للعهد. والمراد بها: نار جهنم، أو النار التي تطّلع على الأفئدة، أو النار التي وقودها الناس والحجارة. ذكَره القاضي.

وأخرج ابن أبي شيبة، من حديث أبي شريح الخزاعي: ((أن هذا القرآن سبب: طرفه بيد الله، وطرَفه بأيديكم؛ فتمسّكوا به، فإنكم لن تضلّوا ولن تهلكوا بعده أبدًا)).

كما أن ما ورد في فضل أمّة الإسلام، يمكن أن يُدرج في فضل هذا القرآن العظيم، حيث قال ابن كثير، بعد أن ذكر حديثًا من ذلك الباب: "وإنما فازوا بهذا ببركة الكتاب العظيم؛ القرآن الذي شرّفه الله على كل كتاب أنزله، وجعله مهيمنًا عليه، وناسخًا له، وخاتمًا له".

ولكننا لن نطيل بذكر هذه الأحاديث، ويكفي من ذلك الإشارة.

فضائل حمَلة القرآن

ومن فضائل حمَلة القرآن: ما رواه مسلم في (صحيحه)، عن عامر بن واثلة: "أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بعسفان، وكان عمر يستعمله على مكة، فقال: مَن استعملت على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزى. قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا. قال: فاستخلفت عليهم مولى؟! قال: إنه قارئ لكتاب الله ﷻ، وإنه عالم بالفرائض. قال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: ((إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا، ويضع به آخرين))".

ومن ذلك: تقديم النبي ﷺ الأحفظ لكتاب الله، في ثلاثة أمور:

في الإمارة، كما في فضل سورة (البقرة). فقد قدّم أحفظهم على الرغم من صغر سنه، كما سيأتي ذكره. وقد تقدم الحديث في ولاية ابن أبزى.

وفي الإمامة في الصلاة، حيث قال: ((يؤم القومَ أقرؤُهم لكتاب الله)).

وفي الدفن، حيث قال في قتلى أحد: ((وقدِّموا أكثرَهم قرآنًا)).

ومن فضائل حامل القرآن وتاليه:

أن الله يستمع له استماعًا خاصًا يليق بجلاله؛ ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما، عن أبي هريرة قال: ((ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنّى بالقرآن)).

وقوله: ((ما أَذِن))، يعني: ما استمع. ويتغنَى أي: يجهر به بصوت جميل حسن.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٩].

وروى البخاري وغيره، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: ((لا حسَد إلا في اثنتين: رجل علّمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، فسمعه جار له فقال: ياليتني أوتيتُ ما أوتي فلان، فعملتُ مثل ما عمل! ورجل آتاه الله مالًا فهو يُهلكه في الحق، فقال رجل: ليتني أوتيتُ مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل!)).

وروى البخاري وغيره أيضًا، من حديث عثمان، عن النبي ﷺ قال: ((خيركم -وفي لفظ: - إن أفضلكم- مَن تعلّم القرآن وعلّمه)).

قال ابن كثير: "وهذه صفات المؤمنين المتّبعين للرسل، وهم الكمّل في أنفسهم المكمِّلون لغيرهم".

وأخرج الشيخان وغيرهما، من حديث عائشة: ((الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة. والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران)).

وأخرج الطبراني في (الصغير)، من حديث أنس: ((من قرأ القرآن يقوم به آناء الليل والنهار، يُحلّ حلالَه ويُحرّم حرامَه، حرّم الله لحمَه ودمَه على النار، وجعَلَه رفيق السفرة الكرام البررة. حتى إذا كان يوم القيامة كان القرآن حجّة له)).

وأخرج أحمد من حديث معاذ بن أنس: ((مَن قرأ القرآن في سبيل الله، كُتب مع الصديقين والشهداء والصالحين، وحَسن أولئك رفيقًا)).

ومِن ذلك: ما أخرجه أحمد وغيره بإسناد حسن، عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا: ((يُقال لصاحب القرآن: اقرأ وارْقَ، ورتِّلْ كما كنت ترتل في الدنيا؛ فإنّ منزلتك عند آخر آية تقرؤها)).

وروى أحمد والترمذي والحاكم، وغيرهم، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الرجل الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب)).

قال الترمذي: "حسن صحيح". وصححه الحاكم. وهو حسن لشواهده.

والقرآن يشفع لصاحبه يوم القيامة وقد وردت في ذلك أحاديث منها:

ما رواه أحمد والحاكم وغيرهما، عن عبد الله بن عمرو: أن النبي ﷺ قال: ((الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة. يقول الصيام: أي ربّ! منعتُه الطعام والشهوات بالنهار فشفِّعْني فيه. ويقول القرآن: منعته النوم بالليل، فشفِّعْني فيه. فيشفعان)).

وهو حديث حسن، وقال الحاكم: "على شرط مسلم"، وسكت الذهبي.

بل إنه قد وردت أحاديث في فضل حامل القرآن، وإن لم يعقله، أو يقم به؛ ومن ذلك ما رواه الترمذي وغيره، عن أبي هريرة قال: ((بعث رسول الله ﷺ بعثًا وهم ذوو عدد، فاستقرأهم. فاستقرأ كل واحد منهم –يعني: ما معه من القرآن-. فأتى على رجل مِن أحدثهم سنًا، فقال: ما معك يا فلان؟ فقال: معي كذا وكذا، وسورة (البقرة). فقال: أمعك سورة (البقرة)؟ قال: نعم. قال: اذهب، فأنت أميرهم. فقال رجل من أشرافهم: والله ما منعني أن أتعلم سورة (البقرة) إلا أني خشيت أن لا أقوم بها. فقال رسول الله ﷺ: تعلّموا القرآن فاقرؤوه، وأقرِئوه؛ فإن مثَل القرآن لمن تعلّمه فقرأه وقام به، كمثَل جراب محشو مسكًا، يفوح ريحه في كل مكان. ومثل مَن تعلّمه، فيرقد وهو في جوفه، كمثل جراب أُوكِيَ على مسك)).

هذا لفظ رواية الترمذي، ثم قال: "هذا حديث حسن".

وأخرج الطبراني والحاكم وغيرهما، من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا، قال: ((من قرأ القرآن فكأنما استُدرجت النبوة بين جنبيه، غير أنه لا يوحى إليه. ومن قرأ القرآن فرأى أن أحدًا أُعطي أفضل مما أُعطي، فقد عظّم ما صغّر الله، وصغّر ما عظّم الله. وليس ينبغي لحامل القرآن أن يَسفه فيمن يسفه، أو يغضب فيمن يغضب، أو يحتدّ فيمن يحتدّ؛ ولكن يعفو ويصفح، لفضل القرآن)).

وفي لفظ: ((ولا يجهل مع من يجهل، وفي جوفه كلام الله)).

وفي إسناده ضعف، ورواه البيهقي موقوفًا على عبد الله، بإسناد رجاله ثقات.

وأخرج الطبراني في الأوسط، من حديث أبي هريرة: ((ما من رجل يعلِّم ولَده القرآن، إلاّ تُوِّجَ يوم القيامة بتاج في الجنة)).

وأخرج الترمذي، وابن ماجه، وأحمد، من حديث علي: ((من قرأ القرآن فاستظهره، فأحلّ حلاله، وحَرّم حرامه، أدخله الله الجنة، وشفّعه في عشرة من أهل بيته، كلّهم قد وجبت لهم النار)).

وأخرج الطبراني من حديث ابن عمر: ((ثلاثة لا يهولهم الفزع الأكبر، ولا ينالهم الحساب، هم على كثيب من مسك حتى يفرغ من حساب الخلائق: رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله، وأمّ به قومًا وهم به راضون)) الحديث.

وأخرج الطبراني في الأوسط، من حديث جابر: ((من جمع القرآن، كانت له عند الله دعوة مستجابة؛ إن شاء عجّلها في الدنيا، وإن شاء ادّخرها في الآخرة)).

وأخرج الطبراني، من حديث ابن عباس: ((مَن تعلّم كتاب الله، ثم اتّبع ما فيه، هداه الله به من الضلالة، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب)).

وأخرج الديلمي، من حديث عليّ: ((حملة القرآن في ظل الله، يوم لا ظل إلا ظله)).

وأما فضل قراءته، وقراءة آياته، فقد وردت فيه أحاديث عدّة، منها:

وأخرج مسلم، وغيره من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: ((أيحبّ أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد فيه ثلاث خلفات عظام سمان؟ قلنا: نعم. قال: فثلاث آيات يقرأ بهن أحدكم في صلاته خير له من ثلاث خلفات عظام سمان)).

وأخرج أحمد، والترمذي، من حديث شداد بن أوس: ((ما من مسلم يأخذ مضجعه، فيقرأ سورة من كتاب الله تعالى، إلا وكل الله به ملَكًا يحفظه، فلا يقربه شيء يؤذيه حتى يهبّ متى يهبّ)).

وأخرج الطبراني، من حديث أبي أمامة: ((من تعلّم آية من كتاب الله، استقبلته يوم القيامة تضحك في وجهه)).

وفي الباب أحاديث أخرى، إلا أنّ جلّها أسانيده واهية. وفيما ذكرناه كفاية، والحمد لله رب العالمين.

فضائل سورة الفاتحة

نستكمل بعون الله ما بدأناه من حديث عن فضائل القرآن. والآن سنعرض عليكم فضائل وخصائص سورتي الفاتحة والبقرة.

فمما ثبت في سورة (الفاتحة):

أرسل اللهُ ملَكا لم ينزلْ إلى الأرض قط، فنزل من باب من السماء لم يُفتَحْ قطُّ، فأتى النبي ﷺ فبشَّرَه بأنها نورٌ أوتيه لم يؤتَه نبيٌّ قبلَه، وأنه لن يقرأَ بحرفٍ منها إلا أُعطيه:

عن ابن عباسٍ > قال: ((بينما جبريلُ قاعدٌ عند النبي ﷺ سمع نقيضًا من فوقه، فرفع رأسَه، فقال: هذا بابٌ من السماء فُتح اليومَ، لم يُفتح قط إلا اليوم. فنزل منه ملَك فقال: هذا ملَك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم. فسلَّم وقال: أبشِرْ بنورَيْنِ أوتيتَهما لم يُؤتَهما نبيٌّ قبلَك؛ فاتحةِ الكتاب وخواتيمِ سورة البقرة، لن تقرأَ بحرفٍ منهما إلا أعطيته)).

أُنزِلَتْ من كنزِ العرشِ:

عن أبي أمامةَ > قال: "أربعُ آياتٍ من كنزِ العرشِ، ليس ينزل منه شيءٌ غيرُهن غيرُ أمِّ الكتابِ، فإنه يقول: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ

حَكِيمٌ ﴾ [الزُّخرُف: ٤]، وآية الكرسي، وخاتمة سورة (البقرة)، و(الكوثر)

رن إبليس حين نزلت:

عن أبي هريرة > قال: "رنَّ إبليسُ حين أُنزلت (فاتحة الكتاب)"

لم يُنْزِلْ اللهُ في التوراةِ، ولا في الإنجيلِ، ولا في الزبورِ، ولا في الفرقانِ، مثلَها، وهي: (السبعُ المثاني) و(القرآنُ العظيمُ):

وفي لفظ: ((وهي (السبع المثاني) التي قال الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحِجر: ٨٧])).

(الحمد لله): (أمّ القرآن)، و(أمّ الكتاب)، و(السبع المثاني)، و(القرآن العظيم):

أعظم سورة في القرآن؛ وهي (السبع المثاني)، و(القرآن العظيم):

وعن أبي سعيدِ بنِ المُعَلّى > قال: ((كنت أصلي في المسجد، فمرّ بي رسول الله ﷺ فدعاني، فلم آته حتى صلّيتُ. ثم أتيته. فقال: ما منعك ألا تأتيَني؟ فقلت: يا رسولَ الله إني كنت أصلي. فقال: ألم يقل اللهُ تبارك وتعالى ﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾؟ ثم قال لي: ألا أعلمك أعظمَ سورة في القرآن قبل أن أخرجَ من المسجد. فذهب رسول الله ﷺ ليخرجَ فذكَّرتُه. -وفي لفظ: ثم أخذ بيدي-. فلما أراد أن يخرج، قلت له: ألم تقل لأعلِّمَنَّك سورة هي أعظم سورة في القرآن قال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]. هي (السبع المثاني)، و(القرآن العظيم) الذي أوتيتُه)).

(الفاتحةُ) أفضلُ القرآنِ:

وعن أنسٍ > قال: ((كان النبيُّ ﷺ في مسيرٍ له، فنزل ونزل رجلٌ إلى جانبه. فالتفت إليه النبي ﷺ فقال: ألا أخبرك بأفضل القرآن؟ قال: فتلا

عليه : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢])).

(الفاتحةُ) خير سورة في القرآنِ :

عن عبدِ الله بنِ جابرٍ < قال : ((انتهيتُ إلى رسولِ الله ﷺ وقد أهراقَ الماءَ فقلتُ : السلام عليك يا رسولَ الله. فلم يردَّ عليَّ، فقلت : السلام عليك يا رسول الله. فلم يردّ عليّ. فقلت : السلام عليك يا رسول الله. فلم يردّ عليّ. فانطلق رسولُ الله يمشي ، وأنا خلفَه حتى دخلَ على رَحْلِه ، ودخلت أنا المسجدَ. فجلست كئيبًا حزينًا ، فخرج رسولُ الله ﷺ وقد تطهر ، فقال : عليك السلامُ ورحمة الله ، وعليك السلام ورحمة الله ، وعليك السلام ورحمة الله. ثم قال : ألا أخبرك يا عبدَ الله بن جابر بخير سورة في القرآن؟ قلت : بلى يا رسول الله. قال : اقرأ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ حتى تختمها))

لا صلاة لمن لم يقرأ بها ، إمامًا أو مأمومًا :

عن عبادةَ بنِ الصامت < قال : ((صلّى بنا النبيُّ ﷺ صلاةَ الصبح ، فثقلت عليه القراءة. فلما انصرف قال : إني لأراكم تقرؤونَ وراءَ إمامِكم. قال : قلنا : أجَل ، والله يا رسولَ الله ، هذًّا. قال : فلا تفعلوا إلا بأمِّ الكتابِ ؛ فإنه لا صلاةَ لمن لم يقرأ بها)).

وعن أبي هريرة < : ((سمع النبيَّ ﷺ يقول : من صلى صلاةً لم يقرأْ فيها بـ(أم الكتاب) فهي خِداجٌ ، غير تمام)).

من انتهى إليها فقد أجزأه :

عن عبدِ الله بن عمرو بن العاص < : أنّ رسولَ الله ﷺ خطب الناسَ فقال : ((من صلى صلاةً مكتوبةً فليقرأْ بـ(أمِّ القرآن) وقرآن معها ، فإذا انتهى إلى (أمّ

الكتاب) فقد أجزأت عنه. ومن كان مع الإمام فليقرأ إذا سكت. ومن صلّى صلاة فلم يقرأ فيها، فهي خداج، فهي خداج -ثلاث مرات-)).

مناجاة بين العبد وربه، وللعبد ما سأل فيها:

عن أبي هريرةَ > قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من صلّى صلاة لم يقرأ فيها بـ(أم القرآن) فهي خداج، هي خداج، هي خداج، غير تمام)). قال: فقلت: يا أبا هريرة إني أحيانًا أكون وراء الإمام. قال: فغمز ذراعي، ثم قال: اقرأ بها في نفسك يا فارسي، فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: ((قال الله تبارك وتعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي، ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل. قال رسول الله ﷺ: اقرؤوا، يقول العبد: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]، يقول الله -تبارك وتعالى-: حمدني عبدي. ويقول العبد: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة: ٣]، يقول الله ﷻ: أثنى عليّ عبدي. ويقول العبد: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٤]، يقول الله ﷻ: مجّدني عبدي. فهذا لي. يقول العبد: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، قال: فهذه الآية بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. يقول العبد: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، هؤلاء لعبدي، ولعبدي ما سأل)).

وفي بعض الطُّرق: ((﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾، وبعدها يقول الله: فَوَّضَ إليَّ عبدي، وبعد قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، أجرُها لعبدي، ولعبدي ما سألَ)) وفي

بعضها: ((يابْن الفارسي)).

الأمرُ بقَوْلِ: "آمينَ" بعدَها، وأنّ الملائكةَ تُؤمِّنُ مع المؤمنينَ، وأنّ من وافَقَ تأمينَهم غُفِرَ له ما تقدَّمَ من ذنبه:

عن أبي هريرة > : أن النبي ﷺ قال: ((إذا قال الإمام: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقولوا: "آمين"، فإن الملائكةَ يقولون: "آمين"، وإن الإمام يقول: "آمين"؛ فمن وافق تأمينُه تأمينَ الملائكةِ غُفر له ما تقدم من ذنبه)).

الأمر بقول "آمين" بعدها، ومن قال: "آمين" بعدها، أجابه الله:

عن أبي موسي الأشعري > قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا قال الإمامُ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فقولوا: "آمين"، يُجِبْكم الله)).

قولُ النبيِّ ﷺ: ((آمين)) بعدَها، ورفَعَ صوتَه بذلك:

عن وائلِ بنِ حُجْر > قال: ((سمعت النبي ﷺ قرأ: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فقال: "آمين"، يمدّ بها صوتَه))

وقد جاء بألفاظٍ منها: فسمعناها، يجهر حتى سمع مَن خلفه، وحتى سمعته.

الرقيةُ بها تَشفي من اللّدغةِ، وهي رقيةٌ مطلقًا:

وعن ابن عباسٍ { : أن نَفَرًا من أصحاب النبي ﷺ مرّوا بماءٍ فيهم لديغ - أو سليم- ، فعرض لهم رجلٌ من أهل الماء، فقال: هل فيكم راقٍ؟ إن في الماء رجلًا

لديغًا - أو سليمًا- . فانطلق رجلٌ منهم، فقرأ بـ(فاتحة الكتاب)، على شاءٍ. فبرأ. فجاء بالشاء إلى أصحابه، فكرهوا ذلك وقالوا: أخذتَ على كتابِ الله أجرًا. فلما قدموا على رسولِ الله ﷺ، قالوا: يا رسول الله أخذَ على كتاب الله أجرًا. قال الرجلُ: يا رسولَ الله، إنا مررنا بحيٍّ من أحياء العرب فيهم لديغ - أو سليم- فانطلقت، فرقِيتُه بـ(فاتحة الكتاب) على شاء، فبرأ. فقال رسول الله ﷺ: ((إن أحقَّ ما أخذتم عليه أجرًا: كتابُ الله ﷻ)).

شفاءٌ من السُّمِّ:

عن أبي سعيد الخدري > وأبي هريرة، قالا: قال رسول الله ﷺ: ((فاتحة الكتاب شفاءٌ من السّم)).

إذا قُرِئَتْ على معتوهٍ برأ بإذن الله:

عن عمِّ خارجةَ بنِ الصّلْتِ قال: أقبلنا من عند النبي ﷺ فأتينا على حي من العرب، فقالوا: أُنبِئْنا أنكم جئتم من عند هذا الرجل الحبر بخير، فهل عندكم دواءٌ أو رقية أو شيء؟ فإنّ عندنا معتوهًا في القيود. قال: فقلنا: نعم. قال: فجاؤوا بالمعتوهِ في القيود. قال: فقرأ بـ(فاتحةِ الكتاب) ثلاثةَ أيام غَدوة وعشية، أجمع بزاقي ثم أتفل. قال: فكأنما نشط من عقال. قال: فأعطَوْني جُعلًا، فقلت: لا، حتى أسأل النبي ﷺ. فسألته، فقال: ((كُلْ، لَعَمْري من أكلَ برقيةِ باطلٍ، لقد أكلتَ برقيةِ حقٍّ)). وفي رواية: "فأعطَوْه مائة.

رقى بها النبي ﷺ أحدَ أصحابه من وَجَعٍ برجلِه تفْلًا:

عن السائبِ بن يزيد قال: ((عَوَّذني رسول الله ﷺ بـ(فاتحة الكتاب)، تفْلًا)).

شفاءٌ من كلِّ داءٍ:

عن عبدِ الملك بنِ عُمير قال: قال رسول الله ﷺ: ((في (فاتحةِ الكتابِ) شفاءٌ من كلِّ داءٍ)).

من قرأها مع (المعوّذات) بعدَ الجمعةِ سبعًا سبعًا في مجلسِه، حُفِظَ إلى الجمعةِ الأخرى.

فعن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ } قالت: ((من قرأ بعدَ الجمعةِ (الحمد) و(المعوّذتين) و﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١]، سبّعا سبعًا في مجلسه، حُفظ إلى الجمعةِ الأخرى)). قال وكيعٌ: فجرَّبناه فوجدناه كذلك. (موقوفٌ بحكمِ المرفوع).

فضائل سورة البقرة

البيتُ الذي تُقرأ فيه سورةُ (البقرة) لا يدخلُه الشيطانُ، بل ينفرُ ويفرُّ منه، ويخرج إذا كان فيه:

عن أبي هريرة > : أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تجعلوا بيوتَكم مقابرَ؛ إن الشيطانَ ينفِرُ من البيتِ الذي تُقرأ فيه سورةُ البقرة)).

وفي لفظ: ((يفرّ)). وفي رواية: ((وإن البيتَ الذي تُقرأ فيه البقرةُ لا يدخُلُه الشيطانُ)).

رأى النبي ﷺ تأخُّرًا في أصحابِه يومَ حنينٍ فناداهم: ((يا أصحابَ سورةِ البقرة))...

تَنَزَّلَتْ الملائكةُ لقراءتها في أمثالِ المصابيح:

وعن أُسيدِ بنِ الحضير > ، وكان من أحسنِ الناس صوتًا بالقرآن- قال: ((قرأت الليلة بسورةِ (البقرة)، فلما انتهيت إلى آخرها -وفي رواية: بينما هو في مِربده، على ظهر بيته-

، وكانت ليلةً مقمرةً، وفرسٌ لي مربوطٌ، ويحيي ابني مضطجعٌ قريبًا مني وهو غلامٌ. فجالَتْ الفرسُ جَوْلَةً، فظننتُ أن فرسي تُطلَقُ. فقمتُ ليس لي همٌّ إلا ابني يحيى، فسكَنَتْ الفرس. ثم قرأتُ، فجالت الفرسُ. فقمت ليس لي همٌّ إلا ابني. ثم قرأت، فجالتْ الفرس. فخشيتُ أن تطأ يحيى، فقمت إليها. فلما اجترَّه رفعَ رأسَه إلى السماء، فرفعت رأسي، فإذا مثلُ الظلّةِ فوقَ رأسي في مثلِ المصابيحِ، فيها أمثالُ السُّرُجِ مقبِلٌ من السماء عرَجَتْ في الجوِّ حتى ما أراها. فهالني، فسكتُّ. فلما أصبحتُ، غدوتُ إلى رسولِ الله ﷺ فقلتُ: يا رسولَ الله، بينما أنا البارحةَ في جوفِ الليل أقرأُ في مِربدي، إذ جالتْ فرسي. فأخبرتُه، فقال: اقرأ أبا يحيى. يا ابن حضير، أبا عتيك أسيد، فقد أوتيتَ من مزاميرِ داود! قلت: قد قرأتُ يا رسولَ الله، فجالت الفرس، فقمت وليس لي همٌّ إلا ابني. فقال رسول الله ﷺ: اقرأ يابْن حضير، أبا عتيك أسيد، قال: قد قرأتُ ثم جالتْ أيضًا. فقال رسول الله ﷺ: اقرأ يابْنَ حضير، قال: والله ما استطعتُ أن أمضيَ - فانصرفتُ، وكان يحيى قريبًا منها، خشيتُ أن تطأَه - فرفعتُ رأسي، فإذا كهيئةِ الظُّلّة، فيها مصابيحُ أمثال السرج، عَرَجت في الجو حتى ما أراها، فهالني. فقال رسولُ الله ﷺ: تلك الملائكة دنَوا لصوتك، نزلت لقراءة سورة (البقرة). ولو قرأت حتى تصبح، لأصبح الناس ينظرون إليها ما تستر منهم. أما إنك لو مضيت لرأيت الأعاجيب)).

استحقَّ صاحبها أن يكونَ أميرًا على من هو أكبرُ منه:

عن عثمانَ بنِ أبي العاص > قال: ((استعمَلني رسولُ الله ﷺ وأنا أصغرُ الستةِ الذين وَفَدوا عليه من ثقيف، وذلك أني كنت قرأتُ سورةَ (البقرة)).

هي سنامُ القرآنِ:

عن سهلِ بنِ سعدٍ > قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((إن لكلِّ شيءٍ سنامًا، وإن سنامَ القرآن: سورةُ البقرة. من قرأها في بيته، لم يدخلِ الشيطانُ بيتَه)) الحديث.

جلسَتْ تُؤنِسُ قاتلَ نفسٍ في قبره جُمعتيْن وتدفعُ عنه، حتى أُمِرَتْ فخرَجَتْ كالسحابةِ العظيمة:

عن أم الدرداءِ < : أن رجلًا ممن قرأ القرآنَ أغار على جارٍ له فقتَله، وأنه أُقيدَ منه، فقُتِلَ. فما زالَ القرآنُ ينسَلُّ منه سورةً سورةً حتى بقيتِ (البقرةُ) و(آلُ عمرانَ) جمعةً. ثم إن (آلَ عمرانَ) انسلَّتْ منه، وأقامتْ (البقرة) جُمعةً، فقيل لها: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٩]. قال: فخرجتْ كأنها السحابةُ العظيمة.

فيها اسمُ الله الأعظمُ الذي إذا دُعيَ به أجابَ:

عن أبي أمامةَ < يرفعُه، قال: ((اسمُ الله الأعظمُ الذي إذا دُعِيَ به أجابَ، في سُوَرٍ ثلاثٍ: في (البقرةِ)، و(آلِ عمرانَ)، و(طه) -يعني: الحي القيوم)).

من السّبع الأُول التي مَن أخَذها فهو حَبرٌ:

عن عائشةَ < ، عن رسولِ الله ﷺ قال: ((من أخذَ السبعَ الأولَ من القرآنِ، فهو حبرٌ)).

من (السبعِ الطوالِ) التي أوتيها النبيُّ ﷺ مكانَ التوراةِ:

عن واثلةَ بنِ الأسقعِ قال: قال رسول الله ﷺ: ((أعطيتُ مكانَ التوراةِ (السبعَ الطِّوالَ)، ومكانَ الزبورِ (المئينَ)، ومكانَ الإنجيلِ (المثاني)، وفُضِّلْتُ بـ(المفصَّل)).

وقد بيّنّا فيما سبق أن (السّبع الطوال) هي: (البقرة)، و(آل عمران)، و(النساء)، و(المائدة)، و(الأنعام)، و(الأعراف)، و(يونس).

هذا ما ورد في فضل السورة ككل، سواء فيها مفردة أم مع غيرها.

آيات مخصوصة من سورة (البقرة):

وقد وردت بعض الفضائل والخصائص لآيات معيّنة من هذه السورة العظيمة سنذكر بعضها على وجه الإجمال . ومنها قوله تعالى:

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾ [البقرة: ١٣٦] كثيرًا ما كان يقرأ بها ﷺ في الركعةِ الأولى من ركعتي الفجرِ:

عن ابن عباسٍ } : ((أنه كثيرًا ما كان يقرأ رسولُ الله ﷺ في ركعتي الفجرِ: في الركعةِ الأولى منهما: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾ الآية التي في (البقرة)، وفي الركعة الآخِرة منها: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٢].

﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلࣰّىۖ ﴾ [البقرة: ١٢٥] قرأها النبي ﷺ عندما أتى المقامَ في الحجّ:

آية الكرسي:

وكذا ما ورد في فضل وخصائص آية الكرسي:

أُنزِلَتْ من كَنْزٍ من تحتِ العَرْشِ:

عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ > قال: "ما أرى أحدًا يعقِلُ بلغةِ الإسلامِ ينامُ حتى يقرأَ آيةَ الكرسيِّ، وخواتيمَ البقرةِ فإنها من كنزٍ تحتَ العرشِ".

هي أعظمُ آيةٍ في كتابِ الله، وإن لها لسانًا وشفتينِ، تُقَدِّسُ الملكَ عندَ ساقِ العرشِ.

من قرأها صباحًا ومساءً حين يأخذُ مَضجَعَه، لم يقرَبْه ذكرٌ ولا أنثى من الجنِّ، ولا يسمعُها شيطانٌ إلا ذَهَبَ:

من قرأها دُبُرَ كلِّ صلاةٍ مكتوبةٍ، لم يَمْنَعْهُ من دخولِ الجنةِ إلا الموت:

عن أبي أمامةَ > قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((من قرأ آيةَ الكرسيِّ دُبُرَ كلِّ صلاةٍ مكتوبةٍ، لم يمنعْه من دخولِ الجنةِ إلا أن يموتَ)).

خواتيم (البقرة):

وكذلك ما ورد في فضلُ خواتيمِ (البقرة):

أُعطيَها النبي ﷺ لما بَلَغَ سدرةَ المنتهى ليلةَ المعراج:

عن ابن مسعودٍ > قال: ((لما أُسرِيَ برسولِ الله ﷺ انتهى إلى سِدرةِ المنتهى. وهي في السماءِ السادسةِ، إليها ينتهي ما يُعرَجُ به من الأرض فيُقبَضُ منها، وإليها ينتهي ما يَهبِطُ من فوقِها فيُقبض منها. قال: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم: ١٦]، قال: فَراشٌ من ذَهَبٍ. قال: فأعطِيَ رسولُ الله ﷺ ثلاثًا: أعطيَ الصلواتِ الخمسَ، و أعطيَ خواتيمَ سورةِ (البقرةِ)، وغُفِرَ لمن ماتَ لا يشركُ بالله من أمّتهِ شيئًا المقحِمات)).

فضائل سورة آل عمران

أمّا سورة (آل عمران): فقد سمّاها رسول الله ﷺ: (الزهراء) هي وسورة البقرة.

وأنه من قرأها والبقرةَ عُدَّ في الصحابةِ عظيمًا.

وأنها جلستْ تُؤنِسُ قاتِلَ جارِه في قبرِه وتدفعُ عنه، جمعةً.

وأن فيها اسمُ الله الأعظمُ الذي إذا دُعِيَ به أجاب.

وأنها من السَّبعِ الأُوَلِ التي مَنْ أخذها فهو حَبرٌ.

وأنها من (السبع الطِّوالِ) التي أوتيَها النبي ﷺ مكانَ التوراة.

هذه هي فضائل سورة (آل عمران) إجمالًا.

ومن الآيات ذات الفضل المخصوص من سورة (آل عمران): قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، فهي من الآيات التي يُسنّ للمسلم أن يقرأها إذا خطب للحاجة.

ومن فضائل العشْر الأواخر من (آل عمران): أنه يُستحب قراءتها أو نصفها، إذا قام الإنسان من الليل؛ ويستحب النظر إلى السماء عندئذ. وفي ذلك حديث طويل جدًّا أخرجه البخاري ومسلم.

فضائل سورة النساء

وأما سورة (النساء)، فمن فضائلها:

أنها من (السبع الأوَل) التي مَن أخذها فهو حَبر. وهي من (السبع الطوال) التي أوتيها النبي ﷺ مكان التوراة.

آيات من سورة (النساء):

ومن الآيات المفضّلة في سورة (النساء):

قوله تعالى في أوّلها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]. فهي من الآيات التي يقرؤها المسلم إذا خطب للحاجة، وقد تقدّم الحديث في ذلك.

وهذه الآية العظيمة، خطب بها النبي ﷺ خطبة حثّ فيها الصحابة ﷺ على الصدقة.

فضائل سورة المائدة

وأما سورة (المائدة)، فمن فضائلها: أنها من السبع الأُوَل.

آيات من (المائدة):

ومن الآيات المفضلة في سورة (المائدة):

قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فمن عِظَم فضل هذه الآية، تمنّى اليهود أن لو نزلت عليهم فاتخذوا يومها عيدًا، فأراد الله أن يكون نزولها يوم اجتماع عيدْين للمسلمين: يوم عرفة ويوم الجمعة.

عن طارق بن شهاب قال: "قال رجل من اليهود لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين إنكم تقرؤون آية في كتابكم، لو علينا -معشر اليهود- نزلت هذه الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] لاتّخذنا ذلك اليوم عيدًا. فقال عمر: والله إني لأعلم أيّ يوم نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ، والساعة التي نزلت فيها، وأين أنزلت، وأين رسول الله ﷺ حين أنزلت. نزلت عشية عرفة، وفي يوم الجمعة، وإنا والله بعرفة، ورسول الله ﷺ واقف بعرفة، وكلاهما بحمد الله لنا عيد".

هذا الحديث متفق عليه. أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما، وله طُرق أخرى عن عمر، وأمّا قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]،

فهذه الآية العظيمة قام بها النبي ﷺ ليلة كاملة يردِّدها حتى أصبح، واستشفع بها لأمته فأُعطي ما طلب؛ وفي هذا مصداق لقوله -جل وعلا-: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ [الإسراء: ٧٩] وهو: الشفاعة، كما ثبت ذلك في أحاديث عدّة.

عن أبي ذر الغفاري > قال: ((صلى رسول الله ﷺ ليلة، فقرأ بآية حتى أصبح: ﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ . فلما أصبح قلت: يا رسول الله، ما زلتَ تقرأ هذه الآية حتى أصبحت؟ قال: إني سألت ربي ﷻ الشفاعة لأمّتي فأعطانيها، وهي نائلة -إن شاء الله- لمن لا يشرك بالله ﷻ شيئًا".

هذا الحديث حديث حسن، أخرجه أحمد، والنسائي، وابن ماجه، ومسدّد، وابن نصر، والحاكم، وغيرهم...

وورد أيضًا: أن النبي ﷺ تلا هذه الآية، فبكى وقال: أمتي، أمتي. فوعده الله أن يرضيه في أمته ولا يسوؤه:

فضائل سورة الأنعام والأعراف

وأما سورة (الأنعام) وسورة (الأعراف)، فمن فضائلهما:

أنهما من (السّبْع الأول).

ومن عِظَم فضل سورة (الأنعام) -لما احتوت عليه من توحيد خالص لله ﷻ، وإفحام للمشركين بدحض حججهم الواهية- أنها لما نزلت سبّح رسول الله ﷺ، وأخبر أنه شيّعها من الملائكة ما سدّ الأفق:

فعن جابر > قال: ((لما نزلت سورة (الأنعام)، سبّح رسول الله ﷺ، ثم قال: لقد شيّع هذه السورة من الملائكة ما سدّ الأفق)). هذا الحديث إسناده حسن. وقد

أخرجه الحاكم في (مستدركه على الصحيحين)، وقال: صحيح على شرط مسلم، وكذا أخرجه البيهقي.

فضائل سورة الأنفال

وإلى هنا ينقطع تسلسل (السّبع الطوال) بسورة (الأنفال). ومن فضائلها:

أنها من المثاني التي أوتيها النبي ﷺ مكان الإنجيل، كما في حديث واثلة بن الأسقع.

وسورة (التوبة) وهي من (المئين) التي أوتيها النبي ﷺ مكان الزبور، كما في نفس الحديث.

(المئون):

و(المئون) من السوَر: هي السوَر التي بلغت مائة آية فأكثر؛ وهي إحدى عشرة سورة: أوّلها: (التوبة)، ثم (هود)، و(يوسف)، و(النحل)، و(الإسراء)، و(الكهف)، و(طه)، و(الأنبياء)، و(المؤمنون)، و(الشعراء)، و(الصافات). وهكذا هي في ترتيب ابن مسعود لمصحفه، حسب ما رواه ابن أشتة في كتاب: (المصاحف).

(المثاني):

وأما (المثاني) فتُطلق ويراد بها أربعة أشياء:

(الفاتحة) كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي ﴾ [الحِجر: ٨٧].

(السبع الطوال) كما في الأحاديث التي مرّت في فضلها.

(القرآن) كله كما في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ [الزُّمَر: ٢٣].

وأما الرابع وهو المراد هنا فهو: ما كان من السوَر دون (المِئين)، وليس من (المفصّل). وعددها ثلاثون سورة.

وقد سُمِّيت المثاني بذلك، لأنها ثَنت المئين أي: تلتْها، ولأنها تُثنّى أي: تتكرر قراءتها أكثر من (الطوال) و(المئين).

فضائل سورة يونس

وسورة (يونس) هي: سابعة (السّبْع الطوال)، التي مَن أخذها فهو حَبْر، بنص حديث عائشة > . وهي مما أوتيه النبي ﷺ مقابل توراة موسى # ، كما في حديث واثلة؛ وقد تقدّم ذلك.

أمّا كونها سابعة السّبع: فقد روى ابن الضريس وغيره، عن ابن عباس، في تفسير (السّبع المثاني): ((أنها (البقرة)، و(آل عمران)، و(النساء)، و(المائدة)، و(الأنعام)، و(الأعراف)، و(يونس)). وإسناده صحيح.

وكذا في مصحف عبد الله بن مسعود: (الطوال): (البقرة)، و(النساء)، و(آل عمران)، و(الأعراف)، و(الأنعام)، و(المائدة)، و(يونس).

وأخرج أبو الشيخ، عن محمد بن سيرين - رحمه الله- ، قال: "كانت سورة (يونس) تعدّ السابعة".

فضائل سورة هود

وسورة (هود) من (المئين) التي أوتيَها النبي ﷺ مكان الزبور. وهي من السوَر التي شيّبت رسول الله ﷺ: فعن عقبة بن عامر > : أن رجلًا قال: ((يارسول الله، شِبتَ؟ قال: شيّبتني هود وأخواتها)). وهذا حديث صحيح أخرجه الطبراني، وابن مردويه، قال السيوطي: بسند صحيح.

وممن روى قوله ﷺ: ((شيّبتي هود وأخواتها)): عمران بن حصين، فيما أخرجه الخطيب وغيره بإسناد جيد.

ورواه من التابعين مرسلًا: عكرمة بنحو ذلك. ورواه أبو سلمة بلفظ: ((قيل: يارسول الله، نرى في رأسك شيبًا! قال: مالي لا أشيب وأنا أقرأ (هودًا) و(إذا الشمس كوّرت)؟)).

فضائل سوَر يوسف والنحل والإسراء

أما سورة (يوسف)، وسورة (النحل)، وسورة (الإسراء): فهي من (المئين) التي أوتيَها النبي ﷺ مكان الزبور كما تقدّم. وسورة (الرعد)، وكذا سورة (إبراهيم)، وسورة (الحجر): من (المثاني) التي أوتيَها النبي ﷺ مكان الإنجيل.

وفي سورة (إبراهيم) الآية العظيمة التي تلاها النبي ﷺ فبكى، وقال: ((أمّتي أمّتي)). فوعده الله أن يرضيه في أمّته ولا يسوؤه. وقد سبق هذا الحديث بطوله في فضل سورة (المائدة) عند قوله تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ [المائدة: ١١٨].

وسورة (الإسراء) من السوَر التي كان النبي ﷺيقرؤها كل ليلة، قبل أن ينام على فراشه.

فضائل السور والآيات (٢)

عناصر الدرس

سورة الكهف

أما سورة (الكهف) فهي من (المئين) التي أوتيَها النبي ﷺ مكان الزبور، وتنزّلت السكينة لقراءتها كما حدث لسورة (البقرة):

فعن البراء بن عازب > قال: ((بينما رجل يقرأ سورة (الكهف) ليلة في الدار إذ رأى دابة تركض -أو قال فرسه تركض- فنظر؛ فإذا مِثْل الضبابة -أو قال مثل الغمامة- قد غشيتْه. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: ((اقرأ؛ فإن تلك السكينة نزلت للقرآن -أو تنزلت على القرآن)).

وهذا الحديث أخرجه البخاري، ومسلم، وغيرهما... و((السكينة)) لها معان عديدة منها: الملائكة، وهو المراد هنا.

وهي أمان من فتنة الدجال لمن يحفظها؛ فإنّ مَن قرأها كما أُنزلت عُصم من الدجال، ومَن قرأها يوم الجمعة كان له نورًا يوم القيامة ما بينه وبين مكة:

فعن أبي سعيد الخدري > قال: ((من قرأ سورة (الكهف) كما أنزلت ثم أدرك الدّجّال، لم يسلَّط عليه. ومن قرأ سورة الكهف يوم (الجمعة)، كان له نورًا يوم القيامة من حيث قرأها ما بينه وبين مكة)). وفي لفظ: ((ما بينه وبين البيت العتيق)). ((ومن توضأ ثم قال: "سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك"، كُتب في رقّ ثم طبع بطابع، فلم يُكسر إلى يوم القيامة)). و"الرّق" هو: ما يكتب فيه من جلد وغيره، و"الطابع": الخاتَم.

وهذا الحديث أخرجه النسائي، وأبو عبيد، والدارمي، والحاكم، وغيرهم... وهو حديث صحيح. ولا يمكن أن يقول هذا أبو سعيد الخدري إلا بتوقيف من

النبي ﷺ، لأنه لا مجال للاجتهاد فيه، ولا يُتلقى عن أهل الكتاب. وقد رواه فعلًا جماعة عنه عن رسول الله ﷺ.

وقوله: ((يوم الجمعة))، لعله يشمل: ليلة الجمعة ويومها، لأنّ اليوم يُطلق ويُراد به الليل والنهار، ويُطلق ويُراد به النهار فقط.

وقد تقدم ما يشهد لصحة الجزء المتعلق بحصول النور يوم القيامة. وأمّا المغفرة الحاصلة لما يلمّ به المسلم بين الجمعتيْن من صغائر الذنوب، فقد ثبتت بإسناد صحيح أيضًا، عن الأمير الثقة: المهلب بن أبي صفرة، الذي ولد عام فتح مكة أو قبله بقليل، حيث قال: ((مَن قرأ سورة (الكهف) في يوم الجمعة، كان له كفارة إلى الجمعة الأخرى)).

والمهلب لا يمكن أن يقول ذلك من عند نفسه؛ فروايته هذه في حكم الحديث المرسل، وشيوخه المعروف بالأخذ عنهم من الصحابة؛ فروايته هذه تعتبر مما أخذه عنهم عن رسول الله ﷺ بشهادة حديث ابن عمر.

وحديث المهلب هذا أخرجه ابن الضريس في (فضائل القرآن)، بإسناد صحيح.

وروى الضياء في (المختارة) -التي اشترط في أحاديثها الصحة- ما يشهد لما تقدم عن علي بن أبي طالب >، قال: قال رسول الله ﷺ: ((من قرأ سورة (الكهف) يوم الجمعة، فهو معصوم إلى ثمانية أيام، وإن خرج الدجال عُصم منه)).

آيات من سورة (الكهف):

وما رواه الديلمي كذلك، عن ابن عباس والبراء بن عازب عن رسول الله ﷺ، قال: ((من قرأ عشر آيات من سورة (الكهف)، مُلئ من قَرنه إلى قدمه إيمانًا.

ومن قرأها في ليلة الجمعة، كان له نورًا كما بين صنعاء إلى بصرى. ومن قرأها في يوم الجمعة قدّم أو أخّر، حُفظ إلى الجمعة الأخرى، فإن خرج الدجال فيما بينهما عُصم منه)).

وأما فضل سورة (الكهف) في النجاة من فتنة الدجال، فقد ورد في أحاديث عدّة.

وقد تقدم نحو هذا الفضل للعشر الأوائل من سورة (الكهف) فيما سبق، وجاء حديث يجمع بين ذلك، وبين فضل آخَر للعشر الأواخر منها، يدل على أنّ مَن حفظها كانت له نورًا يوم القيامة:

هو ما رواه أبو عبيد في (فضائل القرآن)، عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: ((مَن حفظ عشر آيات من سورة (الكهف) ثم أدرك الدجال، لم يضرّه. ومَن حفظ خواتم سورة (الكهف)، كانت له نورًا يوم القيامة)).

سور مريم، طه، الأنبياء، الحج

سورة (مريم):

فهي من (المثاني) التي أوتيَها النبي ﷺ مكان الإنجيل.

سورة (طه):

من (المئين) التي أوتيَها النبي ﷺ مكان الزبور، كما أنّ فيها اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، كما في حديث أبي أمامة > يرفعه، قال: ((اسم الله الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، في ثلاث سوَر: في (البقرة)، و(آل عمران)،

و(طه))).

وهو حديث صحيح تقدّم.

سورة (الأنبياء):

فهي من (المئين) التي أوتيَها النبي ﷺ مكان الزبور.

سورة (الحج):

من (المثاني) التي أوتيَها النبي ﷺ مكان الإنجيل.

سور المؤمنون، الشّعراء، النّمل، القصص، العنكبوت، الرّوم، لقمان، النّور، الفرقان، السّجدة

فهي من (المئين) التي أوتيَها النبي ﷺ مكان الزبور.

سورتا: (النّور) و(الفرقان):

من (المثاني) التي أوتيها النبي ﷺ مكان الإنجيل.

سورة (السّجدة):

كما أنها من (المثاني) أيضًا، كان رسول الله ﷺ يقرأ بها في صلاة الصبح يوم الجمعة في الركعة الأولى؛ يديم ذلك:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه: ((أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة بـ(الم تنزيل، السجدة) في الركعة الأولى، وفي الثانية: (هل أتى على الإنسان حين

من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا)).

وكان ﷺ لا ينام حتى يقرأ سورة (السجدة):

آيات من سورة (الأحزاب):

وكان ﷺ يقرأ قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ [الأحزاب: ٧٠] إلى قوله: ﴿عَظِيمًا﴾، إذا خطب للحاجة:

فعن ابن مسعود < قال: ((أوتيَ رسول الله ﷺ جوامع الخير... فعلّمنا خطبة الصلاة، وخطبة الحاجة في النكاح، وغيره...)) الحديث. وهو حديث صحيح.

سور سبأ، فاطر، يس

فكلّها من (المثاني) التي أوتيَها النبي ﷺ مكان الإنجيل.

يس:

والحديث في فضائل سورة (يس) ذو شجون، وسوف نذكر هنا بعض ما صحّ فيها فقط، بعد البحث والتتبع الشديد.

ومن ذلك: أنّ من قرأها في ليلة ابتغاء وجه الله، غفر له في تلك الليلة:

فعن أبي هريرة < قال: قال رسول الله ﷺ: ((من قرأ (يس) في ليلة ابتغاء وجه الله، غفر له في تلك الليلة)).

وهذا الحديث حديث حسن، أخرجه الدارمي، وأبو يعلى، وابن السني، وابن

حبان، وجماعة. وقد صححه ابن حبان. وقال ابن كثير: "إسناد جيد". وقال السيوطي والشوكاني: "إسناد على شرط الصحيح".

وهي (قلب القرآن)، ويُسنّ قراءتها عند المحتضر.

فعن معقل بن يسار > قال: قال رسول الله ﷺ: ((البقرة): (سنام القرآن). واستخرجت ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] من تحت العرش. و(يس): (قلب القرآن)، لا يقرؤها رجل يريد الله -تبارك وتعالى- والدار الآخرة، إلا غفر له. اقرؤوها على موتاكم)). يعني: (يس).

أما ما يتعلق بكونها (قلب القرآن): فقد روى البزار عن أبي هريرة، عنه ﷺ قال: ((لكل شيء قلب، و(قلب القرآن): (يس)).

وفي هذا الباب: عن أنس أخرجه الترمذي، وابن نصر، وغيرهما... وعن ابن عباس عند ابن مردويه، وعن أبي بن كعب عند القضاعي، وغيره وفي مراسيل عن أبي قلابة، وعن يحيى بن أبي كثير.

أمّا ما يتعلق بالمغفرة لقارئها، فقد تقدّم.

وأما قراءتها عند المحتضر- والتي يتوهّم العامة أنّ المراد: قراءتها على الأموات الذين قد فارقوا الحياة، بل ودفن بعضهم؛ فهم يقرؤونها على القبور. وهذا لا شك عمل غير صحيح وليس له أصل-، أقول:

فقد قال ابن حبان بعد أن أخرج الحديث: "أراد به: مَن حضرتْه المنيّة، لا أنّ الميت يُقرأ عليه".

وفي الباب: عن أبي الدرداء مرفوعًا: ((ما من ميّت يموت، فيقرأ عنده (يس)، إلا هوّن الله عليه)). أخرجه أبو نعيم في (أخبار أصبهان)، والعدني في (مسنده)، وغيرهما...

ومن فضائل سورة (يس): ما ورد في قوله تعالى: ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ [يس: ١، ٢] إلى قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾ [يس: ٩]: فقد قرأها رسول الله ﷺ على المشركين وهم على بابه يريدون البطش به، فعصمه الله منهم، ومضى سالمًا:

فعن محمد بن كعب القرظي قال: ((لما اجتمعوا له -أي: للنبي ﷺ وفيهم أبو جهل بن هشام، فقال وهم على بابه: إن محمدًا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجُعلت لكم جنان كجنان الأردن. وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جُعلت لكم نار تحرقون فيها. قال: وخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال: أنا أقول ذلك، أنت أحدهم. وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يرونه. فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم، وهو يتلو هؤلاء الآيات من يس ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [يس: ١- ٥] إلى قوله ﴿ فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾ حتى فرغ رسول الله ﷺ من هؤلاء الآيات، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا. ثم انصرف حيث أراد أن يذهب...)) إلى آخر الحديث.

وهذه القصة اشتهر بين الناس أنها في الهجرة، والصواب أنها حادثة أخرى غير الهجرة. والذي حدث في الهجرة هو: خروج النبي ﷺ قبل مبيت عليّ مكانه، ثم جاء أبو بكر، فأخبره عليّ بأن النبي ﷺ انطلق نحو بئر ميمون، فلحق به. وبات عليّ مكان النبي ﷺ، ولم يعلم المشركون بخروجه ﷺ حتى أصبح الصباح.

وسورة (يس) مكية بالاتفاق، وهي من أواسط المكي. وقد نزل آخرها في محاورة

بمكة بين النبي ﷺ وأبيّ بن خلف، فأنّى ارتباطها بالهجرة؟

ولم يَرِد ذكْرُ ذلك في الهجرة إلا في رواية الواقدي عند ابن سعد، وهو متّهم. أمّا باقي طُرق الحديث، فأغلبها يدل على كون ذلك في حادثة أخرى. وقد فصّلتُ القول فيه في كتابي: (صحيح السيرة النبوية)، فليُنظر في موضعه.

وللحديث طريق أخرى عن عكرمة، ولفظه: ((أن رهطًا من المشركين اجتمعوا فقالوا: لو قد رأينا محمدًا بطشنا به. قال: فأتى عليهم رسول الله ﷺ وهم جميع، فأخذ قبضة من تراب فجعل يذرّها على رؤوسهم. فقرأ: ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ حتى بلغ: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾. ثم انصرف...)) إلى آخر الحديث.

وهو مرسل صحيح، أخرجه أبو عمر الدوري في "قراءات النبي ﷺ"، وعبد الرزاق في (تفسيره)، وغيرهما...

وقد أخبرني من جرّب تلاوة هذه الآيات عند وجود مَن يخشى سطوته وبطشه، فأمّنه الله منهم؛ فلعل أثرها مستمر لمن أخلص لله في تلاوتها. وعلى كل، فيُسنّ تلاوتها اقتداء بالنبي ﷺ. والله أعلم.

سور الصافات، ص، الزمر

من (المئين) التي أوتيها النبي ﷺ مكان الزبور.

سورة (ص):

فهي من (المثاني) التي أوتيها النبي ﷺ مكان الإنجيل. وفي قوله تعالى منها: ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗا وَأَنَابَ ﴾ [ص: ٢٤] - وهو موضع السجود فيها - رأى أحد الصحابة رؤيا عجيبة، فأخبر النبي ﷺ فعمل بها:

فعن ابن عباس } قال: ((جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني رأيتني الليلة وأنا نائم، كأني أصلي خلف شجرة، فقرأت (ص)، فلما أتيت على السجدة سجدتُ، فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها وهي تقول: "اللهم اكتب لي بها عندك أجرًا، وضَعْ عني بها وزرًا، واجعلها لي عندك ذخرًا، وتقبّلْها مني كما تقبلْتَها من عبدك داود")). قال ابن عباس: ((فقرأ النبي ﷺ سجدة ثم سجد)). وفي رواية: ((فسمعت النبي ﷺ قرأ (ص)، فلما أتى على السجدة سجد. -قال ابن عباس: - فسمعتُه وهو يقول مثلَ ما أخبره الرجل عن قول الشجرة)).

فهذا الحديث دال على فوائد عدّة، منها: استحباب السجود في سورة (ص) عند هذه الآية.

سورة (الزمر):

من (المثاني) التي أوتيها النبي ﷺ مكان الإنجيل.

وكان النبي ﷺ يقرؤها كل ليلة:

فعن أم المؤمنين عائشة > قالت: ((كان النبي ﷺ لا ينام على فراشه حتى يقرأ كل ليلة بـ(بني إسرائيل) و(الزمر)). وسورة (بني إسرائيل) هي: سورة (الإسراء)، وقد مرّ هذا الحديث عند كلامنا على فضلها.

سور غافر، فصّلت، الشّورى، الزّخرف، الدّخان

فكلها من (المثاني) التي أوتيها النبي ﷺ مكان الإنجيل.

سورة (الدخان):

كما أن سورة (الدخان) من القرائن التي كان النبي ﷺ يقرأ بها في صلاة الليل.

وذكر علقمة القرائن التي أخبره ابن مسعود أنّ النبي ﷺ كان يقرأ بها في صلاة الليل سورتيْن في كل ركعة، وهي:

(الرحمن) و(النجم) في ركعة، و(اقتربت) و(الحاقة) في ركعة، و(الطور) و(الذاريات) في ركعة، و(إذا وقعت) و(ن) في ركعة، و(سأل سائل) و(النازعات) في ركعة، و(ويل للمطففين) و(عبس) في ركعة، و(المدثر) و(المزمل) في ركعة، و(هل أتى) و(لا أقسم بيوم القيامة) في ركعة، و(عم يتساءلون) و(المرسلات) في ركعة، و(الدخان) و(إذا الشمس كوّرت) في ركعة.

فذكر عشرين سورة من (المفصّل)، منها: سورة (آل حم) سورتيْن سورتيْن في كل ركعة. وكان أوّل (مفصّل) ابن مسعود: (الرحمن).

وهذا حديث متفق عليه، أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما... وله طرق عن ابن مسعود.

وقد أخرج أحمد وغيره، عن عبد الله بن شقيق، قال: قلت لعائشة > : ((أكان رسول الله ﷺ يَقرن السوَر؟ قالت: (المفصّل)). وهو حديث صحيح، أصله في (صحيح مسلم).

سور الجاثية، الأحقاف، محمد، الفتح، الحجرات

فهي من (المثاني) التي أوتيَها النبي ﷺ مكان الإنجيل.

وسورة (الفتح) اختصت بفضل زائد، وهو: أنها لما نزلت على النبي ﷺ قال: ((نزلت عليّ سورة هي أحب إليّ من الدنيا وما فيها)):

فعن عمر بن الخطاب > قال: ((كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فسألتُه عن شيء ثلاث مرات، فلم يردّ عليّ. قال: فقلت لنفسي: ثكلتْك أمك يابْن

الخطاب! نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يردّ عليك. قال: فركبت راحلتي فتقدّمت مخافة أن يكون نزل فيّ شيء. قال: فإذا أنا بمنادٍ ينادي: يا عمر، أين عمر؟ قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل فيّ شيء. قال: فقال النبي ﷺ: نزلت عليّ البارحة سورة، هي أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١، ٢])).

وحديث عمر في فضل سورة (الفتح) حديث صحيح أخرجه البخاري وغيره...

وقد جاء عن أنس: أنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥] نزل مرجعَهم من الحديبية، وهم يخالطهم الحزن والكآبة. وقد نحر الهدي بالحديبية، فقال ﷺ: ((لقد أنزلت عليّ آية هي أحبّ إليّ من الدنيا جميعًا)).

وهو حديث متفق عليه، وزاد فيه عكرمة - رحمه الله- : ((فقرأها عليهم، فقالوا: هنيئًا مريئًا، يا نبي الله. قد بيّن الله لك ما يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ حتى ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾)).

وفي الباب: عن ابن عباس: ((أن النبيﷺما فرح بشيء قطّ فرحَه بها)). أخرجه ابن أبي عاصم، وابن الأعرابي، وغيرهما... وفيه مراسيل عن قتادة وعكرمة.

وذكر ابن سعد بدون إسناد، في قصة الحديبية، قال: ((فلما كانوا بضجنان، نزل عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا﴾ فقال جبريل # : يهنئك يا رسول الله. وهنأه المسلمون)).

سورة (الحجرات):

من (المثاني) التي أوتيَها النبي ﷺ مكان الإنجيل، وبها تنتهي (المثاني)، ويبدأ (المفصّل) من سورة (ق).

و(المفصّل) سُمّي بذلك لكثرة الفصول التي بين السور بـ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة: ١]، وقيل غير ذلك...

وفي تحديد بدايته ثلاثة عشر قولًا، كلّها ضعيفة، سوى قول واحد هو الصحيح الثابت، وآخر فيه شبهة.

سوَر: ق، الذّاريات، الطّور، النّجم

والذي يعنينا هنا، هو القول الصحيح الثابت، وهو: بدايته من سورة (ق).

(المفصّل):

و(المفصّل) أوتيَه النبي ﷺ نافلة، ففُضل به على سائر الأنبياء.

فعن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: ((أُعطيت مكان التوراة السبع الطوال، ومكان الزبور المئين، ومكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصّل)). وهو حديث صحيح.

والدليل على كون (المفصّل) الذي فُضل به نبينا ﷺ على سائر الأنبياء يبدأ من سورة (ق):

ما أخرجه الإمام أحمد وأبو داود، وابن ماجه وابن سعد، وغيرهم، عن أوس بن حذيفة > قال: ((كنت في الوفد الذين أتوا رسول الله ﷺ وأسلموا من ثقيف من بني مالك، فأنزلَنا في قبة له. فكان يختلف إلينا بين بيوته وبين المسجد؛ فإذا صلى العشاء الآخرة انصرف إلينا، فلا يبرح يحدثنا، ويشتكي قريشًا، ويشتكي أهل مكة، ثم يقول: لا سواء، كنا بمكة مستذلين أو مستضعفين، فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال: الحرب علينا ولنا. فمكث عنا ليلة لم يأتنا حتى طال ذلك علينا بعد العشاء. قال: قلنا: ما أمكثك عنا يا رسول الله؟ قال: طرأ

عني حزب من القرآن، فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه. فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ حين أصبحنا، قال: قلنا: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه ستّ سوَر، وخمس سوَر، وسبْع سوَر، وتسْع سوَر، وإحدى عشرة سورة، وثلاث عشرة سورة، وحزب (المفصّل) من (ق) حتى تختم)).

وإسناده لا بأس به، وله طريق أخرى عند ابن سعد، بها يصح الحديث. وقد احتج به جماعة على ما ذكرت، منهم: ابن كثير - رحمه الله- .

سورة (ق):

وسورة ق لها من الفضائل سوى أنها من هذا (المفصّل): أنه يستحب قراءتها على المنبر يوم الجمعة:

فعن أم هشام بنت حارثة بن النعمان > قالت: ((لقد كان تنّورنا وتنّور رسول الله ﷺ واحدًا سنتَين أو سَنة وبعض سَنة. وما أخذت ﴿ قٓ ۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴾ [ق: ١] إلا عن لسان رسول الله ﷺ، يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس)).

وهذا الحديث صحيح، أخرجه مسلم في (صحيحه)، وأحمد، وغيرهما... وله طرق.

ومن فضائل سورة (ق) أيضًا: أن النبى ﷺ كان يقرأ بها فى الركعة الأولى من صلاة العيد:

فعن أبي واقد الليثي > : أنّ عمر بن الخطاب سأله: ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر؟ فقال: ((كان يقرأ بـ﴿ قٓ ۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴾، و﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴾ [القمر: ١])).

وهذا حديث صحيح، أخرجه مسلم في (صحيحه)، وأحمد ومالك، وأصحاب (السنن)، وجماعة غيرهم...

سوَر (الذاريات)، و(الطور)، و(النجم):

فهن من القرائن التي كان رسول الله ﷺ يقرأ بها في صلاة الليل، كما سبق بيانه في سورة (الدخان)، وذلك سوى أنهن من المفصّل المتقدم فضله.

(سورة القمر):

وسورة (اقتربت الساعة)، كما أنها من المفصّل أيضًا، كان النبي ﷺ يقرأ بها في الركعة الثانية من صلاة العيد، ومن القرائن أيضًا كما في حديث أبي واقد الليثي المذكور آنفًا.

من سورة الرّحمن إلى سورة الجمعة

سورة (الرحمن):

فهي من (المفصّل)، ومن القرائن. ويستحبّ لسامعها أن يقول عندما يأتي القارئ على قوله: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ١٣]؟: "لا بشيء من نِعمك ربنا نكذب، ولك الحمد":

فعن جابر < قال: ((خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة (الرحمن) من أوّلها إلى آخرها، فسكتوا. فقال: لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردودًا منكم؛ كنت كلما أتيت على قوله: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾، قالوا: "لا بشيء من نِعمك ربنا نكذب، ولك الحمد)).

وحديث النبي ﷺ في قراءته سورة (الرحمن) على الجن حديث حسن، أخرجه الترمذي، والحاكم، وابن أبي الدنيا في (كتاب الشكر)، وأبو الشيخ في

(العظمة)، وغيرهم... وصححه الحاكم، وسكت الذهبي.

والتقاء النبي ﷺ بالجن، وقراءته عليهم القرآن، ثابت في (صحيح مسلم) وغيره.

وقد أخذ النبي ﷺ أصحابه فأراهم الموقع الذي التقى بهم فيه، وأراهم آثارهم وآثار نيرانهم. وهناك ليلة أخرى التقى بهم فيها وكان معه ابن مسعود، وقد رأى أشكالهم؛ وهو حديث طويل له طُرق مفصّلة في كتابي: (صحيح السيرة النبوية).

سورة (الواقعة):

أمّا سورة الواقعة، فقد اشتهر بين الناس في فضلها: أنها تنفي الفقر. والحديث في ذلك ضعيف لا يثبت؛ ومن ذلك ما روي عن ابن مسعود قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((مَن قرأ سورة (الواقعة) كل ليلة، لم تُصبْه فاقة أبدًا)). وقد أمرتُ بناتي أن يقرأنها كل ليلة".

وهذا وغيره مما في معناه من الأحاديث التي تفرّد بها المجهولون والكذابون.

وأمّا الصحيح الثابت في فضلها، سوى أنها من (المفصّل) الذي قدّمنا أن نبيّنا ﷺ فُضل به على سائر الأنبياء، وأنها من القرائن التي كان رسول الله ﷺ يصلّي بها في قيام الليل، فهي من السوَر التي شيّبت رسول الله ﷺ:

فعن أبي بكر الصديق > أنه قال: ((سألت النبي ﷺ: ما شيّبك؟ قال: سورة (هود)، و(الواقعة)، و(المرسلات)، و ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النبأ: ١]، و ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ [التكوير: ١])).

سوَر: (الحديد)، (المجادلة)، (الحشر)، (الممتحنة) و(الصف):

لم يصحّ شيء فيها، سوى كونها من (المفصّل) المتقدم فضله غير مرة.

سورة (الجمعة):

كذلك من (المفصّل)، وكان النبي ﷺ يقرأ بها في الركعة الأولى من صلاة الجمعة:

فعن النعمان بن بشير > : أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير: ماذا كان يقرأ به رسول الله ﷺ يوم الجمعة، على إثر سورة الجمعة؟ قال: ((كان يقرأ: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴾ [الغاشية: ١])).

وعن ابن عباس: ((أن النبي ﷺ كان يقرأ في الجمعة سورة (الجمعة) و(المنافقين)). أخرجه مسلم، وأحمد، وأصحاب (السنن)، وغيرهم...

وقد قرأ بها علي وأبو هريرة كما سبق، وقرأ بها وبـ(سبح) عبد الله بن الزبير، فيما أخرجه ابن عساكر، وقال في (سبح): "صُحُفِ إِبْرَاهامَ وَمُوسَى"؛ وهي من القراءات السّبع المتواترة: قراءة ابن عامر إمام أهل الشام.

ورويت قراءتها عن عمر بن عبد العزيز، وأبي بكر بن عمرو.

سور: المنافقون، التّغابن، الطّلاق، التّحريم، تبارك

سورة المنافقون:

من المفصّل، وكان النبي ﷺ يقرأ بها في الركعة الثانية من صلاة الجمعة: فعن ابن عباس } : ((أن النبي ﷺ كان يقرأ في الجمعة: سورة الجمعة، والمنافقون)). وقد سبق الحديث عنه.

سورة التغابن والطلاق والتحريم:

فلم يصحّ فيها شيء، سوى كونها من المفصّل المتقدّم ذكر فضله.

سورة تبارك:

من المفصّل أيضًا، ولها فضل آخر عظيم وهو: أنها شفعت لصاحبها حتى غفر له: فعن أبي هريرة > عن رسول الله ﷺ قال: ((إن سورة في القرآن، ثلاثون آية، شفعت لصاحبها حتى غفر له "تبارك الذي بيده الملك")). وهذا حديث حسن، أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والبيهقي في كتاب عذاب القبر، وصححه ابن حبان، وقال الحاكم: صحيح ولم يخرجاه -يعني البخاري ومسلمًا-. وسكت الذهبي.

ومن فضائل سورة تبارك أيضًا: أن النبي ﷺ كان لاينام حتى يقرأها. فعن جابر > قال: ((كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ "الم تنزيل"، وتبارك)). وقد تكلمنا عنه في فضل سورة السجدة.

فضائل السور والآيات (٣)

عناصر الدرس

من سورة ن إلى سورة الجن

سورة (ن):

من (المفصّل)، ومن القرائن التي كان رسول الله ﷺ يقرأ بها في صلاة الليل.

سورتا: (نوح) و(الجنّ):

لم يصحّ فيهما شيء، سوى كونهما من (المفصّل) المذكور فضله في سورة (ق).

سورة (الإنسان):

من فضائل سورة (الإنسان) أيضًا: أن النبي ﷺ كان يقرأ بها في صلاة الصبح يوم الجمعة، في الركعة الثانية، يديم ذلك:

فعن ابن مسعود: ((أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة يوم الجمعة: (الم تنزيل) و﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ [الإنسان: ١]، يديم ذلك)).

من سورة المرسلات إلى سورة الغاشية

سورتا: (المرسلات) و(عمّ يتساءلون):

هما من المفصّل المتقدّم فضله، ومن السور التي شيّبت رسول الله ﷺ:

فعن أبي بكر الصديق، قال: ((سألت رسول الله ﷺ: ماشيّبك؟ قال: سورة (هود)، و(الواقعة)، و(المرسلات)، و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النبأ: ١]، و﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١])).

وهما من القرائن التي كان رسول الله ﷺ يقرأ بها في صلاة الليل.

سورة (التكوير):

كما أنها من السوّر التي شيّبت رسول الله ﷺ كما تقدم، ومن القرائن أيضًا، فمَن سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين، فليقرأها:

فعن ابن عمر } قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَن سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين، فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار: ١] و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١])).

أخرجه: الإمام أحمد والترمذي، وابن نصر، وابن أبي الدنيا في كتاب "الأهوال"، وغيرهم... وهو حديث حسن، وقال الحاكم: "صحيح الإسناد"، وسكت الذهبي. وقال الترمذي والمقدسي: "حسن غريب".

سورتا (الانفطار) و(الانشقاق):

وسورة (إذا السماء انفطرت) و(إذا السماء انشقت) سوى أنهما من المفصّل، فمَن سرَه أن ينظر إلى القيامة رأيَ عين فليقرأهما. وقد تقدم حديث ابن عمر في ذلك.

سورة (المطففين):

من القرائن التي كان يقرأ بها رسول الله ﷺ في صلاة الليل.

سورتا: (البروج) و(الطارق):

فلم يصحّ شيء فيهما، سوى كونهما من (المفصّل).

سورة (الأعلى):

و﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴾ [الأعلى: ١] مـن المفـصّل، وكـان ﷺ يقـرأ بهـا في الركعـة الأولى من صلاة الجمعة، وصـلاة العيد. وإذا اجتمعا في يـوم واحـد، قـرأ بهـا فـي الصلاتيْن:

فعـن النعمـان بـن بـشير > قـال: ((كـان رسـول الله ﷺ يقـرأ في العيـديْن، وفي الجمعـــة بـــ﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴾ و﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ﴾ [الغاشــية: ١])). قال: ((وإذا اجتمع العيد والجمعة في يوم واحد، يقرأ بهما أيضًا في الصلاتيْن)).

وهذا حديث صحيح، أخرجه الإمام مسلم في (صحيحه)، وغير واحد...

وكان النبي ﷺ يقرأ بسورة (سبح) في الركعة الأولى من الركعتين قبل الوتر:

فعن عائشة > : ((أن النبي ﷺ كان يقرأ في الـركعتين الـتي يـوتر بعـدهما بـ﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴾ و﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [الكافرون: ١]، ويقـرأ في الـوتر بـ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١]، و﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴾ [الفلق: ١]، و﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس: ١])).

وهذا حديث صحيح له طُرق، أخرج أحدها الدارقطني، وابـن الأعرابي، وابـن حبـان، وبعـضها الإمـام أحمـد وأبـو داود، والترمـذي وابـن ماجـه والحـاكم، وغيرهم... وقد صححه ابن حبان، وقال الحاكم: "صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه"، وسكت الذهبي. وحسنه الحافظ ابن حجر.

سورة (الغاشية):

من (المفصّـل) الذي فُضل به نبينا ﷺ، وكـان ﷺ يقـرأ بهـا في الركعـة الثانيـة مـن صلاة الجمعة، وصـلاة العيد؛ وإذا اجتمعا في يـوم واحـد، قـرأ بهـا في الـصلاتين. وقد تقدمت الأحاديث بذلك.

من سورة الفجر إلى سورة الزلزلة

لم يصحّ فيها شيء، سوى كونها من (المفصّل).

سورة (الزلزلة):

من (المفصّل) أيضًا، وهي سورة جامعة:

ومن فضائلها: أنّ مَن قرأها عدلت له بنصف القرآن:

فعن أنس > قال: قال رسول الله ﷺ: ((من قرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ [الزلزلة: ١] عدلت له بنصف القرآن. ومن قرأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ عدلت له بربع القرآن. ومن قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ عدلت له بثلث القرآن)).

وحديث أنس هذا أخرجه: الترمذي، وابن خزيمة، وأبو يعلى، وغيرهم... وله طُرق وشواهد؛ فهو حديث حسن. وقد حسّنه الترمذي، وصححه ابن خزيمة.

وهو حديث حسن، أخرجه: أحمد، والنسائي في (التفسير)، وابن سعد، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني)، وغيرهم.... وصححه الحاكم. وقال الهيثمي: "رجاله رجال الصحيح".

وله شواهد مرسلة بألفاظ مقاربة ومنها: ما أخرجه ابن المبارك عن زيد بن أسلم، وما أخرجه سعيد بن منصور عن المطلب بن عبد الله، وما أخرجه عبد بن حميد عن قتادة، وما أخرجه عبد الرزاق عن الحسن.

من سورة العاديات إلى المسد

فلم يصحّ فيها شيء سوى أنها من (المفصّل) الذي فُضل به نبينا محمدﷺ.

سورة (الكافرون):

من (المفصّل) أيضًا، وكان النبي ﷺ يقرأ بها في الركعة الثانية من الركعتين قبل الوتر:

فعن عائشة < : ((أن النبيﷺكان يقرأ في الركعتين التي يوتر بعدهما بـ(سبح)، و﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾)).

كما كان رسول الله ﷺ يقرأ بها وبـ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ في ركعتي النافلة قبل الفجر وبعد المغرب، ويقول: ((نعم السورتان!)):

فعن ابن عمر } قال: ((سمعت النبي ﷺ أكثر من عشرين مرة يقرأ في الركعتين قبل الفجر، والركعتين بعد المغرب: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾)).

أخرجه: أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وغيرهم... وهو حديث صحيح، صحّحه ابن حبان، وحسّنه الترمذي، وابن حجر. وله طُرق كثيرة.

ويُستحب قراءتها عند النوم، وهي براءة من الشرك:

فعن نوفل الأشجعي < قال: ((دفع إليّ النبي ﷺ ابنة أم سلمة، وقال: إنما أنت ظئري -والظئر: الذي يعطف على غير ولده المرضع له-. قال: فمكث ما شاء الله. ثم أتيته فقال: ما فعلت الجارية، أو الجويرية؟ قال: قلت: عند أمها.

قال: فمجيء ما جئت؟ قال: قلت: تعلّمني ما أقول عند منامي، فقال: اقرأ عند منامك: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾. قال: ثم نم على خاتمتها؛ فإنها براءة من الشرك)).

وهو حديث صحيح، على شرط مسلم، أخرجه: الإمام أحمد والترمذي، وأبو داود وابن الأعرابي وأبو عبيد، وغيرهم... وله طُرق كثيرة. وقد صحّحه ابن حبان، والحاكم. وسكت الذهبي. وقال ابن حجر: "إسناده صحيح".

وأخرج أبو يعلى عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ((ألا أدلكم على كلمة تنجيكم من الإشراك بالله؟ ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ عند منامكم)).

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ: ((اقرأ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ عند منامك؛ فإنها براءة من الشرك)). أخرجه البيهقي في (شُعب الإيمان).

وفي الباب عن البراء، أخرجه ابن مردويه.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن زرارة بن أوفى، قال: "كانت هذه السورة تسمى: (المقشقِشة).
وأخرج البيهقي عن أبي عمرو بن العلاء، قال: كانت ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾: (المقشقشة)، أي: أنها تبرئ من الشرك. ويقال: قشقش البعير، إذا رمى بجربه".

وروى ابن الضريس عن أبي الجوزاء أنه كان يقول: "أكثروا من قراءة: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، وابرؤوا منهم".

ومن قرأها عُدلت بربع القرآن:

فعن أنس > قال: قال رسول الله ﷺ: ((من قرأ: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ عدلت له بنصف القرآن، ومن قرأ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ عدلت له بربع القرآن...)) الحديث.

وقد أخرج عبد بن حميد وغيره، عن ابن عمر > قال: ((صلى بنا رسول الله ﷺ فقرأ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، وقال: صليتُ بكم بثلث القرآن وبربع القرآن)).

سورتا: (النصر) و(المسد):

فلم يصحّ فيهما شيء، سوى أنهما من (المفصّل) الذي فُضل به نبينا محمد ﷺ على سائر الأنبياء.

فضائل المعوّذات المشتركة

ما ثبت في فضائل المعوذات:

والمعوّذات يراد بها: سورة: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾، و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾.

وإذا قيل: المعوّذتان، فإنما يراد بهما: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾، و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾، فقط.

كما أنه إذا قيل: القواقل: أضيف للمعوذات: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.
وللمعوذات فضائل مشتركة، وفضائل مستقلة لسورة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، وللمعوذتين، ولسورة الفلق على حدة.

فمن الفضائل المشتركة: أنهن جميعًا من المفصّل الذي فُضل به النبي ﷺ.

ومنها: أنّ من قرأهنّ مع (الفاتحة) بعد الجمعة سبعًا سبعًا في مجلسه، حُفظ إلى الجمعة الأخرى:

فعن أسماء بنت أبي بكر < قالت: ((من قرأ بعد الجمعة: (الحمد)، و(المعوّذتين)، و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، سبعًا سبعًا في مجلسه، حُفظ إلى الجمعة الأخرى)). قال وكيع: "فجرّبناه، فوجدناه كذلك".

أخرجه ابن الضريس، وابن أبي شيبة في (مصنفه)، وأبو عبيد. وإسناده صحيح. وهو في حُكم المرفوع إلى رسول الله ﷺ.

وفي الباب: عن عائشة أيضًا أخرجه ابن السني، والخلال في (فضائل الإخلاص)، وفيه عن أنس عند القشيري في (الأربعين).

وروى أبو عبيد في (فضائل القرآن)، عن ابن شهاب قال: "من قرأ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و(المعوّذتين) بعد صلاة الجمعة حين يسلّم الإمام قبل أن يتكلم، سبعًا سبعًا، كان ضامنًا -قال أبو عبيد: أراه قال: على الله- هو وماله وولده من الجمعة إلى الجمعة".

ومن فضائل (المعوّذات) الثلاث: أن النبي ﷺ أمر بقراءتها في دبر كل صلاة:

فعن عقبة بن عامر أنه قال: ((أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بـ(المعوّذات) في دبر كل صلاة)).

وهذا حديث إسناده صحيح، أخرجه: أحمد في (مسنده)، والترمذي وأبو داود والنسائي، وابن حبان وابن السني، وغيرهم... وقد حسّنه الترمذي، وصحّحه ابن حبان.

ومن هذه الفضائل: أنهنّ من أذكار الصباح والمساء المهمة؛ فإنّ مَن قرأهنّ حين يمسي وحين يصبح ثلاثًا، تكفيه من كل شيء. ويستعاذ بهن في المطر والظلمة:

فعن عبد الله بن خبيب قال: ((خرجنا في ليلة مطيرة مظلمة شديدة، نطلب رسول الله ﷺ ليصلي لنا، فأدركته فقال: قُل. فلم أقل شيئًا. ثم قال: قُل. فلم أقل شيئًا. قال: قُل. قلت: يا رسول الله، وما أقول؟ قال: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و(المعوذتين) حين تمسي وحين تصبح، ثلاث مرات، تكفيك من كل شيء)).

وهذا حديث إسناده حسن، أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي، وعبد بن حميد وابن سعد، وغيرهم... وقال عنه الترمذي: "حسن صحيح غريب".

كما أنهن رقية من لدغة العقرب؛ فقد لدغت النبي ﷺ عقربٌ، فرقَى نفسه بهن:

عن علي > قال: ((بينا رسول الله ﷺ ذات ليلة يصلي، فوضع يده على الأرض فلدغته عقرب، فتناولها رسول الله ﷺبنعله فقتلها. فلما انصرف، قال: لعَن الله العقرب، لا تدَع مصليًا ولا غيره، أو نبيًا ولا غيره. ثم دعا بملح وماء فجعله في إناء، ثم جعل يصبّه على أصبعه حيث لدغته، ويمسحها ويقرأ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ويعوّذها بـ(المعوّذتين)).

وهذا حديث إسناده حسن، أخرجه: ابن أبي شيبة في المصنف، والبيهقي في (شُعب الإيمان)، والطبراني في (معجميْه): (الصغير) و(الأوسط)، وأبو نعيم في كتاب (الطب)، والخلال في كتاب: فضل ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، وغيرهم... وروى نحوه ابن عدي في (الكامل) من حديث ابن مسعود، ورواه ابن سعد عن القاسم مرسلًا بإسناد جيد.

فضل ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ خاصة

هذه السورة العظيمة من السوَر التي حظيَت بفضائل جمّة، وخصائص مهمة؛ ولذا أفردها بالتصنيف العلماء، ومنهم: الحافظ أبو محمد الحسن بن محمد الخلال، المتوفى سنة ٤٣٩هـ، حيث صنف فيها كتابه: (من فضائل سورة الإخلاص وما لقارئها)، وقد طبع الكتاب بتحقيقي سنة ١٤١٢هـ، واشتمل على ثمانية وخمسين حديثًا، ولم يستوعب كلّ ما ورد في فضلها. ونحن -إن شاء الله- سنقتصر على ذكر الصحيح منها هنا، والله المستعان.

وسورة (الإخلاص) هي: سورة (التوحيد)، وهي السورة الوحيدة الخالصة لله ﷻ: فلا أحكام فيها، ولا أخبار، ولا ذكر لشيء سوى الله -جل وعلا- وصفاته وتوحيده؛ وهذه هي أُولى فضائلها؛ فهي: نسبة الله ﷻ:

فعن أُبيّ بن كعب -رضى الله عنه-: ((أن المشركين قالوا: يا محمد، انسبْ لنا ربّك؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ [الإخلاص: ١، ٢]...)) إلخ.

وهذا حديث إسناده حسن، أخرجه: أحمد، والترمذي، وابن جرير في (تفسيره)، وكذا ابن أبي حاتم، والحاكم، والواحدي في (أسباب النزول)، وغيرهم... وقال الحاكم: "صحيح الإسناد"، وسكت الذهبي. وصححه أيضًا ابن خزيمة.

وقد جاء نحوه عن جابر، وفيه: أن أعرابًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: انسبْ لنا ربك. فأنزلها الله ﷻ إلى آخرها. وهو حديث حسن، أخرجه أبو يعلى، وابن جرير، وأبو نعيم في (الحلية)، وغيرهم...

وأخرج الطبراني، والديلمي عن أبي هريرة مرفوعًا: ((لكلّ شيء نسبة، ونسبة

الله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾)).

ورُويت روايات تؤيد ما ذكرناه من كون سورة (الإخلاص) هي نسبة الله ﷻ؛ ومن ذلك: ما رواه ابن عدي، والسهمي في (تاريخ جرجان)، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: ((ألا أدلكم على سورة قصيرة، ثوابها عظيم، وذخرها كريم، وهي نسبة ربكم؟ قالوا: بلى. قال: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾)).

ووردت روايات فيها: أنّ اليهود جاؤوا إلى النبي ﷺ فسألوه عن نسبة ربه ونعته، بنحو ما تقدم عن المشركين. ومن ذلك ما رواه ابن أبي عاصم في (السنة) وغيره: ((أن عبد الله بن سلام قال لرسول الله ﷺ: انعت لنا ربك. فجاء جبريل بالسورة)).

وروى الخلال بسند صحيح، عن عامر بن عبد قيس، قال: ((من قرأ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فلا يقرأُ معها شيئًا من القرآن استقلالًا بها، لأنها نسبة الرحمن ﷻ من أوّلها إلى آخرِها)).

ومن فضائل سورة (الإخلاص) العجيبة: أنّ مَن قرأها عشر مرات، بنى له الله قصرًا في الجنة، ومن استكثر فالله أكثر وأطيب:

فعن معاذ بن أنس > عن النبي ﷺ قال: ((من قرأ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ حتى يختمها عشر مرات، بَنَى الله له قصرًا في الجنة. فقال عمر بن الخطاب > : إذًا أستكثر يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: الله أكثر وأطيب)).

وهذا الحديث أخرجه الإمام أحمد، وابن السني، والطبراني. وهو حديث حسن.

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عمر، مرفوعًا: ((من قرأ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ إحدى عشرة مرة، بنى الله له قصرًا في الجنة. فقال عمر: والله يا رسول الله، إذًا

نستكثر من القصور. فقال رسول الله ﷺ: فالله أمنّ وأفضل، أو قال: أمنّ وأوسع)). وقد أخرجه أبو موسى المديني من حديث خالد بن زيد. وأخرجه حميد بن زنجويه بلفظ: ((عشرين مرة)).

ولا يفوتنا أن نذكر: أنّ سورة (الإخلاص) من السوَر التي يسنّ قراءتها في ركعتي الطواف للمعتمر والحاج، لما ثبت في (صحيح) مسلم عن جابر بن عبد الله، ضمن حديث الحج الطويل، حيث ذكر: ((أن رسول الله ﷺ قرأ فيهما: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الكافرون: ١] و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾)).

ومن فضائل سورة (الإخلاص) العظيمة: أنّ من دعا بما تضمنته من أسماء، فقد دعا الله باسمه الأعظم، الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب:

فعن بريدة رضي الله عنه: ((أن النبي ﷺ سمع رجلًا يقول: اللهم إني أسألك بأنك أنت الله، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد. فقال رسول الله ﷺ: لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب)).

وهذا الحديث صحيح، أخرجه: أحمد وأبو داود، والترمذي والنسائي وابن ماجه، وغيرهم... وله طُرق. وقال فيه الترمذي: "حديث حسن غريب".

واسم الله الأعظم في ثلاث سوَر: (البقرة)، و(آل عمران)، و(طه). وفهم بعض الرواة أنه: "﴿ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وروي غير ذلك في أحاديث لا تتعلق بفضائل السوَر، لا نطيل بذكرها؛ إلا أنّ الأرجح الذي رجّحه جمع من العلماء: أنّ اسم الله الأعظم هو لفظ الجلالة: ﴿ ٱللَّهُ ﴾. فهو الذي تجتمع عليه جميع الأحاديث، وهو حريّ بذلك؛ فهو الاسم الوحيد الذي لا يشاركه فيه أحد، وهو الجامع لجميع الأسماء والصفات، وهو الاسم الذي لا يمكن أن يُثنى

أو يجمع، لأنه على الأرجح غير مشتق، بخلاف غيره من الأسماء.

ومن فضائل سورة (الإخلاص): أنّ من أحبها دخل الجنة، ومِن حُبِّها: قراءتها في كل ركعة من الصلاة قبل القراءة بغيرها. فعن أنس بن مالك > قال: ((كان رجل من الأنصار يؤمّهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ لهم في الصلاة فقرأ بها، افتتح بـ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، حتى يفرغ منها، ثم يقرأ بسورة أخرى معها. وكان يصنع ذلك في كل ركعة. فكلمه أصحابه فقالوا: إنك تقرأ بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزيك حتى تقرأ بسورة أخرى، فإما أن تقرأ بها وإما أن تدعَها وتقرأ بسورة أخرى. قال: ما أنا بتاركها، إن أحببتم أن أؤمكم بها فعلتُ، وإن كرهتم تركتُكم. وكانوا يرونه أفضلهم وكرهوا أن يؤمّهم غيره. فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر. فقال: يا فلان ما يمنعك مما يأمر به أصحابك؟ وما يحملك أن تقرأ هذه السورة في كل ركعة؟ فقال: يا رسول الله، إني أحبها. فقال الرسول ﷺ: إن حبها أدخلك الجنة)).

وهذا حديث صحيح، له طُرق، أخرجه البخاري معلقًا بصيغة الجزم، وما أخرجه هكذا يكون صحيحًا، ولكن ليس على شرطه في كتابه، كما قرره الحافظ ابن حجر. وأخرجه أيضًا: أحمد والترمذي.

وقراءة: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ في الركعة الثانية من ركعتي الفجر سنّة؛ فقد كان النبي ﷺ يقرأ بها وبـ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ في ركعتي الفجر والمغرب، يعني: سنّتيهما، ويقول: ((نعم السورتان!)):

كما سمع أيضًا النبي ﷺ رجلًا يقرأ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، فقال: ((أما هذا فقد غفر له)):

ومن الفضائل العجيبة لسورة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾: أنّ أحد الصحابة واسمه معاوية بن معاوية، كان يقرؤها قائمًا وقاعدًا وراكبًا وماشيًا. فلما توفي، نزل

جبريل في سبعين ألفًا من الملائكة، ووضع جناحه على الجبال فتواضعت؛ فصلى عليه النبي ﷺ وهو بتبوك ومعه الملائكة عليهم السلام.

ومن فضائل سورة (الإخلاص): أن قراءتها مرة واحدة تغفر ذنوب سَنة. فقد ثبت: أنّ من قرأها خمسين مرة، غفر الله له ذنوب خمسين سَنة. ومن قرأها مائتي مرة، غفر له ذنوب مائتي سنة:

عن أنس بن مالك < قال: قال رسول الله ﷺ: ((من قرأ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ خمسين مرة، غفر الله له ذنوب خمسين سنة)).

وهذا الحديث الحسن أخرجه: الدارمي، وابن نصر، وأبو يعلى في (مسنده). وقد ضعفه بعض أهل العلم، لوجود تصحيف في اسم أحد رواته، واسمه: محمد أبو رجاء.

وسورة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ هي السورة التي كان النبي ﷺ يقرأ بها في ركعة الوتر، وربما أضاف إليها (المعوذتين). فعن عائشة < : ((أن النبي ﷺ كان يقرأ في الركعتين التي يوتر بعدهما بـ(سبح اسم ربك الأعلى) و﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، ويقرأ في الوتر بـ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾)).

وفي الباب مراسيل وموقوفات، كلها تؤكد استحباب قراءة تلك السورة العظيمة في ركعة الوتر.

ومن أعظم فضائل سورة (الإخلاص): أنها تعدل ثلث القرآن؛ وقد بلغ الحديث بذلك حد التواتر عند المحققين من أهل العلم:

فعن أبي سعيد الخدري < : "أن رجلًا سمع رجلًا يقرأ من السَّحر: ﴿ قُلْ هُوَ

ٱللَّهُ أَحَـدٌ ﴾ كلّها، يردّدها لا يزيد عليها. فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقالّها، فقال رسول الله ﷺ: ((والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن)).

وهذا الحديث الصحيح قد رواه الإمام مالك في (موطئه)، ومن طريقه أخرجه جماعة، منهم: الإمام البخاري في (صحيحه) وغيره...

من فضائل المعوذتين مجموعتين

أنهما لما نزلتا على رسول الله ﷺ قال: ((أُنزلت عليّ آيات لم يُر مثلهن قط)):

فعن عقبة بن عامر < قال: قال رسول الله ﷺ: ((ألم تر آيات أنزلت علي الليلة لم يُر مثلهنّ قط -يعني: (المعوّذتيْن)-. ثم قرأهما: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ إلى آخر السورة، و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ إلى آخر السورة)). أخرجه مسلم في (صحيحه).

ولما سُحر رسول الله ﷺ، أتاه جبريل بـ(المعوّذتيْن)، وأمَره أن يحلّ العُقد، ويقرأ آية. فجعل يقرأ ويحلّ حتى قام كأنما أنشط من عقال:

فعن زيد بن أرقم < قال: ((سَحر النبيَّ ﷺ رجل من اليهود. قال: فاشتكى لذلك أيامًا، فأتاه جبريل # بـ(المعوّذتين)، وقال: إن رجلًا من اليهود سحرك؛ عقد لك عقدًا. والسحر في بئر فلان. قال: فأرسل رسول الله ﷺ عليًا فاستخرجوها، فجاء بها. قال: فأمره أن يحلّ العقد، ويقرأ آية. فجعل يقرأ ويحلّ، حتى قام النبي ﷺ كأنما أنشط من عقال. قال: فما ذكر رسول الله ﷺ

لذلك اليهودي شيئًا مما صنع به، قال: ولا أراه وجهه)).

وهذا الحديث الصحيح أخرجه أحمد، والنسائي، وعبد بن حميد، وصححه الحاكم. وأصله في (صحيح البخاري)، من حديث عائشة، بدون ذكر (المعوذتين).

سورة (الفلق):

وأما سورة (الفلق)، فقد ثبت أنه لن يقرأ أحد سورة أحب إلى الله ﷻ ولا أبلغ عنده، منها. ومن استطاع ألا تفوته في صلاة فليفعل:

عن عقبة بن عامر > قال: ((تبعت رسول الله ﷺ وهو راكب على بغلته البيضاء، فجعلت يدي على ظهر قدمه، فقلت: يا رسول الله، أقرئني آيًا من سورة (هود)، وآيًا من سورة (يوسف). فقال النبي ﷺ: يا عقبة بن عامر، إنك لن تقرأ سورة أحب إلى الله، ولا أبلغ عنده من أن تقرأ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾؛ فإن استطعت أن لا تفوتك في صلاة، فافعل)).

وهذا الحديث الصحيح أخرجه: أحمد والنسائي، وابن حبان والحاكم، وغيرهم...

بعض الأحاديث الضعيفة التي ذكرها السيوطي في باب: فضائل السور والآيات

عناصر الدرس

الموقوفات عن الصحابة

وقد وردت موقوفات عن الصحابة في فضائل بعض السوَر وخواصها؛ ومما ذكره السيوطي في ذلك:

ما أخرجه أبو عبيد، عن ابن عباس، موقوفًا: ((إن لكل شيء لبابًا، ولباب القرآن: الحواميم.

وأخرج الحاكم، عن ابن مسعود، موقوفًا: ((الحواميم): ديباج القرآن)).

أخرج الدارمي، عن ابن مسعود، موقوفًا: ((إن لكل شيء لبابًا، ولباب القرآن: (المفصّل)).

وأخرج البيهقي في الشُّعب، عن عليّ، موقوفًا: ((سورة (الأنعام) ما قرئت على عليل إلا شفاه الله)).

وأخرج الدارمي وغيره، من طريق عبدة بن أبي لبابة، عن زر بن حبيش قال: ((من قرأ آخر سورة (الكهف) لساعة يريد أن يقومها من الليل، قامها)).

قال عبدة: "فجربناه فوجدناه كذلك".

وفي (المستدرك)، عن أبي جعفر محمد بن علي، قال: "مَن وجد في قلبه قسوة، فليكتب (يس) في جام، بماء ورد وزعفران، ثم يشربه".

وأخرج ابن الضريس، عن أبي سعيد بن جبير: "أنه قرأ على رجل مجنون سورة (يس)، فبرئ".

وأخرج أيضًا عن يحيى بن أبي كثير، قال: "من قرأ (يس) إذا أصبح، لم يزل في فرح حتى يمسي. ومن قرأها إذا أمسى، لم يزل في فرح حتى يُصبح". أخبرنا من جرّب ذلك".

قال السيوطي: "وأما ما لم يَرِد به أثر، فقد ذكر الناس من ذلك كثيرًا جدًا، الله أعلم بصحته".

قال ابن التين: "الرقي بـ(المعوّذات) وغيرها من أسماء الله تعالى هو: الطب الروحاني؛ إذا كان على لسان الأبرار من الخلق حصل الشفاء بإذن الله. فلما عز هذا النوع، فزع الناس إلى الطب الجثماني".

قال السيوطي: "ويشير إلى هذا: قوله ﷺ: ((لو أن رجلًا موقنًا قرأ بها على جبل، لزال)).

قلت: هذا حديث لا يصحّ، ولا تزال البركة في الرقية في كتاب الله، وإن كان الأفضل أن تكون من موقن بها، لكن لا يتعلق الشفاء على ذلك.

وقال القرطبي: "تجوز الرقية بكلام الله وأسمائه، فإن كان مأثورًا استُحبّ".

وقال الربيع: "سألت الشافعي عن الرقية، فقال: لا بأس أن يُرقى بكتاب الله، وما يُعرف من ذكر الله".

وقد نقل السيوطي كلامًا لأهل العلم في السِّر في الرقية بـ(المعوّذات)، و(الفاتحة) على وجه الخصوص، لاشتمالها على ما لم يشتمل عليه غيرها من جوامع الدعاء والمعاني الجامعة.

هل في القرآن شيء أفضل من شيء؟

وقد اختلف الناس: هل في القرآن شيء أفضل من شيء؟ فذهب جماعة إلى المنع، لأن الجميع كلام الله، ولئلا يوهم التفضيل نقص المفضل عليه.

وكره مالك أن تُعاد سورة أو تُردَّد دون غيرها.

وقال ابن حبان: "قوله: ((أعظم سورة)): أراد به الأجر، لا أن بعض القرآن أفضل من بعض".

وذهب آخرون إلى التفضيل، لظواهر الأحاديث، وقال القرطبي: "إنه الحق، وهو كما قال".

وقال الغزالي: "لعلك أن تقول: قد أشرت إلى تفضيل بعض آيات القرآن على بعض، والكلام كلام الله، فكيف يفارق بعضها بعضًا؟ وكيف يكون بعضها أشرف من بعض؟ فاعلم: أن نور البصيرة إن كان لا يرشدك إلى الفرق بين آية الكرسي وآية المداينات، وبين سورة (الإخلاص) وسورة (تبت)، وترتاع على اعتقاد الفرق نفسُك الخوارة المستغرقة بالتقليد، فقلّد صاحب الرسالة ﷺ؛ فهو الذي أنزل عليه القرآن، وقال: ((يس): (قلب القرآن)، و(فاتحة الكتاب) أفضل سوَر القرآن، وآية الكرسي سيّدة آي القرآن، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] تعدل ثلث القرآن)). والأخبار الواردة في فضائل القرآن، وتخصيص بعض السوَر والآيات بالفضل وكثرة الثواب في تلاوتها، لا تحصى". انتهى.

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: "كلام الله في الله أفضل من كلامه في غيره، فـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أفضل من ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]".

وقد اختلف القائلون بالتفضيل: فقال بعضهم: الفضل راجع إلى عظم الأجر، ومضاعفة الثواب.

وقيل: بل يرجع لذات اللفظ؛ فالتفضيل إنما هو بالمعاني العجيبة وكثرتها.

وقال الحليمي: "معنى التفضيل يرجع إلى أشياء:

أحدها: أن يكون العمل بآية، أولى من العمل بأخرى، وأعوَد على الناس.

الثاني: أن يقال: الآيات التي تشتمل على تعديد أسماء الله تعالى، وبيان صفاته، والدلالة على عظمته أفضل.

الثالث: أن يقال: سورة خير من سورة، أو آية خير من آية، بمعنى أن القارئ يتعجل له بقراءتها فائدة، سوى الثواب الآجل، ويتأدّى منه بتلاوتها عبادة.

ويقال أيضًا في الجملة: "إن القرآن خير من التوراة، والإنجيل، والزبور، بمعنى: أن التعبد بالتلاوة والعمل واقع به دونها، والثواب بحسب قراءته لا بقراءتها، أو أنه من حيث الإعجاز حجة النبي المبعوث، وتلك الكتب لم تكن معجزة، ولا كانت حجج أولئك الأنبياء، بل كانت دعوتهم والحجج غيرها".

قال ابن عبد البر: "السكوت في هذه المسألة أفضل من الكلام فيها وأسلم". ثم أسند إلى إسحاق بن منصور: "قلت لأحمد بن حنبل: قوله ﷺ: (﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تعدل ثلث القرآن))، ما وجهه؟ فلم يقل لي فيها على أمر. وقال لي إسحاق بن راهويه: معناه: أن الله لما فضل كلامه على سائر الكلام، جعل لبعضه أيضًا فضلًا في الثواب لمن قرأه، تحريضًا على تعليمه، لا أن من قرأ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ثلاث مرات كان كمن قرأ القرآن جميعه؛ هذا لا

يستقيم، ولو قرأها مائتي مرة".

قال ابن عبد البر: "فهذان إمامان بالسُّنة، ما قاما ولا قعدا في هذه المسألة".

ومن أوجُه التفضيل التي سبق ذكْرها، وهو: ما يتعلق بالمعاني، ذكَر السيوطي نقولًا عن أهل العلم في تبيين ذلك:

فمما قيل في (الفاتحة): ما قاله الحسن البصري: "إن الله أودع علوم الكتب السابقة في القرآن، ثم أودع علوم القرآن (الفاتحة)؛ فمن علِم تفسيرها، كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة".

وقال الإمام فخر الدين الرازي: "المقصود من القرآن كله: تقرير أمور أربعة: الإلهيات، والمعاد، والنبوات، وإثبات القضاء والقدَر لله تعالى. فقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]يدل على: الإلهيات. وقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] يدل على: المعاد. وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] يدل على: نفي الجبر، وعلى إثبات أن الكلّ بقضاء الله وقدَره. وقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] إلى آخر السورة يدل على: إثبات قضاء الله وعلى النبوات. فلما كان المقصد الأعظم من القرآن: هذه المطالب الأربعة، وهذه السورة مشتملة عليها، سُمّيت: (أم القرآن)".

مما قيل في تفضيل آية الكرسي:

قال ابن العربي: "إنما صارت آية الكرسي أعظم الآيات، لعظم مقتضاها؛ فإن الشيء إنما يشرف بشرف ذاته ومقتضاه وتعلقاته؛ وهي في آي القرآن كسورة (الإخلاص) في سوَره، إلا أن سورة (الإخلاص) تفضلها بوجهين:

أحدهما: أنها سورة، وهذه آية. والسورة أعظم، لأنه وقع التحدي بها؛ فهي

أفضل من الآية التي لم يتحدّ بها.

والثاني: أن سورة (الإخلاص) اقتضت التوحيد في خمسة عشر حرفًا، وآية الكرسي اقتضت التوحيد في خمسين حرفًا؛ فظهرت القدرة في الإعجاز بوضع معنى معبّر عنه بخمسين حرفًا، ثم يعبر عنه بخمسة عشر؛ وذلك بيان لعظيم القدرة والانفراد بالوحدانية".

وقال ابن المنير: "اشتملت آية الكرسي على ما لم تشمل عليه آية من أسماء الله تعالى؛ وذلك أنها مشتملة على سبعة عشر موضعًا، فيها اسم الله تعالى ظاهرًا في بعضها، ومستكنًا في بعض؛ وهي: ﴿ ٱللَّهُ ﴾، ﴿هُوَ﴾، ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ضمير: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ﴾، و﴿لَهُۥ﴾، و﴿عِندَهُۥٓ﴾، و﴿بِإِذْنِهِۦ﴾، و﴿يَعْلَمُ﴾، و﴿عِلْمِهِۦٓ﴾، و﴿شَآءَ﴾، و﴿كُرْسِيُّهُ﴾، و﴿يَـُٔودُهُۥ﴾، ضمير: ﴿حِفْظُهُمَا﴾ المستتر، الذي هو فاعل المصدر، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾. وإن عدّدت الضمائر المتحملة في ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، ﴿ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾، والضمير المقدّر قبل ﴿ٱلْحَيُّ﴾ على أحد الأعاريب، صارت اثنين وعشرين".

وفي جعل (الإخلاص) تعدل ثلث القرآن:

قال الغزالي: "معارف القرآن المهمة ثلاثة: معرفة التوحيد، والصراط المستقيم، والآخِرة."

وهي مشتملة على الأوّل؛ فكانت ثلثًا".

وفي حديث: ((إن (الزلزلة) نصف القرآن)):

قيل: لأن أحكام القرآن تنقسم إلى: أحكام الدنيا، وأحكام الآخرة؛ وهذه

السورة تشتمل على أحكام الآخرة كلها إجمالًا.

وقال الغزالي في سر كون سورة (الكافرين) ربعًا، وسورة (الإخلاص) ثلثًا، مع أن كلًا منهما يسمى: (الإخلاص): أن سورة (الإخلاص) اشتملت من صفات الله على ما لم تشتمل عليه (الكافرون). وأيضًا فالتوحيد: إثبات إلهية المعبود وتقديسه، ونفي إلهية ما سواه؛ وقد صرّحت (الإخلاص) بالإثبات والتقديس، ولوّحت إلى نفي عبادة غيره. و(الكافرون) صرّحت بالنفي، ولوّحت بالإثبات والتقديس، فكان بين الرتبتيْن من التصريحيْن والتلويحيْن ما بين الثلث والربع.

وقد ذكره السيوطي في النوع الرابع والسبعين، وهو باب جعله تحت مسمى: باب في مفردات القرآن.

بـــاب في مفـــردات القـــرآن

وقد يتبادر للذهن أنه متعلق بغريب القرآن، ولكنه يتعلق بآثار وردت في ميزات لبعض الآيات، ومن ذلك مثلًا: أعظم القرآن، وأحكم القرآن، وأحزن القرآن، وأرجى القرآن، وأعدل القرآن، وأخوف القرآن، ونحو ذلك...

أرجى آية:

وقد اختُلف في أرجى آية في القرآن على بضعة عشر قولًا:

أحدها: آية [الزمر]، كما تقدم.

والثاني: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى﴾ [البقرة: ٢٦٠]. أخرجه الحاكم في (المستدرك)،

وأبو عبيد عن صفوان بن سليم، قالا: "التقى ابن عباس وابن عمر، فقال ابن عباس: أي آية في كتاب الله أرجى؟ فقال عبد الله بن عمر: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية. فقال ابن عباس: لكن قول الله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠]. قال: فرضي منه قوله: بلى. قال: فهذا لما يعترض في الصدر مما يوسوس به الشيطان".

الثالث: ما أخرجه أبو نعيم في (الحلية)، عن علي بن أبي طالب، أنه قال: "إنكم يا معشر أهل العراق، تقولون: أرجى آية في القرآن: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية، لكنا أهل البيت نقول: إنّ أرجى آية في كتاب الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضُّحى: ٥]، وهي: الشفاعة".

الرابع: ما أخرجه الواحدي، عن علي بن الحسين، قال: "أشدّ آية على أهل النار: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠]. وأرجى آية في القرآن لأهل التوحيد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]الآية".

وأخرج الترمذي وحسّنه، عن علي قال: "أحبّ آية إليّ في القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ الآية".

الخامس: ما أخرجه مسلم في (صحيحه)، عن ابن المبارك: "إنّ أرجى آية في القرآن: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ [النور: ٢٢] إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ ".

السادس: ما أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب (التوبة)، عن أبي عثمان النهدي، قال: "ما في القرآن آية أرجى عندي لهذه الأمّة من قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢]".

السابع، والثامن: قال أبو جعفر النحاس في قوله: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥]: "إن هذه الآية عندي أرجى آية في القرآن، إلاّ أن ابن عباس قال: أرجى آية في القرآن: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦] ".

التاسع: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، فعن عليّ، كما في (مسند أحمد) قال: "ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله تعالى حدثنا بها رسول الله ﷺ؟: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ . وسأفسِّرها لك يا عليّ: ((ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا، فبما كسبت أيديكم، والله أكرم من أن يثنّي العقوبة. وما عفا الله عنه في الدنيا، فالله أحلم من أن يعود بعد عفوه)).

العاشر: ما أخرجه ابن حاتم، عن عكرمة قال: سئل ابن عباس: "أيّ آية أرجى في كتاب الله؟ قال: قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ [الأحقاف: ١٣] على شهادة أن لا إله إلا الله".

الحادي عشر: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، قال الشبلي: "إذا كان الله أذن للكافر بدخول الباب إذا أتى بالتوحيد والشهادة، أفتراه يخرج الداخل فيها والمقيم عليها؟". وقيل غير ذلك، وهو بعيد.

وفي معنى ذلك: ما أخرجه ابن المنذر، عن ابن مسعود، أنه ذكر عنده بنو إسرائيل، وما فضّلهم الله به، فقال: "كان بنو إسرائيل إذا أذنب أحدهم ذنبًا، أصبح وقد كُتبت كفارته على أسكفّة بابه، وجعلت كفارة ذنوبكم قولًا تقولونه: تستغفرون الله فيغفر لكم. والذي نفسي بيده، لقد أعطانا الله آية لهي أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]الآية".

أشدّ آية:

وأمّا أشدّ آية ففيه: ما أخرجه ابن راهويه في (مسنده)، عن محمد بن المنتشر قال: "قال رجل لعمر بن الخطاب: إني لأعرف أشد آية في كتاب الله تعالى. فأهوى عمر فضربه بالدّرة، وقال: مالك نقبت عنها حتى علمتها، ما هي؟ قال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، فما منا أحد يعمل سوءًا إلا جزي به. فقال عمر: لبثنا حين نزلت، ما ينفعنا طعام ولا شراب، حتى أنزل الله بعد ذلك، ورخّص: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]".

وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن، قال: "سألت أبا برزة الأسلمي عن أشدّ آية في كتاب الله تعالى على أهل النار؟ فقال: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠]".

وفي (صحيح البخاري) عن سفيان، قال: "ما في القرآن آية أشدّ علي من: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨]".

وأخرج ابن المبارك في (كتاب الزهد)، عن الضحاك بن مزاحم: قرأ في قول الله: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ قال: "والله ما في القرآن آية أخوف عندي منها".

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن، قال: "ما أنزلت على النبي ﷺ آية كانت أشدّ عليه من قوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]الآية".

وقال مالك: "أشد آية على أهل الأهواء: قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]الآية"؛ فتأوّلها على أهل الأهواء.

أخوف آية :

وأمّا أخوف آية : فقد أخرج ابن المنذر، عن ابن سيرين : "لم يكن شيء عندهم أخوف من هذه الآية : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٨].

وعن أبي حنيفة : "أخوف آية في القرآن : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣١]".

وقال غيره : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ [الرحمن: ٣١]؛ ولهذا قال بعضهم : "لو سمعت هذه الكلمة من خفير الحارة لم أنَمْ".

آداب التالي للقرآن الكريم

عناصر الدرس

آداب تـالي القـرآن

ذكر السيوطي هذا العلم تحت النوع الخامس والثلاثين من علوم القرآن. وأفرده بالتصنيف: الإمام النووي - رحمه الله- في كتاب سماه: (التبيان في آداب حمَلة القرآن)؛ وهو كتاب لطيف، مطبوع ومتداول. ولكون النووي - رحمه الله- شافعي المذهب، فقد درج في كتابه على تقرير ما في مذهبه غالبًا، فليُراعَ ذلك.

واستفتح النووي كتابه بذكر جُملة من فضائل تلاوة القرآن، وفضل حمَلته، كما بدأ السيوطي كلامه بالحث على الإكثار من قراءة القرآن، وفضل ذلك.

ونحن -بحمد الله- قد ذكرنا طرفًا من ذلك فيما سبق، فلا حاجة لإعادته، ونزيد هنا:

ما رواه أبو داود، عن أبي موسى الأشعري > قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنّ من إجلال الله تعالى: إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه، والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط)). قال النووي: "هو حديث حسن".

قال النووي: "واعلَمْ: أن المذهب الصحيح المختار، الذي عليه من يُعتمد من العلماء: أن قراءة القرآن أفضل من التسبيح والتهليل، وغيرهما من الأذكار؛ وقد تظاهرت الأدلة على ذلك".

ومن الآداب التي ينبغي أن يلتزمها تالي القرآن، معلِّمًا ومتعلِّمًا، جملة يشترك فيها كل معلّم ومتعلّم، لأيّ من العلوم الشرعية. وقد اهتم بها جماعة من العلماء، وصنّفوا فيها الكتب.

ومن ذلك: كتاب (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع) للخطيب البغدادي، وكتاب (جامع بيان العلم وفضله) لابن عبد البر، وكتاب (تذكرة السامع والمتكلم) لابن جماعة، وغيرها...

وأهم هذه الآداب:

إخلاص النية لله، لأنها أساس قبول العمل:

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البيِّنة: ٥]. وقال: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴾ [الزُّمَر: ١٤]. وفي (الصحيحين) عن رسول الله ﷺ: ((إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى)).

فيجب على تالي القرآن أن يخلص نيته لله تعالى، وأن لا يقصد توصلًا إلى غرض من أغراض الدنيا: من مال، أو رياسة، أو وجاهة، أو ارتفاع على أقرانه، أو ثناء عند الناس، أو صرف وجوه الناس إليه، أو نحو ذلك...

ولا يشوب المقرئ إقراءه بطمع في رفق يحصل له من بعض من يقرأ عليه، سواء كان الرفق مالًا أو خدمة وإن قلّ، ولو كان على صورة الهدية التي لولا قراءته عليه لما أهداها إليه.

عن أبي هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((من تعلّم علْمًا يبتغى به وجه الله تعالى، لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضًا من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة)). قال النووي: "رواه أبو داود بإسناد صحيح".

وعن أنس، وحذيفة، وكعب بن مالك ﭫ: أن رسول الله ﷺ قال: ((من طلب العلم ليماري به السفهاء، أو يكاثر به العلماء، أو يصرف به وجوه الناس إليه،

فليتبوأ مقعده من النار)). رواه الترمذي من رواية كعب بن مالك، وقال: ((أدخله النار)).

ومِن أهم الآداب أيضًا:

أن يعمل بما يعلم:

فقد قال بعضهم: هتف العلم بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل.

وعن علي بن أبي طالب < أنه قال: "يا حملة القرآن -أو قال: يا حملة العلْم- ، اعملوا به؛ فإنما العالِم من عَمِل بما علِم، ووافق علْمُه عملَه. وسيكون أقوام يحملون العلْم لا يجاوز تراقيهم، يخالف عمَلُهم علْمَهم، وتخالف سريرتهم علانيتهم، يجلسون حِلقًا يباهي بعضهم بعضًا، حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدَعه؛ أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله تعالى". رواه الدارمي.

ومن الآداب المتأكدة لتالي القرآن:

أنه يستحبّ له الإكثار من تلاوته:

قال تعالى مثنيًا على من كان ذلك دأبه: ﴿يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

وفي (الصحيحين) من حديث ابن عمر: ((لا حسَد إلا في اثنتيْن: رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار)).

والأحاديث في فضل قراءة القرآن كثيرة، ذكرنا بعضها فيما سبق.

وأخرج البيهقي، من حديث عائشة: ((البيت الذي يُقرأ فيه القرآن يتراءى لأهل السماء كما تتراءى النجوم لأهل الأرض)).

وأخرج من حديث أنس: ((نوّروا منازلكم بالصلاة وقراءة القرآن)).

وأخرج من حديث النعمان بن بشير: ((أفضل عبادة أمتي: قراءة القرآن)).

وأخرج من حديث سمرة بن جندب: ((كلّ مؤدب يحب أن تؤتَى مأدبته، ومأدبة الله: القرآن؛ فلا تهجروه)).

وهذه الأحاديث للاستئناس، فإن فيها ضعفًا.

ما ورد في قدر ما يقرأ القارئ القرآن يوميًا

أما ما ورد في قدر ما يقرأ القارئ من القرآن يوميًا:

فقد كان للسلف في قدْر القراءة عادات:

فأكثر ما ورد في كثرة القراءة من كان يختم في اليوم والليلة ثماني ختمات: أربعًا في الليل، وأربعًا في النهار. ويليه من كان يختم في اليوم والليلة أربعًا، ويليه ثلاثًا، ويليه ختمتيْن، ويليه ختمة.

قال أبو عثمان المغربي: "كان ابن الكاتب > يختم بالنهار أربع ختمات، وبالليل أربع ختمات". قال السيوطي: "وهذا أكثر ما بلغنا من اليوم والليلة".

ومن الذين كانوا يختمون ثلاث ختمات: سليم بن عمر > ، قاضي مصر في خلافة معاوية > . وروى أبو بكر بن أبي داود: "أنه كان يختم في الليلة أربع ختمات، وكذا أبو عمر الكندي في كتابه في قضاة مصر".

ومن الذين كانوا يختمون ختمة في الليل واليوم: عثمان بن عفان > ، وتميم الداري، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والشافعي، وآخرون.

وعن منصور بن زاذان -وهو من عبّاد التابعين- أنه كان يختم القرآن فيما بين الظهر والعصر، ويختمه أيضًا فيما بين المغرب والعشاء، في رمضان ختمتيْن. وكانوا يؤخرون العشاء في رمضان إلى أن يمضي ربع الليل.

وروى أبو داود، بإسناد صحيح: "أن مجاهدًا كان يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء".

وعن منصور قال: "كان علي الأزدي يختم فيما بين المغرب والعشاء كل ليلة من رمضان".

وعن إبراهيم بن سعد قال: "كان أبي يحتبي، فما يحلّ حبوته حتى يختم القرآن".

قال النووي: "وأما الذي يختم في ركعة، فلا يُحصَوْن لكثرتهم:

فمن المتقدمين: عثمان بن عفان، وتميم الداري، وسعيد بن جبير } ختمة في كل ركعة في الكعبة.

قلت: روى ابن نصر المروزي، في كتاب (قيام الليل)، آثارًا مشابهة أيضًا.

وقد ذمّت عائشة ذلك: فأخرج ابن أبي داود، عن مسلم بن مخراق قال: "قلت لعائشة: إن رجالًا يقرأ أحدهم القرآن في ليلة مرتين أو ثلاثًا. فقالت: قرؤوا ولم يقرؤوا. ((كنت أقوم مع رسول الله ﷺ ليلة التمام، فيقرأ بـ(البقرة)، و(آل عمران)، و(النساء)؛ فلا يمر بآية فيها استبشار إلا دعا ورغب، ولا بآية فيها تخويف إلا دعا واستعاذ)).

قلت: قد ثبت مثل ذلك في حديث قيام حذيفة مع رسول الله ﷺ.

قال السيوطي: "ويلي ذلك: من كان يختم في ليلتيْن. ويليه من كان يختم في كل

ثلاث، وهو حسن".

وأخرج ابن أبي داود، وسعيد بن منصور، عن ابن مسعود، موقوفًا، قال: ((لا تقرؤوا القرآن في أقلّ من ثلاث)).

وأخرج أبو عبيد، عن معاذ بن جبل: "أنه كان يكره أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث".

ويليه: مَن خَتم في أربع، ثم في خمس، ثم في ست، ثم في سبع؛ وهذا أوسط الأمور وأحسنها؛ وهو فعل الأكثرين من الصحابة وغيرهم.

أخرج الشيخان، عن عبد الله بن عمرو قال: قال لي رسول الله ﷺ: ((اقرأ القرآن في شهر. قلت: إني أجد قوة. قال: اقرأه في عشر. قلت: إني أجد قوّة. قال: اقرأه في سبع، ولا تزِدْ على ذلك)).

ويلي ذلك: مَن خَتم في ثمان، ثم في عشر، ثم في شهر، ثم في شهرين.

أخرج ابن أبي داود، عن مكحول قال: "كان أقوياء أصحاب رسول الله ﷺ يقرؤون القرآن في سبع، وبعضهم في شهر، وبعضهم في شهرين، وبعضهم في أكثر من ذلك".

وقال أبو الليث في (البستان): "ينبغي للقارئ: أن يختم في السَّنة مرتيْن إن لم يقدر على الزيادة".

وقد روى الحسن بن زياد، عن أبي حنيفة أنه قال: "من قرأ القرآن في كل سَنة مرتيْن، فقد أدى حقه، لأن النبي ﷺ عرض على جبريل في السَّنة التي قُبض فيها مرتيْن".

وقال غيره: "يكره تأخير ختمه أكثر من أربعين يومًا بلا عذر، نص عليه أحمد، لأن عبد الله بن عمر سأل النبي ﷺ: في كم نختم القرآن؟ قال: ((في أربعين يومًا)). رواه أبو داود.

قال النووي: "المختار: أنّ ذلك يختلف باختلاف الأشخاص؛ فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف، فليقتصر على قدر يحصل له معه كمال فهم ما يقرأ، وكذلك من كان مشغولًا بنشر العلم أو فصل الحكومات، أو غير ذلك من مهمات الدين والمصالح العامة، فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصد له ولا فوات كماله. وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين، فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل أو الهذرمة في القراءة".

قراءة الليل:

وينبغي لقارئ القرآن أن يكون اعتناؤه بقراءة الليل أكثر، قال الله تعالى: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣، ١١٤].

وثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((نعم الرجل عبد الله، لو كان يصلّي من الليل)). وفي الحديث الآخر من الصحيح: أنه ﷺ قال: ((يا عبد الله، لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل ثم ترَكه)). وروى الطبراني وغيره، عن سهل بن سعد > عن رسول الله ﷺ قال: ((شرف المؤمن: قيام الليل)).

قال النووي: "وإنما رجحت صلاة الليل وقراءته، لكونها أجمع للقلب، وأبعد عن الشاغلات والملهيات والتصرف في الحاجات، وأصون عن الرياء وغيره من المحبطات، مع ما جاء الشرع به من إيجاد الخيرات في الليل؛ فإن الإسراء برسول الله ﷺ كان ليلًا، وحديث: ((ينزل ربكم كل ليلة إلى سماء الدنيا، حين يمضي شطر الليل، فيقول: هل من داع فأستجيب له)) الحديث.

وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: ((في الليل ساعة، يستجيب الله فيها الدعاء كل ليلة)).

قال: "واعلَمْ: أن فضيلة القيام بالليل والقراءة فيه، تحصل بالقليل والكثير؛ وكلما كثر كان أفضل، إلا أن يستوعب الليل كله، فإنه يُكره الدوام عليه".

وحكى الثعلبي عن ابن عباس } قال: "من صلى بالليل ركعتيْن، فقد بات لله ساجدًا وقائمًا".

قلت: تقدّم حديث أبي مسعود البدري في الصحيح: ((من قرأ بالآيتيْن من سورة البقرة في ليلة كفتاه)). فمما قيل فيه، وروي في بعض الروايات: ((كفتاه من قيام الليل)).

وينبغي لقارئ القرآن: أن يتعاهده لئلا ينساه:

فعن أبي موسى الأشعري < : أن رسول الله ﷺ قال: ((تعاهدوا هذا القرآن؛ فوالذي نفس محمد بيده، لهو أشد تفلتًا من الإبل في عُقُلها)). رواه البخاري ومسلم.

وعن ابن عمر } : أن رسول الله ﷺ قال: ((إنما مثَل صاحب القرآن كمثَل

الإبل المعقلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبتْ)). رواه مسلم والبخاري.

نسيان القرآن

وأما نسيان القرآن: فقد قال السيوطي: "نسيانه كبيرة، صرح به النووي في (الروضة) وغيرها...".

وعن أنس بن مالك > قال: قال رسول الله ﷺ: ((عُرِضت علي أجور أمتي، حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد. وعُرِضت علي ذنوب أمتي، فلم أر ذنبًا أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيَها رجل ثم نسِيَها)). رواه أبو داود، والترمذي. قال النووي: "وتُكلِّم فيه".

وعن سعد بن عبادة عن النبي ﷺ قال: ((من قرأ القرآن ثم نسيَه، لقي الله ﷻ يوم القيامة وهو أجذم)). رواه أبو داود والترمذي.

قلت: أعوذ بالله من هذا الحكم، بل لا يصل إلى الصغيرة؛ وغاية أمره أنه يُكره تنزيهًا. فهذه الأحاديث فيها مقال، ولا تثبت. وقد ثبت: أن النبي ﷺ نسي شيئًا من القرآن، وقال الله تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأعلى: ٦، ٧].

وأمْر النسيان ليس بيد الإنسان غالبًا، إلا إذا كان عن إهمال متعمَّد.

ويدل على ذلك: ما ورد في النهي عن قول القائل: "نسيتُ آية كذا وكذا"، بل يقول: "نُسِّيتُ"، أو "أُنسِيتُ".

نعم. لا ينبغي لحامل القرآن أن يهمل؛ بل يحرص على تعاهد القرآن، كما تقدّم، لئلا يخسر الأجر العظيم المترتب على حفظ القرآن. وقد سبق حديثنا عنه مفصّلًا.

ولو افترض ثبوت شيء من الوعيد على نسيان شيء من القرآن، فالأرجح أن المراد بالنسيان فيه: الترك، أي: إهمال العمل، وعدم القيام بما جاء فيه، على غرار قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦]، وقوله: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١].

ويستحب لمن نام عن ورد له كان يقرؤه من الليل: أن يقضيَه.

فعن عمر بن الخطاب > قال: قال رسول الله ﷺ: ((من نام عن حزبه من الليل، أو عن شيء منه، فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كتب له كأنه قرأه من الليل)). رواه مسلم.

ويُستحب الوضوء لقراءة القرآن، لأنه أفضل الأذكار، وقد كان ﷺ يكره أن يذكر الله إلا على طهر، كما ثبت في الحديث.

وقال النووي: "إن قرأ محدثًا جاز، بإجماع المسلمين؛ والأحاديث فيه كثيرة معروفة.

وقال إمام الحرمين: "ولا يقال: ارتكب مكروهًا؛ بل هو تارك للأفضل. فإن لم يجد الماء تيمم. والمستحاضة في الزمن المحكوم بأنه طهر، حُكمها حكم المحدث".

وقال أيضًا: "ولا تكره القراءة للمحدث، لأنه صح ((أن النبي ﷺ كان يقرأ مع الحدث)).

قلت: روى مالك في (الموطأ): أنّ سلمان خرج من الخلاء، فقرأ القرآن، فقال له رجل: ألا تتوضأ؟ فقال له سلمان مستنكرًا: مَن أمَرَك بهذا؟ أمسيلمة؟".

وفي (شرح المهذب): "إذا كان يقرأ فعرضت له ريح، أمسك عن القراءة حتى يستقيم خروجها".

قال النووي: "وأما الجنب والحائض، فإنه يحرم عليهما قراءة القرآن، سواء كان آية أو أقل منها. ويجوز لهما إجراء القرآن على قلبهما من غير تلفظ به. ويجوز لهما النظر في المصحف، وإمراره على القلب. وأجمع المسلمون على جواز التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير والصلاة على النبي ﷺ، وغير ذلك من الأذكار للجُنُب والحائض. قال أصحابنا: وكذا إن قالا لإنسان: "خذ الكتاب بقوة" وقصدا به غير القرآن، فهو جائز، وكذا ما أشبهه. ويجوز لهما أن يقولا عند المصيبة: "إنا لله وإنا إليه راجعون" إذا لم يقصدا القرآن... ويجوز لهما قراءة ما نُسخت تلاوته كـ"الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة".

وإذا لم يجد الجنب أو الحائض ماء، تيمم؛ ويباح له القراءة والصلاة، وغيرهما. فإن أحدث، حرمت عليه الصلاة، ولم تحرم القراءة والجلوس في المسجد وغيرهما، مما لا يحرم على المحدث... وذكر بعض أصحاب الشافعي: أنه إذا تيمم في الحضر استباح الصلاة، ولا يقرأ بعدها، ولا يجلس في المسجد. والصحيح: جواز ذلك... قال: "أما إذا لم يجد الجنب ماء ولا ترابًا، فإنه يصلي لحرمة الوقت على حسب حاله، ويحرم عليه القراءة خارج الصلاة، ويحرم عليه أن يقرأ في الصلاة ما زاد على (فاتحة الكتاب). وهل يحرم عليه قراءة (الفاتحة)؟ فيه وجهان: الصحيح المختار: أنه لا يحرم؛ بل يجب... إلى آخر كلامه - رحمه الله- ".

وهذا التشديد العجيب عند جماعة من أهل العلم، في قراءة الحائض والجُنب للقرآن، أمره عجيب. وبعض العلماء فرّق بين الحائض وبين الجُنب، وهما أهل للتفرقة، لأن الحائض حدثُها مستمر، ولم يحصل لها باختيارها، ولا تستطيع أن

تنفك عنه بإرادتها. قال النبي ﷺ لعائشة عندما حاضت وبكت: ((ذاك أمرٌ كتبه الله على بنات حواء)). أخرجه البخاري.

فليت شعري، كيف تمكث الحائض سبعة أيام، أو النفساء أربعين يومًا، لا تقرأ شيئًا من كتاب ربها، ولا تتعوذ بالمعوذات صباحًا ومساءً، وقبل النوم، ولا ترقي نفسها ولا أبناءها عند المرض بكتاب الله، ولا تقرأ آية الكرسي قبل منامها، وهي أحوج ما يكون في حالتها ألا يقربها الشيطان؟ وكيف تترك قراءة خواتيم البقرة، لتكفيها في ليلتها؟ إلى غير ذلك... ولذا أجاز لها مالك وغيره القراءة.

أما الجُنب، فيمكنه إزالة الجنابة متى شاء، وهو المتسبب فيها، إلا من احتلام. ومدة الجنابة قصيرة، فيلزمه رفعها عند حلول أول صلاة. فالفرق واضح جدًّا.

وعلى كل، فليس هناك دليل يُعتمد لمنع الحائض والجُنب عن قراءة القرآن؛ ولذا ذهب جماعة من أهل العلم لجوازه مطلقًا، وإن كان الأوْلى أن يمتنع الجُنب، اقتداء برسول الله ﷺ؛ فقد روي عنه: ((أنه لم يكن يمنعه من القرآن شيء إلا الجنابة)). وهو مع ما قيل في تضعيفه لا يدل على المنع. وثبت عن عائشة أن رسول الله ﷺ: ((كان يذكر الله على كل أحيانه))، وهذا يشمل القرآن وغيره.

وقد صح عن ابن عباس: أنه كان لا يرى بالقراءة للجنب بأسًا، وكان يقرأ وِرْده وهو جُنب.

وقال حماد: "سألت سعيد بن المسيّب عن الجُنب، هل يقرأ القرآن؟ فقال: فكيف لا يقرؤه، وهو في جوفه؟".

وكذا جاء عن سعيد بن جبير وعكرمة، وقال به الطبري، وابن المنذر، وداود، وغيرهم...

أما ما روي في الحديث: ((لا يقرأ الحائض ولا الجُنب شيئًا من القرآن))، فهو حديث ضعيف لا يثبت.

والبعض يجيز للحائض القراءة للحاجة، مِن تعلّم أو تعليم، أو للتعوذ ونحو ذلك؛ وإطلاق الجواز هو الصواب، والله تعالى أعلم.

قال السيوطي: "وأما متنجس الفم، فتُكره له القراءة، وقيل: تحرم، كمسّ المصحف باليد النجسة".

ولا يوجد دليل على ذلك، والأوْلى -لا شك-: إزالة النجاسة المتلبس بها لاستحباب الطهارة مطلقًا.

مس المصحف للقارئ المحدث سواء أكان حدثًا أصغر أم أكبر

قال النووي: "يحرُم على المحدِث مسّ المصحف، وحملُه، سواء حمَلَه بعلاقته أو بغيرها، سواء مسّ نفس الكتابة أو الحواشي أو الجِلد. ويحرم مسّ الخريطة والغلاف والصندوق، إذا كان فيهن المصحف: هذا هو المذهب المختار. وقيل: لا تحرم هذه الثلاثة؛ وهو ضعيف.

ولو كُتب القرآن في لوح، فحُكمه حُكم المصحف، سواء قلّ المكتوب أو كثر، حتى لو كان بعض آية كُتب للدراسة، حرُم مسّ اللوح".

قال: "إذا تصفّح المحدِث، أو الجنب، أو الحائض، أوراق المصحف بعُود أو شبهه، ففي جوازه وجهان لأصحابنا:

أظهرُهما: جوازه؛ وبه قطع العراقيون من أصحابنا، لأنه غير ماسٍّ ولا حامل.

والثاني: تحريمه، لأنه يُعدّ حاملًا للورقة، والورقة كالجميع.

وأمّا إذا لفّ كمّه على يده، وقلَب الورقة، فحرام بلا خلاف. وغلط بعض أصحابنا، فحكى فيه وجهين؛ والصواب: القطع بالتحريم، لأن القلْب يقع باليد، لا بالكم".

قال: "إذا كتب الجنب أو المحدث مصحفًا، إن كان يحمل الورقة أو جسّها حال الكتابة، فحرام، وإن لم يحملها ولم يمسّها، ففيه ثلاثة أوجه: الصحيح: جوازه. والثاني: تحريمه. والثالث: يجوز للمحدِث، ويحرم على الجُنب".

قال: "إذا مسّ المحدِث، أو الجُنب، أو الحائض، أو حمَل كتابًا من كتب الفقه، أو غيره من العلوم، وفيه آيات من القرآن، أو ثوبًا مطرزًا بالقرآن، أو دراهم أو دنانير منقوشة به، أو حمَل متاعًا في جملته مصحف، أو لمس الجدار أو الحلوى أو الخبز المنقوش به، فالمذهب الصحيح: جواز هذا كله، لأنه ليس بمصحف، وفيه وجه أنه حرام".

قال: وأمّا كتب تفسير القرآن، فإن كان القرآن فيها أكثر من غيره، حرم مسّها وحملها. وإن كان غيره أكثر، كما هو الغالب، ففيها ثلاثة أوجه: أصحّها: لا يحرم. والثاني: يحرم. والثالث: إن كان القرآن بخط متميز بغلظ أو حمرة أو غيرها، حرُم، وإن لم يتميز لم يحرم".

قال: "من لم يجد ماء فتيمم حيث يجوز التيمم، له مس المصحف، سواء كان تيمّمه للصلاة أو لغيرها مما يجوز التيمم له. وأمّا من لم يجد ماء ولا ترابًا، فإنه يصلي على حسب حاله، ولا يجوز له مسّ المصحف لأنه مُحدث؛ جوزنا له الصلاة للضرورة. ولو كان معه مصحف، ولم يجد من يُودعه عنده، وعجز عن الوضوء، جاز له حملُه للضرورة".

قال: "هل يجب على الوليّ والمعلِّم تكليف الصبيّ المميز الطهارة لحمل المصحف واللوح اللّذيْن يقرأ فيهما؟ فيه وجهان مشهوران: أصحهما عند الأصحاب: لا يجب، للمشقة".

قلت: ذكرت هذه النقول، للنظر والتعجب من هذه التدقيقات والخلافات العجيبة، التي تتفاوت بين أصحاب المذهب الواحد؛ وما ذلك إلا لأنها بمعزل عن الدليل الصحيح. فإنّ القول بما تقدم، فيه نظر واسع. وأوّل ذلك: مسّ القرآن المختلط بغيره، فقد ثبت في الصحيح في حديث هرقل: ((أن النبي ﷺ كتب له آية من القرآن في كتابه))، وقد مسّها هو وغيره من المشركين النجسين، فلأَن يمسّها المسلم المحدِث من باب أوْلى. ولم ينقل أن النبي ﷺ أمر أحدًا ممن حمَل الرسالة، أن يتوضأ لحملها، ولا يوجد رائحة نص تمنع من مسّ ما كان كذلك. وهذه واحدة.

أما الثانية: فإن كان جمهور أهل العلم على منع المحدِث من مس المصحف، ومع التسليم بأنه لا شكّ أنّ الأوْلى عدم المس خروجًا من الخلاف، إلاّ أن المسألة لا دليل عليها ينتهض للاحتجاج، مع التخبط في مسّه بحائل، وحمْله بواسطة، وتقليبه بأداة، في تدقيقات ما أنزل الله بها من سلطان، وليس لها حدّ ثابت يضبطها حتى مع التسليم بها.

وغاية ما يُحتجّ به في المنع، عند بعض أهل العلم: قوله تعالى: ﴿ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٨، ٧٩].

وهذه الآية لا علاقة لها بمس المصحف لأمور عدّة، منها:

أولًا: اتفاق السلف على تفسيرها -بلا أدنى خلاف- بأن المراد بذلك: اللوح المحفوظ، الذي عند الله، وأنّ ﴿ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ هم: الملائكة. وقد قال الإمام مالك: "هي مثل

أختها: ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس: ١٣ - ١٦]".

ثانيًا: أنّ الآية خبرية، وإخراجها عن حقيقتها إلى المجاز، وأنّ المراد بالخبر فيها: الإنشاء وهو: النهي، خلاف الأصل، وبغير دليل.

ثالثًا: أن لفظ "مطهرون" لا يصحّ حمله على المتطهرين؛ لأن المراد مَن طهره الله وهم: الملائكة، لا مَن طهر نفسَه بنفسه.

رابعًا: أن الآية مكية بالاتفاق، ولم يكن ثم تشريعات دقيقة كهذه، بل إن البعض ينازع في فرض الوضوء وقتئذ.

خامسًا: أنه لم يكن وقتئذ مصحف حتى ينهى عن مس المحدِث له. فليت شعري كيف ينهى عما لا يوجد؟!

سادسًا: أن القرآن، لو سلّمنا أنه كان قد كُتب بعضه في مكة، وأنه يمكن أن يُطلق عليه "مصحف" تجاوزًا، فهو آيات كُتبت في عظام الحيوانات، وفي الحجارة، وورق الشجر، فكيف يقال عن ذلك: ﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ ؟!

سابعًا: أين هذا المعنى المزعوم من سياق الآيات؟ لا رابط البتة بين الآيات وبين هذا المعنى؛ وإنما نزلت هذه الآيات ردًا على المشركين -كسائر أخواتها- في ادّعائهم تنزّل الشياطين به على النبي ﷺ، فقال لهم الله: إن هذا القرآن عنده محفوظ مصون، لا يصل إليه إلا الملائكة المقرّبون، ولا ينزل به غيرهم.

وقال بعضهم: إن في الآية إرشادًا لعدم مس المصحف للمحدِث، اقتداء بعدم مس اللوح المحفوظ إلاّ من المطهرين وهم: الملائكة. وهذا القول مع التسليم، لا حُجّة فيه على المنع، وإنما يكون من باب الأفضلية فقط. وقد قرّرنا ذلك.

وثمة دليل آخر: وهو ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال: ((لا يمسّ القرآن إلا

طاهر))، وهذا جزء من كتاب عمرو بن حزم. وقد طعن في إسناده جماعة من أهل العلم وضعّفوه. وعلى التسليم بثبوته، فالمراد بقوله: ((طاهر)) هنا، أي: مُسلم، لأن الكتاب هذا أرسل إلى بلد بها أهل كتاب، فهو مثل ما ثبت في الصحيح من نهي النبي ﷺ عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله. والمسلم طاهر دائمًا، كما قال النبي ﷺ لأبي هريرة، عندما تحرّج من السلام عليه وهو جُنب: ((سبحان الله! إن المؤمن لا ينجس)).

كما كان النبي ﷺ يدعو الكاتب ليكتب له القرآن، فلا يستفصل منه: هل هو على طهارة من الحدثين أم لا؟ بل كان يكتب له -كما في الصحيحين- مَن كان منافقًا وارتد وتنصّر ومات ولم تَقبلْه الأرض.

وكان علقمة بن قيس - رحمه الله- إذا أراد أن يتخذ مصحفًا، أمر نصرانيًّا فنسخه له.

والبعض يقول: هذا من تعظيم شعائر الله، ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

والجواب: أن الاستدلال بالآية في غير محلّه. ولو سلم لقيل: وجه التعظيم لا بد فيه من دليل يدل عليه، ولو كان ذلك بالاجتهاد لكانت كتابة القرآن في الرقاع والعسب واللخاف مخالفة للتعظيم، وكان على النبي ﷺ أن يكتب القرآن في أرقى أنواع الورق في زمانه، وبماء الذهب.

وليس لمس الصحيفة التي كتب بها القرآن، بأعظم من وجود القرآن في الصدر، وقد وصف الله القرآن بقوله: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟

ٱلْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩]؛ فالجنب مماس للقرآن، مخالط له، بحفظه في صدره.

والخلاصة: أنه لا دليل على المنع، وإن كان الخروج من الخلاف أوْلى. والله أعلم.

مكان التلاوة:

ويستحب أن تكون القراءة في مكان نظيف مختار. ولهذا استحب جماعة من العلماء القراءة في المسجد، لكونه جامعًا للنظافة وشرف البقعة.

وأما القراءة في الحمّام، فقد اختلف السلف في كراهيتها. فقال جماعة: لا يكره. ونقله ابن المنذر عن إبراهيم النخعي، ومالك؛ وهو قول عطاء.

وذهب إلى كراهته جماعة، وقال الشعبي: تكره القراءة في ثلاثة مواضع: في الحمامات، والحشوش، وبيوت الرحى وهي تدور. وعن أبي ميسرة قال: لا يذكر الله إلا في مكان طيب.

وأما القراءة في الطريق، فالمختار: أنها جائزة غير مكروهة، إذا لم يلْته صاحبها، فإنِ الْتهى عنها كُرهت. وعن أبي الدرداء > : أنه كان يقرأ في الطريق. وعن عمر بن عبد العزيز - رحمه الله- : أنه أذن فيها. وعن ابن وهب قال: "سألت مالكًا عن الرجل يصلي من آخر الليل، فيخرج إلى المسجد، وقد بقي من السورة التي كان يقرأ فيها شيء. قال: ما أعلم القراءة تكون في الطريق؛ وكره ذلك". وهذا إسناد صحيح عن مالك - رحمه الله- .

قلت: لا يوجد دليل على المنع من شيء من ذلك. ولاشك أن الأفضل: القراءة الخاشعة في المكان الطيب. وقد ثبتت قراءة النبي ﷺ في الطريق عام الفتح، وهو على ناقته، كما في الصحيح.

وضعية القارئ عند التلاوة.

ويستحب للقارئ في غير الصلاة: أن يستقبل القبلة؛ فقد جاء في الحديث: ((خير المجالس ما استقبل به القبلة)). ويجلس متخشعًا بسكينة ووقار، مطرقًا رأسه؛ وهذا هو الأكمل. ولو قرأ قائمًا، أو مضطجعًا، أو في فراشه، أو على غير ذلك من الأحوال، جاز، وله أجر، ولكن دون الأوّل. قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٢٠]. وثبت في الصحيح عن عائشة < قالت: ((كان رسول الله ﷺ يتكئ في حجري، وأنا حائض، ويقرأ القرآن)). رواه البخاري ومسلم. وفي رواية: ((يقرأ القرآن، ورأسه في حجري)). وعن أبي موسى الأشعري < قال: "إني أقرأ القرآن في صلاتي، وأقرأ على فراشي". وعن عائشة < قالت: "إني لأقرأ حزبي، وأنا مضطجعة على السرير".

السواك، والاستعاذة، والبسملة، والترتيل

السواك:

ومن هذه الآداب أنه يُسنّ لتالي القرآن أن يستاك، تعظيمًا وتطهيرًا:

فقد روى ابن ماجه عن عليّ موقوفًا، والبزار، قال السيوطي: "بسند جيد عنه"، مرفوعًا: ((إنّ أفواهكم طرقٌ للقرآن، فطيِّبوها بالسواك)).

قلت: الحديث فيه ضعف.

ولكن وردت أحاديث كثيرة في استحباب السواك مطلقًا، وفي إكثار النبي ﷺ منه، فتشمل ذلك.

الاستعاذة:

وبعد السواك، يسنّ له التعوذ:

وظاهر الأمر فيه الوجوب، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨]، أي: إذا أردت قراءته.

وفي أمر الاستعاذة مسائل، حرر القول فيها: الإمام ابن الجزري، والنووي، وغيرهما... وخلاصتها: أنه قد قيل بالاستعاذة بعد القراءة، وهو قول واهٍ. والصحيح: قبل القراءة.

واختلف في لفظها؛ وأكمل ذلك: أن يقول: "أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همْزِهِ ونفْخه ونفْثه". ولو اقتصر على: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"، فهو حسَن. واختلف: هل يجهر بها خارج الصلاة أم يُسِرّ؟ والمختار أن يجهر بها.

ومن مسائل الاستعاذة أيضًا: أنه إذا قطع القراءة بأمر أجنبي، يعيد الاستعاذة مرة أخرى. وإذا كان يقرأ في جمع، فلا يجزئه استعاذة غيره، قال ابن الجزري: "لأن المقصود: اعتصام القارئ، والْتجاؤه بالله من شر الشيطان؛ فلا يكون تعوّذ واحد كافيًا عن آخَر". انتهى.

البسملة:

ثم بعد الاستعاذة، يُبسمل، وفي ذلك مسائل أيضًا.

وحاصلها: أنه لا يجهر بالبسملة في الصلاة، وأمّا خارجها فحسب قراءة من يقرأ له، على تفصيل ذلك في محلّه؛ فربما بسمل جهرًا، وربما سرًا، وربما وصَل

السورتيْن بدون بسملة.

وفي الاستعاذة مع البسملة مع أول السُّورة أوجهٌ، وكذا عند وصل سورتيْن، فهناك أوْجه للقرّاء تُنظر في موضعها.

ويبسمل القارئ في بداية كل سورة، سوى سورة (براءة).

أما في وسط السوَر - ومنها (براءة) - فالبسملة مستحبّة مطلقًا، على الراجح.

الترتيل:

ويسنّ الترتيل في قراءة القرآن:

قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزَّمل: ٤]. وروى أبو داود وغيره، عن أم سلمة: أنها نعتت قراءة النبي ﷺ قراءة مفسّرة حرفًا حرفًا.

وفي البخاري، عن أنس: أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ، فقال: ((كانت مدًّا)). ثم قرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]: يمدّ ﴿ٱللَّهِ﴾، ويمدّ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، ويمدّ ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾.

وأخرج الآجري، عن ابن مسعود قال: "لا تنثروه نثْر الدّقَل، ولا تهذّوه هذّ الشِّعر. قفوا عند عجائبه، وحرّكوا به القلوب. ولا يكون همّ أحدكم آخِر السورة".

والقراءة من حيث السرعة، على ثلاثة أحوال: التحقيق، والتوسط، والحدْر؛ وتفصيل ذلك في علم التجويد.

التجويد:

ويجب على القارئ أن يراعي فيها جميعًا أحكام التجويد:

قال ابن الجزري:

والأخذ بالتجويدِ حتمٌ لازمُ ❖ مَن لم يُجَوِّدِ القرآنَ آثمُ

لأنه به الإلهُ أنزلاَ ❖ وهكذا منه إلينا وصلاَ

وتحرير ذلك في محلّه.

عدم الإسراع:

واتفقوا على كراهة الإفراط في الإسراع، وقالوا: قراءة جزء بترتيل أفضل من قراءة جزأين في قدْر ذلك الزمان بلا ترتيل.

وعن ابن عباس { قال: "لأَنْ أقرأَ سورةً أرتّلها، أحب إليّ من أن أقرأ القرآن كلّه".

وقال بعضهم: "إن ثواب قراءة الترتيل أجلّ قدرًا، وثواب الكثرة أكثر عددًا، لأن بكلّ حرف عشر حسنات".

التدبّر:

واستحباب الترتيل للتدبّر، ولأنه أقرب إلى الإجلال والتوقير، وأشد تأثيرًا في القلب؛ ولهذا يستحب للأعجمي الذي لا يفهم معناه.

وتُسنّ القراءة بالتدبر والتفهم؛ فهو المقصود الأعظم، والمطلوب الأهم؛ وبه تنشرح الصدور، وتستنير القلوب. قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩]، وقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ [محمد: ٢٤].

وصفة ذلك: أن يشغل قلبه بالتفكير في معنى ما يلفظ به، فيعرف معنى كل آية،

ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك؛ فإن كان مما قصّر عنه فيما مضى، اعتذر واستغفر. وإذا مر بآية رحمة، استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوّذ، أو تنزيه نزّه وعظم، أو دعاء تضرّعَ وطلَب.

السؤال والدعاء:

أخرج مسلم، عن حذيفة قال: ((صليتُ مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح (البقرة) فقرأها، ثم (النساء) فقرأها، ثم (آل عمران) فقرأها، يقرأ مترسّلًا: إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوّذ تعوَّذ)).

وروى أبو داود والنسائي وغيرهما، عن عوف بن مالك قال: ((قمتُ مع النبي ﷺ ليلة، فقام فقرأ سورة (البقرة)، لا يمرّ بآية رحمة إلا وقف وسأل، ولا يمرّ بآية عذاب إلا وقف وتعوّذ)).

قال النووي: "قال أصحابنا -رحمهم الله تعالى-: ويستحب هذا السؤال، والاستعاذة، والتسبيح، لكل قارئ، سواء كان في الصلاة، أو خارجًا منها. قالوا: ويُستحب ذلك في صلاة الإمام، والمنفرد، والمأموم، لأنه دعاء، فاستووا فيه كالتأمين عقب (الفاتحة). وهذا الذي ذكرناه من استحباب السؤال والاستعاذة هو: مذهب الشافعي >، وجماهير العلماء -رحمهم الله-". انتهى.

التأثر بالقرآن:

وقد روي عن بعض السلف: أنه صعق عند القراءة، ومات البعض.

فعن بهز بن حكيم: "أن زرارة بن أوفى، التابعيّ الجليل، أمّهم في صلاة الفجر، فقرأ حتى بلغ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [المدّثر: ٨، ٩]، خرّ ميتًا.

قال بهز: وكنت فيمن حمَله".

قال النووي: "والصواب: عدم الإنكار، إلا على من اعترف أنه يفعله تصنعًا. والله أعلم".

قلت: الذي لا يقدر على دفع ذلك معذور، ولكن هذا خلاف هدْي النبيﷺ، وخيار الأمة من الصحابة، وسائر التابعين، والأئمة المهديين، وهم أتقى وأورع. وقد صنّف شيخنا أبو عبد الرحمن الظاهري رسالة في إنكار ذلك، فليراجعها من شاء.

خفض الصوت عند آيات مخصوصة، ترديد بعض الآيات:

قال النووي: "ومن الآداب: إذا قرأ نحو: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠]، ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة: ٦٤]، أن يخفض بها صوته، كذا كان النخعي يفعل".

لا بأس بتكرير الآية وترديدها:

روى النسائي وغيره، عن أبي ذر: ((أن النبي ﷺ قام بآية يردّدها حتى أصبح: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ [المائدة: ١١٨] الآية)).

وعن تميم الداري > : "أنه كرر هذه الآية حتى أصبح: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ [الجاثية: ٢١] الآية".

وعن عبادة بن حمزة قال: "دخلت على أسماء > وهي تقرأ: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٧]، فوقفت عندها، فجعلت تعيدها وتدعو. فطال عليّ ذلك، فذهبت إلى السوق، فقضيت حاجتي، ثم رجعت

وهي تعيدها وتدعو".

وردّد ابن مسعود < : ﴿ رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾ [طه: ١١٤].

وردّد سعيد بن جبير: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٨١].

استحباب البكاء والتباكي، وتحسين الصوت بالقرآن

استحباب البكاء والتباكي:

ويستحب البكاء عند قراءة القرآن، والتباكي لمن لا يقدر عليه، والحزن والخشوع:

قال تعالى: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ ﴾ [الإسراء: ١٠٩].

وفي (الصحيحين): حديث قراءة ابن مسعود عن النبي ﷺ وفيه: ((فإذا عيناه تذرفان)).

وفي الصحيح: بكاء أبي بكر الصديق عند قراءة القرآن، وهو في مكة.

وفيه أيضًا: ذكر عائشة لذلك، عندما استخلفه النبي ﷺ ليصلّي بالناس في مرضه.

قال أبو حامد الغزالي: "البكاء مستحب مع القراءة وعندها، وطريقه في تحصيله: أن يحضر قلبه الحزن، بأن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد الشديد، والمواثيق والعهود، ثم يتأمل تقصيره في ذلك؛ فإن لم يحضره حزن وبكاء... فليبك على فقْد ذلك؛ فإنه من أعظم المصائب".

تحسين الصوت بالقرآن:

قال النووي: "أجمع العلماء { من السلف والخلَف من الصحابة والتابعين، ومَن بَعْدهم من علماء الأمصار أئمة المسلمين على: استحباب تحسين الصوت بالقرآن؛ وأقوالهم وأفعالهم مشهورة نهاية الشهرة. فنحن مستغنون عن نقل شيء من أفرادها؛ ودلائل هذا من حديث رسول الله ﷺ مستفيضة، عند الخاصة والعامة".

وقال السيوطي: "يُسنّ تحسين الصوت بالقراءة وتزيينها، لحديث ابن حبان وغيره: ((زيِّنوا القرآن بأصواتكم)).

وفي لفظ عند الدارمي: ((حسِّنوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسَن يزيد القرآن حُسْنًا)).

وأخرج البزار وغيره: حديث حسن: ((الصوت زينة القرآن)).

قلت: بل يجب لقوله ﷺ: ((ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن)).

قال النووي: "قال جمهور العلماء: معنى ((لم يتغنّ)): لم يحسّن صوته.

قال العلماء: فيستحب تحسين الصوت بالقراءة، وترتيبها ما لم يخرج عن حد القراءة بالتمطيط؛ فإن أفرط حتى زاد حرفًا أو أخفاه، فهو حرام.

القراءة بالألحان:

وأمّا القراءة بالألحان: فنصّ الشافعي في (المختصر): أنه لا بأس بها، وعن رواية الربيع الجيزي: "أنها مكروهة".

قال الرافعي: "قال الجمهور: ليست على قولَيْن؛ بل المكروه: أن يفرط في المد، وفي إشباع الحركات، حتى يتولّد من الفتحة ألِف، ومن الضمة واو، ومن الكسرة ياء، أو

يدغم في غير موضع الإدغام؛ فإن لم ينته إلى هذا الحد، فلا كراهة".

وقال الماوردي: "القراءة بالألحان الموضوعة، إن أخرجت لفظ القرآن عن صيغته بإدخال حركات فيه، أو إخراج حركات منه، أو قصر ممدود، أو مد مقصور، أو تمطيط يخفي به بعض اللفظ ويتلبس المعنى، فهو حرام يفسق به القارئ، ويأثم به المستمع، لأنه عدل به عن نهجه القويم إلى الاعوجاج، والله تعالى يقول: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ [الزُّمَر: ٢٨]". قال: "وإن لم يخرجه اللحن عن لفظه، وقراءته على ترتيله، كان مباحًا، لأنه زاد على ألحانه في تحسينه".

قال الشافعي في (مختصر المزني): "ويحسِّن صوته بأي وجه كان، قال: وأحبّ ما يقرأ حدرًا وتحزينًا".

قال السيوطي: "وفيه حديث: ((اقرؤوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإيّاكم ولحون أهل الكتابين، وأهل الفسق؛ فإنه سيجيء أقوام يرجّعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية، لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم وقلوب من يعجبهم شأنهم)). أخرجه الطبراني والبيهقي.

قلت: لا يصح الحديث.

فإن لم يكن حسن الصوت، حسّنه ما استطاع، بحيث لا يخرج إلى حد التمطيط.

وفي سنن أبي داود: "قيل لابن أبي مليكة: أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت؟ فقال: يُحسّنه ما استطاع".

قال النووي: "واعلم أن جماعات من السلف كانوا يطلبون من أصحاب القراءة بالأصوات الحسنة أن يقرؤوا، وهم يستمعون. وهذا متفق على استحبابه، وهو عادة الأخيار والمتعبدين وعباد الله الصالحين. وهو سُنّة ثابتة عن رسول الله ﷺ؛

فقد صح عن عبد الله بن مسعود < قال: قال لي رسول الله ﷺ: ((اقرأ عليّ القرآن. فقلت يا رسول الله: أقرأ عليك، وعليك أُنزل؟ قال: إني أحبّ أن أسمعه من غيري. فقرأت عليه سورة (النساء)، حتى إذا جئت إلى هذه الآية: ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴾ [النساء: ٤١]، قال: حسبك الآن. فالتفتُّ إليه، فإذا عيناه تذرفان)). رواه البخاري ومسلم.

وقد استحب العلماء: أن يستفتح مجلس حديث النبي ﷺ ويختم بقراءة قارئ حسَن الصوت ما تيسّر من القرآن.

التفخيم:

ويستحب قراءة القرآن بالتفخيم، لحديث الحاكم: ((نزل القرآن بالتفخيم)). قال الحليمي: "ومعناه: أنه يقرؤه على قراءة الرّجال، ولا يخضع الصوت فيه ككلام النساء". قال: "ولا يدخل في هذا كراهة الإمالة التي هي اختيار بعض القراء. وقد يجوز أن يكون القرآن نزل بالتفخيم، فرخص مع ذلك في إمالة ما يحسن إمالته".

قلت: الحديث لا يصح، وقد تعقب الذهبي الحاكم فيه. والإمالة: قراءة متواترة عن رسول الله ﷺ، ولا علاقة لها بالحديث لو صحّ.

الجهر بالتلاوة:

وقد جاءت أحاديث كثيرة في الصحيح وغيره، دالة على استحباب رفع الصوت بالقراءة. وجاءت آثار دالة على استحباب الإخفاء وخفض الصوت.

ثبت في الصحيح، عن أبي هريرة < قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن، يجهر به)). رواه البخاري ومسلم.

ومعنى ((أذِن)): استمع.

وعن أبي موسى الأشعري < : أن رسول الله ﷺ قال: ((لقد أوتيتَ مزمارًا من مزامير آل داود)). رواه البخاري ومسلم. وفي رواية لمسلم: أن رسول الله ﷺ قال له: ((لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة)).

وعن فضالة بن عبيد < قال: قال رسول الله ﷺ: ((للهُ أشد أذنًا إلى الرجل حسَن الصوت بالقرآن، من صاحب القيْنة إلى قيْنته)). رواه ابن ماجه.

قال النووي: "وفي إثبات الجهر أحاديث كثيرة. وأما الآثار عن الصحابة والتابعين من أقوالهم وأفعالهم، فأكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر؛ وهذا كله فيمن لا يخاف رياء، ولا إعجابًا، ولا نحوهما من القبائح، ولا يؤذي جماعة يلبّس عليهم صلاتهم ويخلطها عليهم".

الإسرار بالتلاوة:

وقد نقل عن جماعة السلف اختيار الإخفاء، لخوفهم مما ذكرناه. فعن الأعمش قال: "دخلت على إبراهيم وهو يقرأ بالمصحف، فاستأذن عليه رجل، فغطاه. وقال: لا يرى هذا: أني أقرأ كل ساعة".

وعن أبي العالية قال: "كنت جالسًا مع أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم- فقال رجل منهم: قرأت الليلة كذا. فقالوا: هذا حظك منه".

ويستدل لهؤلاء بحديث عقبة بن عامر < قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمُسرّ بالقرآن كالمُسرّ بالصدقة)). رواه أبو داود والترمذي والنسائي. قال الترمذي: "حديث حسن".

قال: "ومعناه: أن الذي يُسرّ بقراءة القرآن أفضل من الذي يجهر بها، لأنّ صدقة السر أفضل عند أهل العلْم من صدقة العلانية. قال: وإنما معنى هذا الحديث عند أهل العلم: لكي يأمن الرجل من العُجب، لأن الذي يُسرّ بالعمل لا يخاف عليه من العجب، كما يخاف عليه من علانيته".

قال أبو حامد الغزالي وغيره من العلماء: "وطريق الجمع بين الأحاديث والآثار المختلفة في هذا: أن الإسرار أبعد من الرياء، فهو أفضل في حق من يخاف ذلك. فإن لم يخف الرياء، فالجهر ورفع الصوت أفضل، لأن العمل فيه أكثر، ولأن فائدته تتعدى إلى غيره، والمتعدي أفضل من اللازم، ولأنه يوقظ قلب القارئ، ويجمع همّه إلى الفكر فيه، ويصرف سمعه إليه، ويطرد النوم، ويزيد في النشاط، ويوقظ غيره من نائم وغافل وينشطه. قالوا: فمهما حضره شيء من هذه النيات، فالجهر أفضل؛ فإن اجتمعت هذه النيات، تضاعف الأجر".

قال السيوطي: "ويدل لهذا الجمع: حديث أبي داود، بسند صحيح، عن أبي سعيد: ((اعتكف رسول الله ﷺ في المسجد، فسمعهم يجهرون بالقراءة، فكشف الستر وقال: ألا إن كلّكم مُناجٍ لربه، فلا يؤذينّ بعضُكم بعضًا، ولا يرفع بعضكم على بعضكم في القراءة)).

قلت: وليس شرطًا أن تكون صدقة السّر أفضل من العلانية مطلقًا، وذلك على التفصيل في قوله تعالى: ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٧١] الآية.

وما ذكر من الآثار، واضح أنه متعلق بالرياء، حتى وإن كان بالقراءة سرًّا.

وقال بعضهم: يستحب الجهر ببعض القراءة، والإسرار ببعضها، لأن المُسِرّ قد يملّ فيأنس بالجهر، والجاهر قد يكلّ فيستريح بالإسرار.

القراءة في المصحف وعدم النظر إلى ما يلهي عن القراءة

القراءة في المصحف:

قال النووي: "القراءة في المصحف أفضل من القراءة مِن حفظه، لأن النظر فيه عبادة مطلوبة".

ونقل الغزالي في (الإحياء): أن كثيرين من الصحابة كانوا يقرؤون من المصحف، ويكرهون أن يخرج يوم ولم ينظروا في المصحف.

وروى ابن أبي داود القراءة في المصحف عن كثيرين من السلف، ولم أر فيه خلافًا. ولو قيل: إنه يختلف باختلاف الأشخاص: فيختار القراءة في المصحف لمن استوى خشوعه وتدبّره في حالتي القراءة في المصحف وعن ظهر القلب. ويختار القراءة عن ظهر القلب لمن لم يكمل بذلك خشوعه، ويزيد على خشوعه وتدبّره لو قرأ من المصحف، لكان هذا قولًا حسنًا. والظاهر: أن كلام السلف وفعلهم محمول على هذا التفصيل.

قال السيوطي: "ومن أدلة القراءة في المصحف: ما أخرجه الطبراني والبيهقي في (الشُعب)، من حديث أوس الثقفي، مرفوعًا: ((قراءة الرجل في غير المصحف ألف درجة، وقراءته في المصحف تضاعف ألفَي درجة)).

وأخرج البيهقي، عن ابن مسعود، مرفوعًا: ((مَن سرّه أن يحب الله ورسوله،

فليقرأ في المصحف))، وقال: إنه منكر.

قلت: هذه كلها روايات لا تصح، ويوجد أيضًا غيرها مثلها، والعبادة لا تثبت إلا بنص شرعي صحيح، ولا يوجد. والعبرة بالتدبر والخشوع، ولم يكن ثم مصحف يُقرأ فيه على عهد رسول الله ﷺ، وكان من الندرة بمكان في الصدر الأول.

وما أخرجه البيهقي عن ابن مسعود، وقال السيوطي: بسند حسن عنه، موقوفًا: ((أديموا النظر في المصحف)) ليس صريحًا في تفضيل القراءة من المصحف، بل يمكن أن يريد به الإكثار من القراءة، فليس كل الناس يحفظ عن ظهر قلب.

القراءة جماعة:

قال النووي: "اعلَمْ: أن قراءة الجماعة مجتمعين مستحبة، بالدلائل الظاهرة، وأفعال السلف والخلَف المتظاهرة. فقد صح عن النبي ﷺ من رواية أبي هريرة وأبي سعيد الخدري { : أنه قال: ((ما مِن قوم يذكرون الله إلا حفّت بهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكَرهم الله فيمن عنده)). قال الترمذي: "حديث حسن صحيح".

وعن أبي هريرة > عن النبي ﷺ قال: ((ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفّتهم الملائكة، وذكَرهم الله فيمن عنده)). رواه مسلم.

والأحاديث في هذا كثيرة.

وعن حسان بن عطية والأوزاعي، أنهما قالا: "أوّل مَن أحدث الدراسة في

مسجد دمشق: هشام بن إسماعيل في قدمته على عبد الملك".

وأما ما روى ابن أبي داود عن الضحاك بن عبد الرحمن: أنه أنكر هذه الدراسة، وقال: "ما رأيت ولا سمعت، وقد أدركت أصحاب رسول الله ﷺ". يعني: ما رأيت أحدًا فعَلها.

قال النووي: "فهذا الإنكار منهما مخالف لما عليه السلف والخلف، ولما يقتضيه الدليل؛ فهو متروك، والاعتماد على ما تقدم من استحبابها".

قال: "وأما فضيلة من يجمعهم على القراءة، ففيها نصوص كثيرة، كقوله ﷺ: ((الدال على الخير كفاعله))، وقوله ﷺ: ((لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك مِن حُمر النّعم)). والأحاديث فيه كثيرة مشهورة. وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، ولا شك في عظم أجر الساعي في ذلك.

الإدارة بالقرآن:

وأما الإدارة بالقرآن: وهو أن يجتمع جماعة يقرأ بعضهم عُشرًا، أو جزءًا، أو غير ذلك، ثم يسكت، ويقرأ الآخّر من حيث انتهى الأول، ثم يقرأ الآخَر، فهذا جائز حسن. وقد سئل مالك - رحمه الله- ، فقال: "لا بأس به".

قلت: هو داخل فيما قبله.

الشك في بعض الحروف:

قال ابن مجاهد: "إذا شكّ القارئ في حرف: هل بالتاء أو بالياء؟ فليقرأه بالياء؛ فإن القرآن مذكّر. وإن شك في حرف هل هو مهموز، أو غير مهموز؟ فليترك الهمز. وإن شك في حرف هل يكون موصولًا أو مقطوعًا، فليقرأ بالوصل؟ وإن

شك في حرف هل هو ممدود أو مقصور؟ فليقرأ بالقصر. وإن شك في حرف هل هو مفتوح أو مكسور؟ فليقرأ بالفتح".

قلت: أما مسألة التذكير، فقد روي فيها أثر، أخرجه عبد الرزاق عن ابن مسعود قال: "إذا اختلفتم في ياء وتاء، فاجعلوها ياء، ذكِّروا القرآن".

وقد اختلف القراء في بعض ذلك، نحو: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ [النور: ٢٤].

وهذا ليس على إطلاقه، ولا يوجد دليل على سائر ما ذكره ابن مجاهد؛ وتفصيل ذلك في موضعه.

ترك: الضحك، والعبث باليد، والنظر إلى ما يُلهي:

ومما يعتنى به: احترام القرآن من أمور قد يتساهل فيها بعض الغافلين القارئين مجتمعين. فمن ذلك: -اجتناب الضحك، واللغط، والحديث في خلال القراءة، إلا كلامًا يضطر إليه. وليمتثل قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وليقتدِ بما رواه ابن أبي داود، عن ابن عمر } : "أنه كان إذا قرأ القرآن لا يتكلم حتى يفرغ منه".

ومن ذلك: العبث باليد وغيرها، فإنه يناجي ربه ﷻ، فلا يعبث بين يديه.

ومن ذلك: النظر إلى ما يلهي ويبدد الذهن.

وأقبح من هذا كله: النظر إلى ما لا يجوز النظر إليه.

وعلى الحاضرين مجلس القراءة، إذا رأوا شيئًا من المنكرات: أن يَنهَوْا عنه حسب الإمكان.

عدم جواز القراءة بالأعجمية وجواز القراءة بالقراءات العشر دون القراءات الشاذة

قراءة القرآن بالأعجمية:

ولا تجوز قراءة القرآن بالعجمية، سواء أحْسن العربية أو لم يحسنها، سواء كان في الصلاة أم في غيرها؛ فإن قرأ بها في الصلاة لم تصح صلاته. وقال أبو حنيفة: "يجوز ذلك، وتصح به الصلاة". وقال أبو يوسف ومحمد: "يجوز ذلك لمن لم يُحسن العربية، ولا يجوز لمن يُحسنها".

وقد نقل بعضهم: أن أبا حنيفة رجع عن ذلك.

ووجه المنع: أنه يُذهب إعجازه المقصود منه.

وقال القفال: "إن القراءة بالفارسية لا تتصور، قيل له: فإذًا لا يقدر أحد أن يفسّر القرآن. قال: ليس كذلك، لأن هناك يجوز أن يأتي ببعض مراد الله، ويعجز عن البعض. أمّا إذا أراد أن يقرأه بالفارسية، فلا يمكن أن يأتي بجميع مراد الله تعالى، لأن الترجمة إبدال لفظة بلفظة تقوم مقامها، وذلك غير ممكن، بخلاف التفسير".

القراءة بالقراءات العشر:

وتجوز قراءة القرآن بالقراءات العشر.

ولا يجوز بغيرها، ولا بالروايات الشاذة المنقولة عن القراء العشرة.

ولو قرأ بالشواذ في الصلاة بطلت صلاته إن كان عالِمًا. وإن كان جاهلًا لم تبطل، ولم تحسب له تلك القراءة.

وقد نقل الإمام أبو عمر بن عبد البر الحافظ: إجماع المسلمين على: أنه لا تجوز القراءة بالشاذ، وأنه لا يصلّى خلف من يقرأ بها. قال العلماء: من قرأ الشاذ: إن كان جاهلًا به أو بتحريمه عُرِّف بذلك. فإن عاد إليه، أو كان عالمًا به، عُزّر تعزيرًا بليغًا إلى أن ينتهي عن ذلك. ويجب على كل متمكن من الإنكار عليه ومنعه الإنكار والمنع.

وإذا ابتدأ بقراءة أحد القراء، فينبغي أن يستمر على القراءة بها ما دام الكلام مرتبطًا. فإذا انقضى ارتباطه، فله أن يقرأ بقراءة أحد من السبعة. والأوْلى دوامه على الأُولى في هذا المجلس.

وتحرير هذا الكلام من جمع وإفراد وخلط، في فن القراءات.

الترتيب في التلاوة:

قال العلماء: الاختيار: أن يقرأ على ترتيب المصحف، فيقرأ (الفاتحة)، ثم (البقرة)، ثم (آل عمران)، ثم ما بعدها... على الترتيب، وسواء قرأ في الصلاة أو في غيرها.

ودليل هذا: أن ترتيب المصحف إنما جُعل هكذا لحكمة؛ فينبغي أن يحافظ عليها.

ولو خالف الموالاة فقرأ سورة لا تلي الأولى، أو خالف الترتيب فقرأ سورة ثم قرأ سورة قبلها، جاز؛ فقد جاء بذلك آثار كثيرة. وقد قرأ عمر بن الخطاب > في الركعة الأولى من الصبح بـ(الكهف)، وفي الثانية بـ(يوسف).

وقد كره جماعة مخالفة ترتيب المصحف، وروى ابن أبي داود، عن الحسن: "أنه كان يكره أن يقرأ القرآن إلا على تأليفه في المصحف، وبإسناده الصحيح". عن عبد الله بن مسعود > : "أنه قيل له: إن فلانًا يقرأ القرآن منكوسًا. فقال: ذلك منكوس القلب".

قلت: أثر ابن مسعود محمول على المعنى الآتي ذكره، وهو: تنكيس السورة لا على ما تقدم؛ فقد ثبت في الصحيح: قراءة النبي ﷺ لسورة (النساء) قبل(آل عمران)، وإقرار النبي ﷺ الذي كان يستفتح قراءته بـ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١]قبل غيرها.

التنكيس في السورة الواحدة:

قال النووي: "وأما قراءة السوَر من آخِرها إلى أوّلها، فممنوع منعًا متأكدًا؛ فإنه يُذهِب بعض ضروب الإعجاز، ويُزيل حكمة ترتيب الآيات.

وقد روى ابن أبي داود، عن إبراهيم النخعي الإمام التابعي الجليل، والإمام مالك بن أنس: أنهما كرها ذلك، وأنّ مالكًا كان يعيبه ويقول: "هذا عظيم".

قال: "وأما تعليم الصبيان من آخر المصحف إلى أوله، فحسن؛ ليس هذا من هذا الباب، فإن ذلك قراءة متفاضلة في أيام متعددة، مع ما فيه من تسهيل الحفظ عليهم". والله أعلم.

خلط سورة بأخرى:

وأمّا خلط سورة بسورة، فعدّ الحليمي تركه من الآداب، لما أخرجه أبو عبيد عن

سعيد بن المسيب: ((أن رسول الله ﷺ مرّ ببلال وهو يقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة. فقال: يا بلال مررت بك وأنت تقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة. قال: خلطت الطيّب بالطيّب. فقال: اقرأ السورة على وجهها. -أو قال: على نحوها-)). وهو مرسل صحيح. وهو عند أبي داود موصول عن أبي هريرة بدون آخره.

وأخرجه أبو عبيد من وجه آخر، عن عمر مولى غفرة: أن النبي ﷺ قال لبلال: ((إذا قرأت السورة فأنفذها)).

وأخرج عن ابن مسعود قال: "إذا ابتدأت في سورة فأردت أن تتحول منها إلى غيرها، فتحولْ إلى ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. فإذا ابتدأت فيها، فلا تتحول منها حتى تختمها".

الوقف والابتداء:

كما ينبغي للقارئ مراعاة الوقف والابتداء، ولا يتقيّد بالأعشار والأجزاء، فإنها قد تكون في وسط الكلام المرتبط؛ وهو علْم مستقل من علوم القرآن، وموضع تفصيله في محلّه.

قال النووي: "ولا تغترّن بكثرة الغافلين له من القراء، الذين لا يراعون هذه الآداب، ولا يفكّرون في هذه المعاني. وامتثلْ ما روى الحاكم عن الفضيل بن عياض، قال: لا تستوحش طرق الهدى لقلّة أهلها، ولا تغترّن بكثرة الهالكين، ولا يضرك قلة السالكين".

تابع: آداب التالي للقرآن الكريم

عناصر الدرس

يسن الاستماع لقراءة القرآن، وترك اللغط

آداب متعلقة بمستمع القرآن:

يسنّ الاستماع لقراءة القرآن، وترك اللّغط والحديث بحضور القراءة:

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وهذه الآية، وإن كانت نازلة في وجوب الإنصات للقراءة في الصلاة، وتحريم الكلام فيها، فهي تؤكّد على إنصات مَن جَلس لاستماع قراءة القرآن بصفة عامة. وأمّا من سمع قرآنًا عرَضًا فلا يلزمه الإنصات، وإن كان أفضل.

أفضل أوقات التلاوة.

أفضلية أوقات القراءة: حسب ما ورد في الأوقات الفاضلة بصفة عامة.

والقراءة في الصلاة أفضل من خارجها.

إهداء ثواب القراءة للميت.

وأمّا وهْب ثواب القراءة للميت:

فهو فرع عن مسألة وصول ثواب الأعمال بصفة عامة. والصحيح في ذلك: عدم وصولها؛ بل عدم مشروعية هذا العمل مِن أساسه، وليس من هدْي النبي ﷺ، ولا سلف الأمة. وقد دعت الدواعي لفعْله فلم يفعلوه: فقد ماتت للنبي ﷺ خديجة، وأبناؤه الذكور، وابنتاه رقية وأم كلثوم، وعمّه حمزة، وابن عمّه جعفر، فلم يفعل شيئًا من ذلك لأحد منهم، مع محبته الشديدة لهم. والله أعلم.

الاقتبـــاس مـــن القـــرآن

وأما الاقتباس من القرآن، وهو: تضمين الشعر أو النثر بعضه، لا على أنه منه، بألا يقال فيه: "قال الله تعالى"، ونحوه، فقد اشتهر عن المالكية تحريمه وتشديد النكير على فاعله. وسئل عنه الشيخ عز الدين بن عبد السلام، فأجازه. واستدل له بما ورد عنه ﷺ من قوله في الصلاة وغيرها: ((﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِىَ ﴾ [الأنعام: ٧٩]...)) إلى آخره، وقوله: ((اللهم فالق الإصباح، وجاعل الليل سكنًا والشمس والقمر حسبانًا، اقضِ عنّي الدَيْن، وأغنِني من الفقر)).

وفي سياق كلام لأبي بكر: ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، وفي آخر حديث لابن عمر: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]. انتهى.

وهذا كله إنما يدل على جوازه في مقام الوعظ، والثناء، والدعاء، وفي النثر، لا دلالة فيه على جوازه في الشعر، وبينهما فَرق؛ فإن القاضي أبا بكر من المالكية صرح بأن تضمينه في الشعر مكروه، وفي النثر جائز.

وقال بعضهم: الاقتباس ثلاثة أقسام:

مقبول، ومباح، ومردود.

فالأول: ما كان في الخُطب، والمواعظ، والعهود

والثاني: ما كان في القول، والرسائل، والقصص.

والثالث: على ضربين:

أحدهما: ما نسبه الله إلى نفسه، ونعوذ بالله ممن ينقله إلى نفسه، كما قيل عن أحد بني مروان: أنه وقع على مطالعة فيها شكاية عماله: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

والآخر: تضمين آية في معنى هزل، ونعوذ بالله من ذلك، كقوله:

أوحى إلى عشاقه طرفهُ ❖ هيهاتَ هيهاتَ لما توعدونْ
وردفه ينطقُ مِن خلفهِ ❖ لِمثل ذا فليعملِ العاملونْ

قال السيوطي: "وهذا التقسيم حسن جدًّا، وبه أقول".

قلت: وهو كما قال - رحمه الله- .

وأقول أيضًا: إن ما جاز في النثر جاز في الشعر، ولا أرى مجالًا للتفرقة بينهما في مسألة التضمين.

ويقرب من الاقتباس شيئان:

أحدهما: قراءة القرآن، يراد بها الكلام.

قال النووي: "ذكر ابن أبي داود في هذا اختلافًا، فروى النخعي: أنه كان يكره أن يتأول القرآن لشيء يعرض من أمر الدنيا.

وأخرج عن عمر بن الخطاب: أنه قرأ في صلاة المغرب بمكة: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ ﴾ [الزيتون: ١، ٢]، ثم رفع صوته فقال: ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ [الزيتون: ٣].

وأخرج عن حكيم بن سعيد: "أن رجلًا من المحكمة أتى عليًّا وهو في صلاة الصبح، فقال: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزُّمَر: ٦٥]، فأجابه في الصلاة:

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [غافر: ٥٥]". انتهى.

قال النووي: "قال أصحابنا: إذا استأذن إنسان على المصلّي، فقال المصلّي: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الحجر: ٤٦]، فإن أراد التلاوة وأراد الإعلام، لم تبطل صلاته. وإن أراد الإعلام ولم يحضره نية، بطلت صلاته". انتهى.

وقال بعضهم: يكره ضرب الأمثال في القرآن.

قلت: ومن ذلك: القصة الطويلة في المرأة التي ظلت أربعين سنة لا تتكلم بشيء سوى القرآن؛ وهي قصة لوائح الوضع والكذب عليها ظاهرة، وهي أقرب إلى العبث. والنبي ﷺ وصحابته وسلف الأمة وعلماؤها، أوْلى بمثل ذلك لو كان مشروعًا. وما روي آنفًا كان عرضًا ولغرض مشروع. والله تعالى أعلم.

الثاني: التوجيه بالألفاظ القرآنية في الشِّعر وغيره، وهو جائز بلا شك.

قال الزركشي في (البرهان): "لا يجوز تعدّي أمثلة القرآن؛ ولذلك أنكر على بعضهم قوله: "أوهى من بيت العنكبوت".

والصواب: أنه لا يُنكر عليه إلا إذا قال: "بيتًا أوهى من بيت العنكبوت". أمّا إذا وصف شيئًا، كالحُجة مثلًا أو الدليل، بأنه أوهى من بيت العنكبوت، فلا سبيل لهذا الإنكار.

إذا أراد أن يستدل بآية، فله أن يقول: قال الله تعالى: كذا. وله أن يقول: يقول الله تعالى: كذا. ولا فرق بين الاثنين، وبهما وردت النصوص والآثار.

أحوال ينهى عن القراءة فيها:

وقراءة القرآن مستحبة على الإطلاق، إلا في أحوال مخصوصة جاء الشرع بالنهي

عن القراءة فيها، ومن ذلك: تحريم القراءة في حالة الركوع والسجود في الصلاة لثبوت النص في ذلك. وكره بعضهم القراءة فيما سوى القيام.

ولا تجوز القراءة بما زاد على (الفاتحة) للمأموم في الصلاة الجهرية، لنهي النبيﷺ عن ذلك.

قال بعض أهل العلم: وتُكره حالة القعود على الخلاء، وفي حالة النعاس، وكذا إذا استعجم عليه القرآن، وكذا في حالة الخطبة لمن يسمعها.

ولا تكره القراءة في الطواف؛ وبه قال أكثر العلماء. وكرهها بعضهم. والصواب: الأول.

وتوجد بدَع مختلفة للقراءة في الصلاة، لا نطيل بذكرها.

ما يطرأ أثناء التلاوة:

ومن الآداب: أنه إذا تثاءب أمسك عن القراءة حتى ينقضي التثاؤب، ثم يقرأ.

قال مجاهد: "وهو حسن".

ويدل عليه ما ثبت عن أبي سعيد الخدري > قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا تثاءب أحدكم فليمسكْ بيده على فيه؛ فإن الشيطان يدخل)) رواه مسلم.

وإذا ورد على القارئ من فيه فضيلة مِن علم، أو شرف، أو سن مع صيانة، أو له حرمة بولاية، أو ولادة، أو غيرها، فلا بأس بالقيام له.

إذا كان يقرأ ماشيًا، فمرّ على قوم، يستحب أن يقطع القراءة ويسلّم عليهم، ثم يرجع إلى القراءة، ولو أعاد التعوذ كان حسنًا. ولو كان يقرأ جالسًا، فمر عليه غيره فسلّم عليه، كفاه الرد بالإشارة. فإن أراد الرد باللفظ ردّه، ثم استأنف الاستعاذة على الأفضل، وعاود التلاوة.

وأما إذا عطس في حال القراءة، فإنه يستحب أن يقول: "الحمد لله"، وكذا لو كان في الصلاة. ولو عطس غيره وهو يقرأ في غير الصلاة، وقال: "الحمد لله"، يُستحب للقارئ أن يشمّته فيقول: "يرحمك الله".

ولو سمع المؤذِّن، قطع القراءة وأجابه بمتابعته في ألفاظ الأذان والإقامة، ثم يعود إلى قراءته.

وأما إذا طُلبت منه حاجة في حال القراءة، وأمكنه جواب السائل بالإشارة المفهِمة، وعلم أنه لا ينكسر قلبه ولا يحصل عليه شيء من الأذى للأنس الذي بينهما، فالأوْلى أن يجيبه بالإشارة ولا يقطع القراءة، فإن قطعها جاز. والله أعلم.

وهناك أحكام تتعلق بالقراءة في الصلاة، مثل وجوب قراءة (الفاتحة)، والجهر، والإسرار، والجمع بين السوَر في الركعة الواحدة، والتأمين، وكم يسكت الإمام، ونحو ذلك... لا نطيل بها هنا.

آداب عامة مع القرآن على كل مسلم أن يلتزم بها

هناك آداب عامة مع القرآن، على كل مسلم أن يلتزم بها:

فقد ثبت في (صحيح مسلم) > ، عن تميم الداري > قال: إن النبي ﷺ قال: ((الدين النصيحة. قلنا: لِمَن. قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامّتهم)).

قال العلماء- رحمهم الله-: النصيحة لكتاب الله تعالى هي: الإيمان بأنه كلام الله تعالى وتنزيله، لا يشبهه شيء من كلام الخلق، ولا يقدر على مثله الخلق بأسرهم، ثم تعظيمه، وتلاوته حق تلاوته، وتحسينها، والخشوع عندها، وإقامة

حروفه في التلاوة، والذب عنه لتأويل المحرّفين، وتعرّض الطاغين، والتصديق بما فيه، والوقوف مع أحكامه، وتفهّم علومه وأمثاله، والاعتناء بمواعظه، والتفكّر في عجائبه، والعمل بمُحكَمه، والتسليم بمتشابهه، والبحث عن عمومه وخصوصه وناسخه ومنسوخه، ونشر علومه، والدعاء إليه، وإلى ما ذكرناه من نصيحته.

وقد أجمع المسلمون على: وجوب تعظيم القرآن العزيز على الإطلاق، وتنزيهه، وصيانته. وأجمعوا: على أنّ مَن جحد منه حرفًا مما أُجمع عليه، أو زاد حرفًا لم يقرأ به أحد، وهو عالم بذلك، فهو كافر.

ويحرم تفسيره بغير علْم، والكلام في معانيه لمن ليس من أهلها.

والأحاديث في ذلك كثيرة، والإجماع منعقد عليه. وأما تفسيره للعلماء، فجائز حسَن، والإجماع منعقد عليه.

ويحرم المراء في القرآن، والجدال فيه بغير حق.

فمن ذلك: أن يظهر فيه دلالة الآية على شيء يخالف مذهبه، ويحتمل احتمالًا ضعيفًا موافقة مذهبه، فيحملها على مذهبه، ويناظر على ذلك، مع ظهورها في خلاف ما يقول؛ وأما من لا يظهر له ذلك فهو معذور.

وينبغي لمن أراد السؤال عن تقديم آية على آية في المصحف، أو مناسبة هذه الآية في هذا الموضع، ونحو ذلك أن يقول: "ما الحكمة في كذا؟".

ويُكره أن يقول: "نسيتُ آية كذا"، بل يقول: "أُنسيتها" أو "أسقطتها".

فقد ثبت في (الصحيحين) عن عبد الله بن مسعود > قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا يقول أحدكم: "نَسيتُ آية كذا وكذا"؛ بل هو شيء نُسِّي)). وفي رواية في

(الصحيحين) أيضًا: ((بئسما لأحدكم أن يقول: "نَسيت آية كَيْت وكَيْت"؛ بل هو نُسِّي)). وثبت في (الصحيحين) أيضًا، عن عائشة > : ((أن النبي ﷺ سمع رجلًا يقرأ، فقال: رحمه الله، لقد ذكّرني آية كنت أسقطْتُها))، وفي رواية في الصحيح: ((كنت أُنسيتُها)).

ويجوز أن يقال: سورة (البقرة)، وسورة (آل عمران)، وسورة (النساء)، وهكذا... وقد تكلّمنا عن ذلك في غير هذا الموضع، ولا يصح شيء في المنع منه، بل الأدلة متضافرة على جوازه.

وكذلك لا يكره أن يقال: هذه قراءة أبي عمرو، أو قراءة نافع، أو حمزة، ونحو ذلك...

قال النووي: لا يُمنع الكافر من سماع القرآن، لقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. ويُمنع من مس المصحف. وهل يجوز تعليمه القرآن؟ قال أصحابنا: إن كان لا يُرجى إسلامه لم يَجز تعليمه، وإن رُجي إسلامه فوجهان: أصحّهما: يجوز، رجاء إسلامه".

مسألة ختم القرآن، وآداب ذلك

قد ألّف في هذه المسألة من المعاصرين: الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد: رسالة سمّاها: "مرويّات دعاء ختم القرآن"، والشيخ إبراهيم الأخضر: رسالة سمّاها: "تكبير الختم بين القرّاء والمحدّثين". والرسالتان مطبوعتان متداولتان. وقد تشدّد الشيخان- حفظهما الله- في بعض ما ذكراه؛ فلينتبه لذلك.

قال السيوطي: "والأفضل: الختم أوّل النهار، أو أوّل الليل، لما رواه الدارمي بسند حسن، عن سعد بن أبي وقاص، قال: "إذا وافق ختم القرآن أوّل الليل،

صلّت عليه الملائكة حتى يصبح. وإن وافق ختْمُه أوّل النهار، صلت عليه الملائكة حتى يمسي".

وروى ابن أبي داود، عن عمرو بن مرة التابعي، قال: "كانوا يحبون أن يختم القرآن من أوّل الليل، أو من أوّل النهار". وعن طلحة بن مصرف، التابعي الجليل، قال: "من ختم القرآن أية ساعة كانت من النهار، صلّت عليه الملائكة حتى يمسي، وأيّة ساعة كانت من الليل، صلت عليه الملائكة حتى يصبح". وعن مجاهد مثله.

واستحب بعضهم صيام يوم الختم، إلا أن يصادف يومًا نهى الشرع عن صيامه.

روى ابن أبي داود، قال النووي: "بإسناد صحيح": أن طلحة بن مصرف، وحبيب بن أبي ثابت، والمسيب بن رافع، التابعين الكوفيين، كانوا يصبحون في اليوم الذي يختمون فيه القرآن صيّامًا.

ويستحب التكبير من (الضحى) إلى آخِرِ القرآن؛ وهي قراءة المكّيّين.

عن موسى بن هارون، قال: قال لي البزي: قال لي محمد بن إدريس الشافعي: "إن تركتَ التكبير، فقدْتَ سُنّة من سُنن نبيك".

قال الحافظ عماد الدين بن كثير: "وهذا يقتضي تصحيحه للحديث".

قلت: التكبير ثابت في رواية القراءة، وبإسناد الإقراء، فحكمه حكم نفس القراءة، ولا يضرّ ما هو معروف من ضعف البزي في الحديث؛ فلا عبرة بالقول بضعف التكبير، حيث لم يفرِّق من ذهب إليه بين رواية الحديث ورواية الإقراء.

وفي كيفية التكبير تفصيل، تُراجع في كتب القراءات.

ويُسنّ الدعاء عقب الختم. ويستحب أن يجمع أهله وجيرانه، وأن يشرع في ختمة أخرى، كما نصّ عليه السيوطي وغيره...

الأحاديث الواردة في ختم القرآن:

عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَن قرأ القرآن، كانت له عند الله دعوة مستجابة، إن شاء الله عجلها له في الدنيا، وإن شاء ادّخرها له في الآخرة)). أخرجه الطبراني وغيره...

عن العرباض بن سارية، مرفوعًا: ((من ختم القرآن، فله دعوة مستجابة)). أخرجه الطبراني وغيره...

وعن أنس بن مالك: عن النبي ﷺ قال: ((مع كل ختمة دعوة مستجابة)). أخرجه البيهقي وغيره...

وعنه: ((أن النبي ﷺ كان إذا ختم القرآن جمع أهله)). قال البيهقي: رفْعه وهْم، والصحيح: عن أنس موقوفًا.

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ((من استمع حرفًا، ومن قرأه فختمه، كُتبت له عند الله دعوة مستجابة، معجّلة أو مؤخّرة)). أخرجه ابن عدي، والبيهقي، وغيرهما...

عن داود بن قيس - رحمه الله- قال: كان رسول الله ﷺ يقول عند ختم القرآن: ((اللهم ارحمني بالقرآن، واجعله لي إمامًا ونورًا وهدى ورحمة. اللهم ذكِّرني منه ما نُسيت، وعلّمني منه ما جهلت، وارزقني تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، واجعله لي حجة يا رب العالمين)). رواه الأرجاني في (فضائل القرآن)، وأبو بكر بن الضحاك في (الشمائل).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ((من قرأ القرآن، وحمد الرب،

وصلى على النبي ﷺ، واستغفر ربه، فقد طلب الخير من مكانه)). رواه البيهقي في (الشُعب).

وعنه قال: ((كان رسول الله ﷺ إذا ختم القرآن دعا قائمًا)). أخرجه ابن الجوزي في (الوفاء).

وعن علي بن الحسين زين العابدين، عن النبي ﷺ: ((أنه كان إذا ختم القرآن حمد الله بمحامد وهو قائم، ثم يقول: الحمد لله رب العالمين... فذكر دعاء طويلًا)). أخرجه البيهقي في (الشُعب).

وهذه، وإن كانت كلها لا تخلو من مقال، فهي تدل بمجموعها على أصل ذلك.

الآثــــــــــــــــار

وأما الآثار:

فعن أنس بن مالك: "أنه كان يجمع أهله وجيرانه عند الختم، ويدعو بهم". أخرجه ابن الضريس، والطبراني، وغيرهما. وروي مرفوعًا، وقال البيهقي: "الصحيح عن أنس، موقوفًا".

عن ابن مسعود: "من خَتم القرآن، فله دعوة مستجابة". رواه ابن أبي داود في (فضائله).

عن مجاهد قال: "كانوا يجتمعون عند ختم القرآن، يقولون: تنزل الرحمة". وعنه: "إن الدعاء مستجاب عند ختم القرآن".

وعن الحكم قال: "أرسل إلي مجاهد، وعنده ابن أبي لبابة، قال: إنما أرسلنا إليك أنّا نريد أن نختم القرآن، وكان يقال: إن الدعاء مستجاب عند ختم القرآن. فلما فرغوا من ختم القرآن دعا بدعوات".

وروى الدارمي عن حميد الأعرج، قال: "مَن قرأ القرآن ثم دعا، أمّن على دعائه أربعة آلاف ملَك".

وروى الحاكم النيسابوري: "أن عبد الله بن المبارك كان إذا ختم القرآن كان أكثر دعائه للمسلمين والمؤمنين والمؤمنات".

وكان البخاري - رحمه الله- يختم عند الإفطار كل ليلة في رمضان، ويقول: "عند كلّ ختم دعوة مستجابة".

وقال حنبل: "سمعت أحمد يقول في ختم القرآن: إذا فرغت من قراءتك: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، فارفع يديك في الدعاء قبل الركوع. قلت: إلى أي شيء تذهب في هذا؟ قال: رأيت أهل مكة يفعلونه، وكان سفيان بن عيينة يفعله معهم بمكة".

وقال ابن الجزري: "ومن الأمور المتعلقة بالختم: الدعاء عقيب الختم، وهو أهمّها، وهو سُنة تلقاها الخلف عن السلف".

وليس ذلك بلازم لكل قارئ، بل الأمر كما قال فارس بن أحمد وغيره: "مَن فعَله فحسَن، ومن لم يفعلْه فلا حرج عليه".

وانظر للاستفاضة: (النشر) لابن الجزري (٢/٤٤٠-٤٦٩)، (الإتقان) (١/١٤٥-١٤٧)، (سنن القرّاء ومناهج المجوّدين للقاري) (ص٢٢٦-٢٢٩).

ومن تتمّات ما يتعلق بالختم: ما جاء عن الإمام أحمد: أنه منع من تكرير سورة (الإخلاص) عند الختم، لكن عمل الناس على خلافه. قال بعضهم: والحكمة

فيه: ما ورد أنها تعدل ثلث القرآن، فيحصل بذلك ختمة. فإن قيل فكان ينبغي أن تُقرأ أربعًا: واحدة للختمة الأصلية، وثلاثًا للختمة التقديرية ليحصل له ختمتان، قلنا: المقصود أن يكون على يقين من حصول ختمة، إما التي قرأها، وإما التي حصل ثوابها بتكرير السورة.

سجود القرآن

وهذه المسألة صنّف فيها من المعاصرين: الشيخ عطية محمد سالم رسالة سماها: "سجود التلاوة: مواضعه وموضوعاته"، وهي مطبوعة متداولة.

وفي سجود القرآن مسائل:

أولًا: اختلف في حُكمه: هل هو واجب، أم مندوب؟

والصواب: أنه مندوب؛ وهو قول الجمهور. ويُكره لمن يقرأ سجدتي (الحج) ألا يسجد، لقوله ﷺ: ((فمن لم يسجد، فلا يقرأهما)).

وفي (صحيح مسلم) عن أبي هريرة، مرفوعًا: ((إذا قرأ ابن آدم السجدة، اعتزل الشيطان يبكي ويقول: يا ويله! أُمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة. وأُمرت بالسجود فأبيْت، فلي النار)).

واحتج الجمهور بما صح عن عمر بن الخطاب < : "أنه قرأ على المنبر يوم الجمعة سورة (النمل) حتى إذا جاء السجدة نزل فسجد، وسجد الناس. حتى إذا كانت الجمعة القابلة، قرأ بها حتى إذا جاء السجدة، قال: يا أيها الناس. إنما نمرّ بالسجود، فمن سجد فقد أصاب، ومن لم يسجد فلا إثم عليه. ولم يسجد عمر". رواه البخاري.

وهذا الفعل والقول من عمر > في هذا المجمع دليل ظاهر.

وثبت في (الصحيحين) عن زيد بن ثابت > : أنه قرأ على النبي ﷺ (والنجم)، فلم يسجد.

ثانيًا: اختلف في مواضعه:

يُسن السجود عند قراءة آية السجدة، وعددها المختار الذي قاله الجماهير: أنها أربع عشرة سجدة: في (الأعراف)، و(الرعد)، و(النحل)، و(سبحان)، و(مريم)، وفي (الحج) سجدتان، وفي (الفرقان)، و(النمل)، و(الم السجدة)، و(حم السجدة)، و(النجم)، و(إذا السماء انشقت)، و(اقرأ باسم ربك)، وأمّا سجدة (ص) فمثلهم، بل آكد من بعض ما ذكر.

ومما يجدر الإشارة إليه هنا: أنه مما اختلف فيه من السجدات: سجدة سورة (ص)، وهي في الثبوت أصح من كثير مما اتفق عليه. وكذلك سجدتا (الحج)، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: ((إنها فُضلت بسجدتيْن)).

ومحلها كما هو ملحق في المصاحف المطبوعة المتداولة، ولا خلاف يعتد به في شيء من مواضعها، إلا التي في: (حم)، فإن العلماء اختلفوا فيها: فذهب جماعة إلى: أنها عقيب ﴿يَسْـَٔمُونَ﴾ [فُصِّلَت: ٣٨]. وذهب آخرون إلى: أنها عقيب قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢] والعمل على الأوّل، والفارق غير مؤثر.

ثالثًا: اختلف في الأحكام المتعلقة به، وهي مترتبة على كونه يلحق بالصلاة أو لا؟

والصواب: أنه ليس بصلاة، وهو كسجود الشكر، ويلحق بالأذكار؛ فلا يشترط له ما يشترط للصلاة. وقد بوّب البخاري لذلك بقوله: "سجود المسلمين مع المشركين، والمشرك نجس ليس له وضوء. وكان ابن عمر > يسجد على غير وضوء".

قلت: وصحّ ذلك أيضًا عن الشعبي، أخرجه ابن أبي شيبة. وكان أبو عبد الرحمن السلمي يسجد على غير وضوء، إلى غير القبلة، وهو يمشي يومئ إيماء.

وإذا قرأ السجدة وهو راكب على دابة، سجد بالإيماء.

ويسجد في جميع السجدات، سواء أكان في صلاة أم خارجها. وقد ثبت سجود النبي ﷺ في الصلاة.

وإذا سجد في الصلاة، فإذا رفع إن شاء قرأ، وإن شاء ركع دون قراءة بعد السجدة؛ فقد جاءت بذلك الآثار.

رابعًا: كيفيته، وما يقال فيه:

أما كيفيته: فهو سجدة واحدة، يسن أن يقول فيها الدعاء الوحيد الثابت في ذلك، وهو ما ذكرناه في فضل سورة (ص). وهو أن يقول: "اللهم اكتب لي بها عندك أجرًا، واجعلها لي عندك ذخرًا، وضعْ عني وزرًا، واقْبلْها مني كما قبِلْتها من عبدك داود".

واختلف في التكبير له، والأوْلى: أن يفعله إذا كان إمامًا في الصلاة، لعموم نصوص التكبير عند كل خفض ورفع، بخلاف خارجها.

وأما رفع اليدين والتشهد والتسليم، فظاهر السُّنة لا يؤيد من قال بذلك. والله أعلم.

ويسجد القارئ والمستمع والسامع مطلقًا، ولا دليل على اشتراط سجود القارئ ليسجد المستمِع والسامع.

ولا فرق بين أن يكون القارئ مسلمًا بالغًا متطهرًا رجلًا، وبين أن يكون كافرًا أو صبيًّا أو محدثًا أو امرأة؛ هذا هو الصحيح.

وإذا قرأ السجدات كلها، أو سجدات منها في مجلس واحد، سجَد لكلّ سجدة بلا خلاف. فإن كرّر الآية الواحدة في مجالس، سجد لكل مرة بلا خلاف. فإن

كررها في المجلس الواحد نُظر: فإن لم يسجد للمرة الأولى كفاه سجدة واحدة عن الجميع. وإن سجَد للأولى ففيه ثلاثة أوجه، أصحّها: يسجد لكل مرّة سجدة، لتجدّد السبب، وليحصل له الأجر.

ولا يقوم الركوع مقام سجدة التلاوة في حال الاختيار؛ وهذا مذهب جماهير العلماء: السلف والخلف.

وهناك تفصيلات فيما ذكرناه وغيره، تُراجع في مظانها. والله الموفّق.

أخذ الأجرة على القرآن

قال السيوطي: "يُكره اتخاذ القرآن معيشة يتكسب بها".

وأخرج الآجري من حديث عمران بن الحصين، مرفوعًا: ((من قرأ القرآن فلْيسأل اللهَ به؛ فإنه سيأتي قوم يقرؤون القرآن يسألون الناس به)).

قال: وروى البخاري في (تاريخه الكبير)، بسند صالح: حديث: ((من قرأ القرآن عند ظالم ليرفع منه، لُعن بكل حرف عشر لعنات)).

وقال النووي: "ومن أهمّ ما يؤمر به: أن يحذر كل الحذر من اتخاذ القرآن معيشة يكتسب بها. فقد جاء عن عبد الرحمن بن شبيل < قال: قال رسول الله ﷺ: ((اقرؤوا القرآن، ولا تأكلوا به، ولا تجفوا عنه، ولا تغلوا فيه)).

وعن جابر < عن النبي ﷺ: ((اقرؤوا القرآن من قبل أن يأتي قوم يقيمونه إقامة القدح، يتعجّلونه ولا يتأجّلونه)).

ومعناه: يتعجّلون أجره إما بمال، وإما سمعة ونحوها.

وعن فضيل بن عمرو < قال: دخل رجلان من أصحاب رسول الله ﷺ مسجدًا،

فلما سلّم الإمام، قام رجل فتلا آيات من القرآن، ثم سأل. فقال أحدهما: إنا لله وإنا إليه راجعون. سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((سيجيء قوم يسألون بالقرآن، فمن سأل بالقرآن فلا تعطوه)). وهذا الإسناد منقطع، فإن الفضيل بن عمرو لم يسمع الصحابة.

أخذ الأجرة على تعليم القرآن:

فقد اختلف العلماء فيه: فحكى الإمام أبو سليمان الخطابي منع أخذ الأجرة عليه من جماعة من العلماء، منهم: الزهري، وأبو حنيفة.

وعن جماعة: أنه يجوز إن لم يشترطه، وهو قول الحسن البصري، والشعبي، وابن سيرين.

وذهب عطاء، ومالك، والشافعي، وآخرون، إلى جوازها إن شارطه واستأجره إجارة صحيحة. وقد جاء بالجواز الأحاديث الصحيحة.

واحتج مَن منعها بحديث عبادة بن الصامت: أنه علّم رجلًا من أهل الصفة القرآن، فأهدى له قوسًا، فقال له النبي ﷺ: ((إن سرّك أن تُطوّق بها طوقًا من نار فاقبلْها)). وهو حديث مشهور، رواه أبو داود وغيره، وبآثار كثيرة عن السلف.

وأجاب المجوّزون عن حديث عبادة بجوابيْن: أحدهما: أن في إسناده مقالًا. والثاني: أنه كان تبرّع بتعليمه، فلم يستحق شيئًا، ثم أهدي إليه على سبيل العوض، فلم يجز له الأخذ، بخلاف من يعقد معه إجارة قبل التعليم. والله أعلم.

قلت: الذي يظهر: التفرقة بين أخذ الأجرة على القراءة للسؤال بها، وبين أخذها على التعليم والرقية ونحو ذلك. ولاشك في ثبوت النصوص على أخذ الأجر على التعليم والرقية، وإن كان الأوْلى في ذلك -كما هو الحال في كل ما يُتخذ قربة لله-: أن يكون بالاحتساب. والله أعلم.

مسائل تتعلق بالمصحف وكتابته

اختلف العلماء في كتابة القرآن في إناء، ثم يغسل ويُسقى المريض، فقال الحسن، ومجاهد، وأبو قلابة، والأوزاعي: "لا بأس به".

وكرهه النخعي.

وقال القاضي حسين، والبغوي، وغيرهما: "ولو كتب القرآن على الحلوى وغيرها من الأطعمة، فلا بأس بأكلها".

وكره بعض أهل العلم نقش الحيطان والثياب بالقرآن، وبأسماء الله تعالى. قال عطاء: "لا بأس بكتب القرآن في قبلة المسجد. وأما كتابة الحروز من القرآن فقال مالك: "لا بأس به إذا كان في قصبة أو جلد، وخرز عليه".

اتفق العلماء على استحباب كتابة المصاحف، وتحسين كتابتها، وتبيينها، وإيضاحها، وتحقق الخط دون مشقه، وتعليقه، قال العلماء: ويستحب نقط المصحف وشكله؛ فإنه صيانة من اللحن فيه وتصحيفه.

ولا تجوز كتابة القرآن بشيء نجس.

صيانة المصحف واحترامه:

وأجمع المسلمون على وجوب صيانة المصحف واحترامه.

قال أهل العلم: ولو ألقاه مسلم في القاذورة -والعياذ بالله تعالى- صار الملقي كافرًا.

وقال بعضهم: يحرم توسّده، بل توسّد آحاد كتب العلم حرام؛ وهذا فيه نظر، ولا يسلم إلا إذا كان على سبيل الاستخفاف، أو الإهانة، فليس بمحرم فقط بل يصل إلى الكفر.

وما روي في توسّد القرآن، فلأهل العلم فيه مذاهب في معناه.

ولا شك أنه يستحب أن يوضع المصحف على نحو وسادة وما شابهها، لما ثبت في سنن أبي داود: ((أن النبي ﷺ دخل بيت المدراس عند اليهود، فلما أتي بالتوراة دعا بوسادة، ووضع التوراة عليها)). ولا شك أنّ القرآن أولى وأفضل.

وأما القول باستحباب القيام له:

فلا دليل عليه، بل هو أقرب إلى البدعة؛ والاستدلالات العقلية لا تسلم لأصحابها، ويمكن ردّها بسهولة.

وأما وضع المصحف على الوجه وتقبيله:

فقد وردت فيه آثار، ومن ذلك: ما رواه الدارمي، قال النووي بإسناد صحيح، عن ابن أبي مليكة: أن عكرمة بن أبي جهل > كان يضع المصحف على وجهه ويقول: "كتاب ربي! كتاب ربي!".

وتحرم المسافرة بالمصحف إلى أرض العدو، إذا خيف وقوعه في أيديهم، للحديث المشهور في الصحيحين: ((أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو، مخافة أن يناله)). أما إذا أمن تمكّن الكافر منه، فالذي يظهر جوازه. والله أعلم.

وأما إرسال ما فيه شيء من القرآن، فقد ثبت في الصحيح ما يُجيزه، وهو ما أرسله النبي ﷺ إلى هرقل.

ويمنع المجنون والصبي الذي لا يميز، من مس المصحف، مخافة من انتهاك حرمته؛ وهذا المنع واجب على الولي وغيره ممن رآه يتعرض لحمله.

ويصحّ بيع المصحف وشراؤه، والصحيح أنه لا كراهة في شرائه أو بيعه. ومن قال بذلك: الحسن البصري، وعكرمة، والحكم بن عيينة، وهو مروي عن ابن عباس.

والتفرقة بين البيع والشراء عند بعض أهل العلم ليست وجيهة، لأن الشراء مستلزم للبيع، ولا دليل على المنع من شيء منهما. ولا دخل لذلك في آيات الاشتراء بآيات الله ثمنًا قليلًا، لأن المراد منها بداهة لا علاقة له ببيع المصحف، وإنما هي متعلقة بترك أو تحريف أوامر الله ﷻ في مقابل عرض الدنيا الزائل من جاهٍ ونحوه.

كلام جامع لآداب التالي لكتاب الله:

ونختم بكلام جامع لبعض آداب التالي لكتاب الله:

فينبغي له أن يكون على أكمل الأحوال، وأكرم الشمائل، وأن يرفع نفسه عن كل ما نهى القرآن عنه إجلالًا للقرآن، وأن يكون مصونًا عن دنيء الاكتساب، شريف النفس، مرتفعًا على الجبابرة والجفاة من أهل الدنيا، متواضعًا للصالحين وأهل الخير والمساكين، وأن يكون متخشعًا ذا سكينة.

وعن عبد الله بن مسعود > قال: "ينبغي لحامل القرآن: أن يُعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يختالون".

حول الوحي وطرقه

عناصر الدرس

معنـــــــى الـــــــوحي

معنى "الوحي" في اللغة والشرع:

"الوحي" هو: إعلام على وجه الخفاء، وقد يكون بالكلام الصريح، أو المعرّض به، أو بالإشارة، أو أي طريق من طُرق الإعلام.

قال الزرقاني: "معناه في لسان الشرع: أن يُعلم الله تعالى مَن اصطفاه مِن عباده كلّ ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر".

وقال محمد عبده: "هو: عرفان يجده الشخص من نفسه، مع اليقين أنه من قِبَل الله، بواسطة أو بغير واسطة. والأوّل: بصوت يسمعه، أو بغير صوت".

قال: "والفَرق بينه وبين الإلهام: أنّ الإلهام: وجدان تستيْقنه النفس، فتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى".

معنى "الوحي" في القرآن:

وقد جاء "الوحي" في القرآن بمعان ستة:

١. الإلهام للإنسان، كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص:٧]، وهذا مثل ما صحّ عن النبي ﷺ في قوله: ((إنه يكون في كل أمة محدّثون، فإن يكن في أمتي فعُمَر)). أو كما قال ﷺ.

٢. الإلهام الغريزي للحيوان، كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾ [النحل:٦٨].

٣. الوسوسة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

٤. الإشارة، كما قال تعالى عن زكريا: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١].

٥. ما يلقيه الله من أمر لملائكته، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾ [الأنفال: ١٢].

٦. ما ينزله الله على أنبيائه ورسله من شرائع وأحكام، وهو موضوعنا الأساس، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

أقسام الوحي:

والقرآن والسُّنة كلاهما وحي من الله، قال تعالى عن رسوله ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم: ٣- ٤].

قال ابن حزم - رحمه الله- : "فصحّ بذلك أنّ الوحي ينقسم من الله ﷻ إلى رسوله ﷺ إلى قسمين: أحدهما: وحي متلو، مؤلف تأليفًا معجز النظام، وهو: القرآن. والثاني: وحي مروي منقول، غير مؤلّف ولا معجِز النظام ولا متلو، لكنه مقروء.

وجاء في عدّة أحاديث ما يدلّ على أن السُّنة كانت توحى إلى النبي ﷺ، لدرجة أنه كان يعتريه أحيانًا ما يعتريه عند تنزّل القرآن.

فعن عائشة < قالت: ((خرجت سودة بعدما ضُرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على مَن يعرفها، فرآها عمر بن الخطاب، فقال: يا سودة، أما والله لا تخفَيْن علينا، فانظري كيف تخرجين! قالت: فانكفأت راجعة. ورسول الله ﷺ في بيتي، وإنه ليتعشى وفي يده عَرق. فدخلت فقالت: يا رسول الله، إني خرجت لبعض حاجتي، فقال لي عمر كذا وكذا. قالت: فأوحى الله إليه، ثم رفع عنه، وإن العَرق في يده ما وضعه، فقال: إنه قد أُذن لكنّ أن تخرجنَ لحاجتكنّ)).

وقال تعالى، ضامنًا للأمّة حفظ دينه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، والسّنّة من الذكر المنزل بنص القرآن، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤].

وقال أبو محمد: "وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ﴾ [الأنبياء: ٤٥]، فأخبر تعالى -كما قدمنا- أنّ كلام نبيه ﷺ كلّه وحي، والوحي بلا خلاف ذكر، والذكر محفوظ بنص القرآن".

قال الأصفهاني في أوائل (تفسيره): "اتفق أهل السنة والجماعة: على أن كلام الله منزل، واختلفوا في معنى الإنزال. فمنهم من قال: إظهار القراءة. ومنهم من قال: إن الله تعالى ألهم كلامه جبريل وهو في السماء، وهو عال من المكان، وعلّمه قراءته. ثم جبريل أداه في الأرض، وهو يهبط في المكان".

قال الأصفهاني في أوائل (تفسيره): "وفي التنزيل طريقان: أحدهما: أن النبي انخلع من صورة البشرية إلى صورة الملَكية، وأخذه من جبريل. والثاني: أن الملَك انخلع إلى البشرية حتى يأخذه الرسول منه. والأول أصعب الحالَيْن". انتهى.

وقال غيره: لعل نزول القرآن على النبي: أن يتلقفه الملَك من الله تعالى تلقفًا روحانيًّا، أو يحفظه من اللوح المحفوظ، فينزل به إلى الرسول ويلقيه عليه.

والخلاف في ذلك مترتب على المذاهب الكلامية في كلام الله ﷿ فنتج عن ذلك أقوال ثلاثة:

الأول: أن جبريل تلقّفه سماعًا من الله تعالى، بلفظه المخصوص.

الثاني: أن جبريل حفظه من اللوح المحفوظ، أو قرأه نقلًا عن بيت العزة في السماء الدنيا.

الثالث: أن جبريل ألقي إليه المعنى، والألفاظ لجبريل أو للنبي ﷺ.

والثالث مِن أبطلِ الباطل، لأنه معارض لظاهر آيات القرآن، بل يوافق في وجه منه كلام المشركين.

والثاني: إنما هو هروب من إثبات صفة الكلام لله تعالى. ولا شك في وجود القرآن في اللوح المحفوظ كسائر ما هو فيه، ولا في نزول القرآن إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ولكن ذلك لا يعني نفي سماع جبريل له من الله.

قال السيوطي: "ويؤيد أن جبريل تلقّفه سماعًا من الله تعالى: ما أخرجه الطبراني من حديث النواس بن سمعان، مرفوعًا: ((إذا تكلّم الله بالوحي، أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله، فإذا سمع بذلك أهل السماء صعقوا وخروا سجدًا؛ فيكون أوّلهم يرفع رأسه: جبريل. فيكلمه الله من وحيه بما أراد، فينتهي به على الملائكة. فكلما مرّ بسماء سأله أهلها: ماذا قال ربنا؟ قال: الحق. فينتهي به حيث أمر)).

وأخرج ابن مردويه، من حديث ابن مسعود، رفعه: ((إذا تكلّم الله بالوحي سمع أهل السموات صلصلة كصلصلة السلسلة على الصفوان، فيفزعون، ويرون أنه من أمر الساعة))، وأصل الحديث في الصحيح.

وقال الجويني: "كلام الله المنزل قسمان: قسم قال الله لجبريل: قل للنبي الذي أنت مرسل إليه: إن الله يقول: افعل كذا وكذا، وأمر بكذا وكذا. ففهم جبريل ما قاله ربه، ثم نزل على ذلك النبي، وقال له ما قاله ربه، ولم تكن العبارة تلك العبارة؛ كما يقول الملِك لمن يثق به: قل لفلان: يقول لك الملِك: اجتهد في الخدمة، واجمع جندك للقتال. فإن قال الرسول: يقول الملِك: لا تتهاون في خدمتي، ولا تترك الجند تتفرق، وحثهم على المقاتلة، لا ينسب إلى كذب ولا تقصير في أداء الرسالة.

وقسم آخَر: قال الله لجبريل: اقرأ على النبي هذا الكتاب. فنزل جبريل بكلمة من الله من غير تغيير؛ كما يكتب الملِك كتابًا ويسلّمه إلى أمين ويقول: اقرأه على فلان، فهو لا يغيّر منه كلمة ولا حرفًا". انتهى.

قال السيوطي: "القرآن: هو القسم الثاني. والقسم الأول: هو السنة.

كما ورد: أنّ جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن. ومن هنا، جاز رواية السنة بالمعنى لأن جبريل أداه بالمعنى، ولم تجز القراءة بالمعنى لأن جبريل أداه باللفظ، ولم يبح له إيحاءه بالمعنى. والسر في ذلك: أن المقصود منه: التعبد بلفظه، والإعجاز به، فلا يقدر أحد أن يأتي بلفظ يقوم مقامه، وإنّ تحت كل حرف منه معاني لا يحاط بها كثرة، فلا يقدر أحد أن يأتي بدله بما يشتمل عليه، والتخفيف على الأمة حيث جعل المنزل إليهم على قسمين: قسم يروونه بلفظه الموحى به، وقسم يروونه بالمعنى. ولو جعل كله مما يروى باللفظ، لشق، أو بالمعنى لم يؤمن التبديل والتحريف. فتأمل".

طرق الوحي

وطُرق الوحي ثلاث ذكَرها الله ﷻ في قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ [الشورى: ٥١].

فإما أن يكون منامًا، ورؤيا الأنبياء وحي، كما حدث كثيرا للنبي ﷺ، وكما حدث لإبراهيم # في قصة ذبح إسماعيل. أو أن يأتيه الملَك في النوم، وعدّ من هذا قوم سورة الكوثر، وليس صوابًا.

وإما أن يكون كلامًا من وراء حجاب، كما حصل لموسى # ، وبعض أهل العلم يدخل فيه ما حصل بالمعراج للنبي ﷺ، عند من يقول بكونه يقظة.

وقيل: أو أن يكلمه الله في النوم، كما في حديث معاذ: ((أتاني ربي، فقال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟)) الحديث؛ وهو غير صريح في ذلك.

وليس في القرآن من هذا النوع، وهو الكلام من وراء الحجاب، شيء.

وإما أن يكون بإرسال رسول، مثل إرسال جبريل للنبي ﷺ. ووحي القرآن كله من هذا القبيل، وهو المصطلح عليه بالوحي الجلي. قال الله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٥].

ولذلك طرق ثلاثة:

الأول: أن يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وهو أشدّه على النبي ﷺ، فيفصم عنه، وقد وعى ما يقول.

كما في الصحيح: عن عبد الله بن عمر: سألت النبي: هل تحس بالوحي؟ فقال: ((أسمع صلاصل، ثم أسكت عند ذلك. فما من مرة يوحَى إليّ إلا ظننت أن نفسي تُقبض)).

قال الخطابي: "والمراد أنه صوت متدارك يسمعه، ولا يبين له أول ما يسمعه، حتى يفهمه بعد. وقيل: هو صوت خفق أجنحة الملك. والحكمة في تقدمه أن يفرغ سمعه للوحي، فلا يبقي فيه مكانًا لغيره".

ومنها: الحديث الذي يرويه البخاري في (صحيحه)، عن عائشة أم المؤمنين

> ((أن الحارث بن هشام سأل رسول الله فقال: يا رسول الله. كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله: أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدّه عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال. وأحيانًا يتمثل لي الملَك رجلًا فيكلمني، فأعي ما يقول. قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصّد عرقًا)).

وفي هذا الحديث: أن هذه الحالة أشد حالات الوحي عليه. وقيل: إنه إنما كان ينزل هكذا، إذا نزلت آية وعيد وتهديد.

الثاني: أن يتمثل له رجلًا فيكلّمه فيعي ما يقول، كما في الحديث السابق. زاد أبو عوانة في صحيحه: ((وهو أهونه عليّ)).

وكان كثيرًا ما يأتيه في صورة دحية بن خليفة الكلبي، وكان رجلا جميلًا. وربما أتاه في صورة أعرابي، كما في الحديث المشهور في الإسلام والإيمان والإحسان.

الثالث: أن ينفث في روعه ما يريد، فيعيه النبي ﷺ.

كما قال: ((إن روح القدس نفث في روعي))، أخرجه الحاكم. وهذا قد يرجع إلى الحالة الأولى أو التي بعدها، بأن يأتيه في إحدى الكيفيّتيْن، وينفث في روعه.

وقد نزل للنبي ﷺ غير جبريل: ملَك الجبال، كما في قصة عرض نفسه ﷺ على أشراف الطائف. ونزل عليه ملَكٌ بشّره بـ(الفاتحة) وخواتيم سورة (البقرة)،

وأنهما لم يؤتَهما نبي قبله، كما في حديث ابن عباس في صحيح مسلم، وغير ذلك...

ويظهر أثر التغير والانفعال على صاحب الرسالة في حال الوحي، فيغطّ غطيط النائم، ويغيب غيبة كأنها غشية أو إغماء، وما هي في شيء من الغشية والإغماء، إن هي إلا استغراق في لقاء الملَك الروحاني، وانخلاع عن حالته البشرية العادية؛ فيؤثر ذلك على الجسم فيغط ويثقل ثقلًا شديدًا قد يتصبب منه الجبين عرقًا في اليوم الشديد البرد. وقد صحت بذلك الأحاديث، حتى إن الراحلة لتبرك من ثقل النبي ﷺ.

أنواع الموحَى به

وأما الموحَى به فقسمان:

أ. القرآن الكريم:

كلنا يعرف: أنّ القرآن الكريم هو: كلام الله ﷻ. والضابط فيه: أن معناه يكون من عند الله، ولفظه أيضًا من عند الله ﷻ. وهو كلام الله تعالى تكلّم به حقيقة، ويتميز بأنه معجز في لفظه ونظمه ومعانيه. ويضاف إلى ذلك بأنه يُتَعَبَّدُ بتلاوته، يعني: إذا قرأه الإنسان فإنما يتقرب بقراءته إلى الله ﷻ ويُؤجر على ذلك.

وله طريقة مخصوصة لقراءته. ولا يجوز روايته بالمعنى، فجبريل # سمع القرآن من رب العزة ﷻ، فأداه كما سمعه إلى النبي ﷺ، فأداه لنا النبي ﷺ كما سمعه من جبريل.

هذا هو القرآن. وهو قطعي الثبوت، نُقل إلينا بالتواتر.

ب. السنة النبوية:

أما السُّنة النبوية، فهي وحي كذلك - كما سبق - وهي تنقسم إلى قسمين:

الحديث النبوي:

وهو وحي من الله ﷻ، ولكنه يختلف كثيرًا عن القرآن؛ فإن معناه من الله ﷻ، ولفظه من الرسول ﷺ.

وهو كلام غير معجز، فليس هو مثل القرآن معجز في لفظه، وإنما هو كلام بليغ في أعلى درجات البلاغة، كما قال ﷺ: ((أُوتيتُ جوامع الكلم))، ولكنه غير معجز بمعنى: أنه لا يعجز البشر عن الإتيان بما يشبهه أو يقاربه. ثم الحديث أيضًا لا يُتعبد بتلاوته، ويجوز روايته بالمعنى.

إذًا، هو يفارق القرآن في كل شيء، ما عدا أن معناه من الله ﷻ.

الحديث القدسي:

وهو القسم الثاني من الحديث، وهو مثل الحديث النبوي في جميع الضوابط التي ذكرناها، إلا في لفظه؛ فقد اختلف فيه أهل العلم، ممن هو؟

فقال البعض: هو من الله، وهذا مُشْكِلٌ جدًّا، لأنه إذا كان من الله ﷻ، فيحصل التعارض بين التعريف وبين هذا القول، لأن كلام الله ﷻ لا يشبه كلام البشر، وهو معجز، فلا يكون غير معجز. ثم ما الفارق بينه وبين تعريف القرآن؟ فلذا لا يُرْتَضى هذا ممن قاله.

وهناك من قال: لفظه من النبي ﷺ، فيقال: إذًا ما الفائدة في قوله: "قال الله ﷻ"؟ وأيضًا، إذا قيل: إن لفظه من النبي ﷺ اشتبه بتعريف الحديث النبوي، فلم يكن هناك أي ضابط.

القول الثالث: -وهذا القول تطمئن إليه النفس- وهو: أنه من قول جبريل # ، يعني: لفظه من جبريل؛ وقد يؤيد هذا القول: وصف الحديث بأنه قدسي، وجبريل # وصفه الله ﷻ بأنه روح القدس كما هو معروف؛ فهذا القول لعله أقرب. والله ﷻ أعلم.

شبهات حول الوحي

وهذا المبحث نلخصه من كلام الزرقاني - رحمه الله- لأهميته، فنقول: إن ما قدمناه لا يسلمه ولا يقبله إلا من آمن بالوحي وأساليبه، والاتصالات الروحية بالملإ الأعلى، واستمداد الإنسان لمعارفه عن الله تعالى، بوساطة الملَك على غير الطريقة المعتادة بين البشر؛ ولكن العقلية العصرية أصابها مس من المادية والإلحاد والإباحية، فأصبح كثير لا يهضمون هذه الحقائق العليا؛ لهذا نرى لزامًا علينا: أن نقف هنا وقفة نُزيل فيها ما قد يعتري هؤلاء من شكوك حول هذه المسألة:

بعض الأدلة المحسوسة التي تقرّب أمر الوحي:

الدليل الأول: ما يسمّى بالتنويم المغناطيسي، وقد اعترفت به أمم كثيرة بعد أن اختبروا به الآلاف المؤلّفة من الخلق، واطمأنّوا إلى تجاربه، وأخيرًا أثبتوا بوساطته ما يأتي:

١. أن للإنسان عقلًا باطنًا، أرقى من عقله المعتاد كثيرًا.

٢. أنه، وهو في حال التنويم، يرى ويسمع مِن بُعد شاسع، ويقرأ من وراء حُجب، ويخبر عن أمور غريبة.

٣. أن للتنويم درجات بعضها فوق بعض، يزداد العقل الباطن سموًّا بتنقله فيها، إلى غير ذلك من أمور يجادل فيها ولا تسلّم. وقد ذكر الزرقاني - رحمه الله- هنا تجربة من تجارب التنويم، رآها بعينه وسمعها بأذنه.

واستدل بها على إمكانية تأثير شخص في آخر، فكيف بتأثير الخالق في مخلوق.

الدليل الثاني: أن العلم الحديث استطاع أن يخترع من العجائب ما نعرفه ونشاهده وننتفع به، مما يسمّونه: التليفون، واللاسلكي، والميكرفون، والراديو، والآن الكمبيوتر، والإنترنت، والبث الفضائي؛ وعن طريق أولئك أمكن الإنسان أن يخاطب من كان في آفاق بعيدة عنه، وأن يفهمه ما شاء ويرشده إلى ما أراد؛ فهل يعقل بعد قيام هذه المخترعات المادية، أن يعجز الإله القادر عن أن يوحي إلى بعض عباده ما شاء عن طريق الملَك أو غير الملَك؟

الدليل الثالث: استطاع العلْم أيضًا أن يملأ بعض أُسطوانات من الجماد الجامد الجاهل بأصوات وكلام وإتقان، بل وبصوَر وأفلام متحركة، على وجه يجعلها حاكية للأصل بدقة. أبَعْد هذه المخترعات القائمة يُستبعد على القادر تعالى بوساطة ملَك ومن غير وساطة ملَك، أن يملأ بعض نفوس بشرية صافية من خواص عباده بكلام مقدس، يهدي به خلقه، ويظهر به حقه على وجه يجعل ذلك الكلام منتقشًا في قلب رسوله، حتى يحكمه بدقة وإتقان؟

الدليل الرابع: أننا نشاهد بعض الحيوانات الدنيا تأتي بعجائب الأنظمة والأعمال، مما نحيل معه أن يكون صادرًا عن تفكير لها، أو غريزة ساذجة فيها، ومما يجعلنا نوقن بأنها لم تصدر في ذلك إلا عن إرادة عليا توحي إليها وتلهمها

تلك العجائب والغرائب من الصناعات والأعمال، والدقة والاحتيال. وإذا صح هذا في عالم الحيوان، فهو أولى أن يصح في عالم الإنسان، حيث استعداده للاتصال بالأفق الأعلى يكون أقوى، وأخذه عنه يكون أتم؛ ومن ذلك ما يكون بطريق الوحي. وإن شئت أمثلة لتلك الحيوانات التي ضربناها لك مثلًا في إلهاماته العلوية، فدونك النمل والنحل، وما تأتيان من ضروب الأعمال ودقة النظام.

ومن العبث وضلال الرأي: أن يثبت الباحث الطبيعي إلهامًا تبعثه القدرة الإلهية إلى أحقر الحشرات، ثم ينفيه عن النوع البشري، وهو أشد ما يكون حاجة إلى هذا الوحي والإلهام في حياته الفردية والاجتماعية.

الدليل الخامس: العبقرية. فذكر قصصًا من عجائب بعض الأشخاص، ومن ذلك ما ذكره عن شاعر فرنسي قال: "أنا لا أعمل شيئًا، ولكن أسمع ما يلقى إليَّ فأنقله؛ فكأن إنسانًا مجهولًا يناجيني في أذني".

قلت: وهذا مصداق لقوله تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢١- ٢٢٤].

فهذا تنزّل عليه وحي شيطاني، وهو الذي نفاه القرآن عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾ [الشعراء: ٢١٠] الآيات.

قال: "وهذه الأمثلة التي سقناها، تُثبت وجود اتصالات روحانية باطنة في بعض الأفراد، تمدّ الإنسان بعلم وهداية من طريق غير معتاد؛ وذلك يقرب الوحي أيما تقريب.

الدليل السادس: شوهد على بعض الناس: أنهم يظهرون بمظاهر روحانية تعتبر من الخوارق التي لم يكن يحلم بحدوثها العلماء، على حين أن هؤلاء الذين أتوا

بتلك الظواهر الخارقة، كانوا في حالة ذهول. وقد استحال تعليل ما أتوا تعليلًا ماديًّا يستند إلى الحس. وقد اختبروا تلك الظواهر واستحضروا لشهودها أكبر مشعوذي الأرض، فشهدوا بأنها ليست من الشعوذة في شيء، وإنما هي أحداث روحانية لا أثر فيها للمهارة وخفة اليد.

وهناك الدليل العقلي على أن هذا الأمر الممكن قد وقع فعلًا؛ وذلك أنه قد أخبر بوقوعه الصادق المعصوم: محمد؛ وكل ما أخبر بوقوعه الصادق المعصوم فهو حق ثابت، وذلك هو المطلوب.

أما الدليل على أنه قد أخبر بوقوعه الصادق المعصوم: فما مر عليك من أنباء الوحي في الكتاب والسُّنة. وأما الدليل على أن كل ما أخبر بوقوعه الصادق المعصوم فهو حق ثابت، فإن ذلك هو مقتضى الصدق والعصمة.

وأما الدليل على أن محمدًا صادق معصوم: فإنما هي المعجزة القائمة مقام قوله تعالى لعباده في شأن تصديق رسوله: صدَق عبدي في كل ما يبلّغ عني، ومن ذلك أنه يوحى إليه مني. وهنا نجد أنفسنا قد انتهينا إلى المعجزة. فما هي المعجزة؟

"المعجزة": هي أمر يعجز البشر متفرقين ومجتمعين عن الإتيان بمثله، ومن ذلك: القرآن، الذي ذكرنا إعجازه في مواقف عدّة في هذه المادة، وفي التفسير.

ومن الشبهات التي يطرحها بعض الجهلة حول الوحي:

الشبهة الأولى:

يقولون: لو كان الوحي ممكنًا، لأوحى الله إلى أفراد البشر عامة، ولم يخص به شرذمة قليلين يجعلهم واسطة بينه وبين خلقه.

والجواب: أن عامة البشر ليس لديهم استعداد لتلقي الوحي عن الله، لا مباشرة ولا بواسطة الملَك، حتى لو جاءهم ملَك لم يستطيعوا رؤيته إلا إذا ظهر في صورة إنسان،

وحينئذ يعود اللبس ويبقى الإشكال. فقضت الحكمة: أن يجعل الله من بني الإنسان طائفة ممتازة، لها استعداد خاص يؤهلها لأن تتلقى عن الله الوحي، ثم تؤديه في أمانة إلى العامة من إخوانهم في الإنسانية، بعد أن وضع الله في أيديهم شواهد الحق الناطقة التي تدل العالم على مراده ﷻ من تصديقهم، وبعد أن سلّحهم بالآيات التي تطمئن الناس على أنهم رسل لإنقاذهم وإرشادهم من عند ربهم. ثم إن اختصاص بعض أفراد النوع الإنساني بالوحي والنبوة، فيه نوع من الاختبار والابتلاء الذي بنى الله عليه هذه الحياة، وميز به الخبيث من الطيب، قال تعالى: ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [البقرة: ١٠٥]. وتلك الشبهة يقول الله في مثلها من سورة الأنعام: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٨، ٩] وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٥].

الشبهة الثانية:

يقولون: إن هذا الوحي الذي تدّعونه، وتدّعون تنجيمه، جاء بهذا القرآن غير مرتب ولا منظّم؛ فلم يفرد كل غرض من أغراضه بفصل أو باب، شأن سائر الكتب المنظّمة، بل مزجت أغراضه مزجًا غير مراعى فيه نظام التأليف؛ فيبعد أن يكون وحيًا من الله.

وهذه الشبهة واردة -كما ترى- على تنجيم القرآن، وترتيبه أيضًا.

والجواب: أن مخالفة القرآن لأنظمة الكتب المؤلفة لا تعتبر عيبًا فيه، ولا في وحيه وموحيه؛ بل هي -على العكس- دليل مادي على أنه ليس بكتاب وضعي بشري، يجلس إليه واضعه من الناس فيجعل لكل طائفة من معلوماته المتناسبة فصلًا، ولكل مجموعة من فصوله المتناسقة بابًا؛ بل هو مجموع إشراقات من

الوحي الإلهي الأعلى، اقتضتها الحكمة، ودعت إليها المصلحة على ما هو مفصّل في أسرار تنجيم القرآن. ثم إن هذا المزيج الطريف الذي نجده في كل سورة، أو طائفة منه، له أثر بالغ في التذاذ قارئه، وتشويق سامعه، واستفادة المستفيد بأنواع متنوعة منه، في كل جلسة من جلساته، أو درس من دروسه؛ وهذا هو الأسلوب الحكيم في التعليم والإرشاد.

الشبهة الثالثة:

يقولون: إن محمدًا ﷺ كان عصبيًّا حادّ المزاج، وكان مريضًا بما يسمّونه الهستيريا؛ فالوحي الذي كان يزعمه ما هو إلا أعراض لتلك الحال التي أصيب بها.

والجواب: أن هذه فرية تدل على جهلهم الفاضح بمحمد ﷺ؛ فالمعروف عنه بشهادة التاريخ الصحيح، والأدلة القاطعة: أنه كان وديعًا صبورًا حليمًا، بل كان عظيم الصبر، واسع الحلم، فسيح الصدر، حتى إنه وسع الناس جميعًا ببسطه وخلُقه. وكان شجاعًا مقدامًا، سليم الجسم صحيح البدن، حتى إنه صارع ركانة المشهور بشجاعته، فصرعه. وكان يثبت في الميدان حين يفر الشجعان ويفزع الخلْق ويشتد الأمر، ويقول: ((أنا النبي لا كذب. أنا ابن عبد المطلب))، ويقول: ((إليَّ عباد الله!))، ولا يزال كذلك حتى ينقذ الموقف ويكسب المعركة. ولو أفضنا في هذا الموضوع لطال بنا الكلام، ولكن موضوعه كُتب السيرة والشمائل المحمدية، فارجع إليها إن شئت.

أما مرض الهستيريا الذي يصِمونه كذبًا به، فهو داء عصبي عضال، أكثر إصاباته في النساء. ومن أعراضه: شذوذ في الخلق، وضيق في التنفس، واضطراب في الهضم، وقد

يصل بصاحبه إلى شلل موضعي، ثم إلى تشنج، ثم إلى إغماء، ثم إلى هذيان مصحوب بحركة واضطراب في اليدين والرجلين، وقفز من مكان إلى مكان. وقد يزعم المصاب أنه يرى أشباحًا تهدّده، وأعداء تحاربه، أو أنه يسمع أصواتًا تخاطبه، على حين أنه لا وجود لشيء من ذلك كله في الحس والواقع. فهل يتفق ذلك وما هو معروف عن النبي من أنه كان أمة وحده، في أخلاقه، وثباته، وحِلمه، وعقله، ورباطة جأشه، وسلامة جسمه، وقوة بنائه؟ ثم كيف يتفق ذلك الداء العضال الذي أعيا الأطباء، وما انتُدب له محمد من تكوين أمة شموس أبيّة، وتربيتها على أسمى نواميس الهداية، ودساتير الاجتماع، وقوانين الأخلاق، وقواعد النهضة والرقي؟ أضف إلى ذلك أنه نجح في هذه المحاولة المعجزة إلى درجة جعلت تلك الأمة بعد قرن واحد من الزمان، هي أمة الأمم، وصاحبة العلم، وربة السيف والقلم. فهل المريض المتهوس، الذي لا يصلح لقيادة نفسه، يتسنى له أن يقوم بهذه القيادة العالمية الفائقة، ثم ينجح فيها هذا النجاح المعجز المدهش؟!

الشبهة الرابعة:

يقولون: إنكم تستدلّون على الوحي بإعجاز القرآن، وتستدلّون على إعجاز القرآن بما فيه من أسرار البلاغة؛ ونحن لا ندرك تلك الأسرار ولا نسلمها، فلا نسلم الوحي المبني عليها.

والجواب: أن للقرآن نواحٍ أخرى في الإعجاز، غير ما يحويه من أسرار البلاغة والبيان، ومن السهل معرفتها على من لم يتمهّر في علوم العربية واللسان، منها: ما يحويه هذا التنزيل من المعارف السامية، والتعاليم العالية في العقائد والعبادات، وفي التشريعات المدنية والجنائية والحربية والمالية، والحقوق الشخصية والاجتماعية والدولية. وقد تكلمنا عن ذلك فيما سبق، ويكفي من ناحية

إعجازه من ناحية بلاغته: عجز العرب الفصحاء عن معارضته، مع حاجتهم الماسة لذلك؛ وهذا ما شهد به التاريخ بلا جدال.

الشبهة الخامسة:

وأخيرًا: شبهة أخرى قد تَعْرِض لبعض المأفونين: وهي أن هذا البعد الشاسع بين القرآن والحديث لم يجئ من ناحية أن القرآن كلام الله، والحديث كلام محمد، إنما جاء من ناحية أن محمدًا كان له ضربان من الكلام: أحدهما: يحتفل به كل احتفال، ويعنى مزيد العناية بتهذيبه، وتنميقه، وتحضيره، وذلك هو: ما سماه بالقرآن، ونسَبَه إلى الله. وثانيهما: يرسله إرسالًا غير معني بتحبيره وتحريره، وهو المسمّى بالحديث النبوي. ثم يقولون، لترويج شبهتهم هذه: إن ذلك ليس بدعًا فيما نرى من آثار الأدباء والبلغاء، بل نحن نلحظ أن الأديب الواحد يعلو كلامه الصادر عن تأمل وعناية وروية علوًّا كبيرًا عن كلامه المرسل على البديهة، حتى كأنهما لكاتبيْن اثنيْن بينهما بعد ما بين المشرقيْن.

الجواب الأول على هذه الشبهة: أنها مبنيّة على قياس فاسد، وهو تشبيه أدباء ذاك العصر الزاهر الذي نزل فيه القرآن، وسلمت فيه السليقة العربية بأدباء هذا العصر المولّدين، الذين فسدت لغتهم وتبلبلت ألسنتهم، وشتان ما بين الطبقتيْن.

الجواب الثاني: أنها تخالف في أساسها ما هو واقع معروف؛ ذلك أن القرآن الكريم، منه ما نزل مفاجأة على غير انتظار وتفكير، وبدون تلبث وتدبير، وهو أكثره. ومنه ما نزل بعد تشوّف واستشراف وطول انتظار، وهو أقله. ومع هذا، فأسلوبه الأعلى هو أسلوبه الأعلى، ونظمه المعجز هو نظمه المعجز، في الحاليْن على السواء.

وهذا الذي يقال في القرآن، يقال مثله في الحديث النبوي: فمنه ما كان وليد التفكير والتدبير والمشاورة والمداولة، كحديثه في شؤون الحرب والصلح. ومنه ما كان وحي الساعة وإرسال البديهة. ولكنها مع اختلافها لم يختلف فيها الأسلوب النبوي؛ بل هو طراز واحد من أرقى الأساليب البشرية، إن لم يكن أرقاها، وقلما تلحظ فيه تفاوتًا كثيرًا، لا فرق في ذلك بين ما أرسله على البديهة، وما أجال فيه الرأي والاستشارة، وما نزل به وحي السنة، وما احتفل به احتفالًا ممتازًا بالمواقف المشهودة والمجامع المحشودة. إذًا، هما نمطان متمايزان، لا يشتبهان. نمط القرآن كله، ونمط الحديث كله، لكل منهما مسحة وبيان، ودرجة في الفوق والسبق؛ بينها وبين الأخرى بُعد ما بين شأني الخالق والخلْق.

شبهة قديمة:

ومن الشبهات القديمة التي ذكرها الله ﷻ في كتابه: قولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]. فتارة يقولون: غلام ابن الحضرمي، وتارة يقولون: بحيرا الراهب. وما تقدم يُبطل هذه الدعوى من وجوه كثيرة. وقد انبرى كثير من أهل العلم لردّ مثل هذه الشبهات.

ومن الكتب التي اهتمّت بهذا الجانب: كتاب (النبأ العظيم)، للشيخ محمد عبد الله دراز.

وقد شاهد الوحيَ معاصروه، ونُقل بالتواتر المستوفي لشروطه، بما يفيد العلْم اليقيني. ولم يكن رسولنا ﷺ أولَ رسول أُوحي إليه، بل أوحى الله إلى الرسل مِن قبله، كما قال: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣] الآية.

علم أسباب النزول

عناصر الدرس

معنــــى ســــبب النـــــزول

علم أسباب النزول من أهم العلوم التي يجب على من تكلّم في القرآن أن يحيط بها.

مَن ألّف في هذا العلم:

وقد أفرد هذا العلْم بالتصنيف جماعة، أقدمهم: علي بن المديني، شيخ البخاري - رحمه الله- . ومن أشهر هذه الكتب: كتاب الواحدي، وهو مطبوع متداول. قال السيوطي: على ما فيه من إعواز. وقد اختصره الجعبري، فحذف أسانيده، ولم يزد عليه شيئًا.

وكذا ألّف فيه الحافظ ابن حجر كتابه: (العجاب في بيان الأسباب)، وقد طبع ما وجد منه لأنه ناقص. وألّف فيه السيوطي أيضًا كتابًا حافلًا، لم يؤلّف مثله في هذا النوع، سماه: (لباب النقول في أسباب النزول). وقد قام شيخنا أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي - رحمه الله- بتصنيف رسالة مختصرة سماها: (الصحيح المسند من أسباب النزول)، وهي رسالة جيدة مطبوعة، إلا أنها ينقصها الكثير مما صح لم يدرجه الشيخ فيها، لتشدّده في قبول بعض الأسانيد.

ولا يزال هذا العلم بحاجة لمن يقوم بتنقية رواياته، باعتدال في النقد، واستقراء مستوعب للروايات.

معنى: سبب النزول:

القرآن الكريم قسمان:

قسم: نزل من الله ابتداء، غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة؛ إنما هو لمحض هداية الخلق إلى الحق؛ وهو كثير ظاهر، لا يحتاج إلى بحث ولا بيان.

وقسم: نزل مرتبطًا بسبب من الأسباب الخاصة، وهو موضوع بحثنا الآن، غير أننا لا نريد أن نستعرض جميع الآيات التي جاءت على أسباب. إنما غرَضنا في هذا المبحث: أن نتكلم بإيجاز عما يتعلق بهذا العلْم من أطرافه، مثل: معنى سبب النزول، وفوائد معرفة أسباب النزول، وطريق هذه المعرفة، والتعبيرات عن سبب النزول، وحكم تعدد الأسباب والنازل واحد، وتعدد النازل والسبب واحد، إلى غير ذلك...

وسبب النزول هو: حادثة، أو سؤال يعقبه نزول القرآن.

مثال ذلك: نزول سورة: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد: ١]؛ فإن رسول الله ﷺ عندما نادى بطون قريش وأنذرهم، قال له أبو لهب: "تبًا لك! ألهذا جمعتنا؟"، فنزلت هذه السورة. والحديث في الصحيح.

وعرّف الزرقاني سبب النزول بقوله: "هو: ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه، مبيّنة لحكمه أيام وقوعه". والمعنى: أنه حادثة وقعت في زمن النبي ﷺ، أو سؤال وُجّه إليه، فنزلت الآية أو الآيات من الله تعالى ببيان ما يتصل بتلك الحادثة، أو بجواب هذا السؤال، سواء:

أكانت تلك الحادثة خصومة دبت؛ كالخلاف الذي شجر بين جماعة من الأوس وجماعة من الخزرج، بدسيسة من أعداء الله اليهود، حتى تنادوا: "السلاح! السلاح!". ونزل بسببه تلك الآيات الحكيمة في سورة (آل عمران) من أوّل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، إلى آيات أخرى بعدها، هي من أروع ما ينفّر من الانقسام والشقاق، ويرغّب في المحبة والوحدة والاتفاق.

أم كانت تلك الحادثة خطأ فاحشًا ارتُكب، كذلك السكران الذي أمّ الناس في صلاته وهو في نشوته، ثم قرأ السورة بعد [الفاتحة]، فقال: "قل يا أيها

الكافرون، أعبد ما تعبدون"، وحذف لفظ ﴿لَآ﴾ من: ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾؛ فنزلت الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

أم كانت تلك الحادثة تمنّيًا من التمنّيات، ورغبة من الرغبات، كموافقات عمر > التي أفردها بعضهم بالتأليف. ومن أمثلتها: ما أخرجه البخاري وغيره، عن أنس > قال: "قال عمر: وافقتُ ربي في ثلاث: قلت: يا رسول الله. لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلّى؛ فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البَر والفاجر، فلو أمرتَهن أن يحتجِبْن؛ فنزلت آية الحجاب. واجتمع على رسول الله نساؤه في الغيرة، فقلت لهن: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم: ٥]؛ فنزلت كذلك، وهذه في سورة (التحريم)".

قلت: هذا من العلوم التي أفردها السيوطي، وسمّاه: (ما أنزل من القرآن على لسان بعض الصحابة)، وقال: "هو في الحقيقة نوع من أسباب النزول".

قال الزرقاني: "وسواء أكان ذلك السؤال المرفوع إلى النبي ﷺ يتصل بأمر مضى نحو قوله ﷻ في سورة (الكهف): ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾ [الكهف: ٨٣] إلخ، أم يتصل بحاضر نحو قوله تعالى في سورة (الإسراء): ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥]، أم يتصل بمستقبل نحو قوله -جل ذكره- في سورة (النازعات): ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٢] الخ...".

والمراد بقولنا: "أيام وقوعه": الظروف التي ينزل القرآن فيها متحدثًا عن ذلك السبب؛ سواء أوقع هذا النزول عقب سببه مباشرة، أم تأخّر عنه مدة لِحكمة من الحِكم، كما حدث ذلك: حين سألت قريش رسول الله ﷺ عن الروح، وأصحاب الكهف، وذي القرنين، فقال: ((غدًا أخبركم))، ولم يستَثْن. أي: لم يقل: "إن شاء الله"، فأبطأ عليه الوحي خمسة عشر يومًا، على ما رواه ابن إسحاق، وقيل: ثلاثة أيام، وقيل: أربعين يومًا، حتى شق عليه ذلك. ثم نزلت أجوبة تلك المقترحات، وفي طيِّها يرشد الله تعالى رسوله إلى أدب الاستثناء بالمشيئة، ويقول له في سورة (الكهف): ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤].

ثم إن كلمة: "أيام وقوعه"، في تعريف "سبب النزول": قيْد لا بد منه للاحتراز عن الآية أو الآيات التي تنزل ابتداء من غير سبب، بينما هي تتحدث عن بعض الوقائع والأحوال الماضية أو المستقبلة، كبعض قصص الأنبياء السابقين وأممهم، وكالحديث عن الساعة وما يتصل بها؛ وهو كثير في القرآن الكريم.

قال السيوطي: "والذي يتحرر في سبب النزول: أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه ليخرج ما ذكره الواحدي في سورة (الفيل) من أن سببها: قصة قدوم الحبشة به، فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء؛ بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية، كذكر قصة قوم نوح وعاد وثمود وبناء البيت، ونحو ذلك... وكذلك ذكره في قوله: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴾ [النساء: ١٢٥] سبب اتخاذه خليلًا ليس ذلك من أسباب نزول القرآن، كما لا يخفى.

طريق معرفة سبب النزول

لا طريق لمعرفة أسباب النزول، إلا النقل الصحيح. روى الواحدي بسنده عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: ((اتقوا الحديث، إلا ما علمتم؛ فإنه مَن كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار. ومن كذب على القرآن من غير علْم فليتبوّأ مقعده من النار)).

قال الجعبري: "نزول القرآن على قسمين: قسم نزل ابتداء، وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال".

ولا يحلّ القول في أسباب نزول الكتاب، إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علْمها.

قال الحاكم، في (علوم الحديث): "إذا أخبر الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل، عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا، فإنه حديث مسند. ومشى على هذا: ابن الصلاح وغيره. ومثلوه بما أخرجه مسلم، عن جابر قال: "كانت اليهود تقول: "مَن أتى امرأتَه من دبرها في قُبُلها، جاء الولد أحول"؛ فأنزل الله: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ " [البقرة: ٢٢٣].

وقال ابن تيمية: "قولهم: "نزلت هذه الآية في كذا" يُراد به تارة: سبب النزول، ويُراد به تارة: أن ذلك داخل في الآية وإن لم يكن السبب، كما تقول: عني بهذه الآية كذا".

وقد تنازع العلماء في قول الصحابي: "نزلت هذه الآية في كذا"، هل يجري مجرى المسند، كما لو ذكر السبب الذي أُنزلت لأجله، أو يجري مجرى التفسير منه الذي

ليس بمسند؟ فالبخاري يُدخله في المسند، وغيره لا يدخله فيه. وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح، كمسند أحمد وغيره. بخلاف ما إذا ذكر سببًا نزلت عقِبه، فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند". انتهى.

وقال الزركشي: "قد عُرف من عادة الصحابة والتابعين: أن أحدهم إذا قال: "نزلت هذه الآية في كذا"، فإنه يريد بذلك: أنها تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها؛ فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية، لا من جنس النقل لما وقع".

والذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية جامع للوجهتيْن، والقرائن ترجّح أيهما أراد الصحابي. والله أعلم.

وما تقدم أنه من قبيل المسند من الصحابي، إذا وقع من تابعي فهو مرفوع أيضًا، لكنه مرسل.

وله صِيَغ:

الصيَغ الدالة على سبب النزول:

صيغة صريحة في السببية وهي: أن يذكر الحادثة أو السؤال، ويُتبع ذلك بلفظ: "فنزلت"، أو "فأنزل الله"، معبرًا بفاء السببية، أو يصرح بالسببية فيقول: "نزلت بسبب كذا".

صيغة محتملة للسببية وهي: أن يقول: "نزلت في كذا"، وذلك لأنها تحتمل إرادة أنّ الحكم تشمله تلك الآية، لا أن ذلك هو السبب الذي نزلت لأجله. وكذلك إذا قال: "أحسب هذه الآية نزلت في كذا".

وما الحكم إذا وردت عبارتان في موضوع واحد، إحداهما: نص في السببية لنزول آية أو آيات، والثانية ليست نصًّا في السببية لنزول تلك الآية أو الآيات؟ هنالك نأخذ في السببية بما هو نص، ونحمل الأخرى على أنها بيان لمدلول الآية، لأن النص أقوى في الدلالة من المحتمل. مثال ذلك:

ما أخرجه مسلم عن جابر قال: "كانت اليهود تقول: "من أتى امرأة من دبرها في قُبلها، جاء الولد أحول"؛ فأنزل الله: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

أما إذا كان الاختلاف دائرًا بين عبارتيْن أو عبارات ليس شيء منها نصًّا، كأن يقول بعض المفسرين: "نزلت هذه الآية في كذا"، ويقول الآخَر: "نزلت في كذا"، ثم يذكر شيئًا آخَر غير ما ذكره الأوّل، وكان اللفظ يتناولهما، ولا قرينة تصرف إحداهما إلى السببية، فإنّ الروايتيْن كلتيْهما تُحملان على بيان ما يتناوله من المدلولات، ولا وجه لحملهما على السبب.

وأمّا إذا كان الاختلاف دائرًا بين عبارتيْن أو عبارات كلّها نص في السببية، فهنا يتشعب الكلام". اهـ.

وسيأتي تفصيل هذا الكلام عند حديثنا عن تعدد السبب، والنازل واحد.

ومن طريف ما جاء في أسباب النزول: نزول آيات بسبب شخص واحد. ومن ذلك: ما رواه مسلم في (صحيحه) عن سعد بن أبي وقاص > قال: "نزلت فيّ أربع آيات من كتاب الله ﷻ:

الأولى: كانت أمّي حلفت ألا تأكل ولا تشرب حتى أفارق محمدًا ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ [لقمان: ١٥].

والثانية: أنّي كنت أخذت سيفًا فأعجبني، فقلت: يا رسول الله. هب لي هذا، فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ [الأنفال: ١].

والثالثة: ((أني كنت مرضت، فأتاني رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله. إني أريد أن أقسم مالي، أفأوصي بالنصف؟ فقال: لا. فقلت: الثلث؟ فسكت. فكان الثلث بعد جائزًا)).

فوائد أسباب النزول

زعم بعض الناس: أنه لا فائدة للإلمام بأسباب النزول، وأنها لا تعدو أن تكون تاريخًا للنزول، أو جارية مجرى التاريخ. وقد أخطأ فيما زعم؛ فإن لأسباب النزول فوائد متعددة، لا فائدة واحدة.

الفائدة الأولى: معرفة حِكمة الله تعالى على التّعيين، فيما شرعه بالتنزيل؛ وفي ذلك نفع للمؤمن وغير المؤمن:

أمّا المؤمن فيزداد إيمانًا على إيمانه، ويحرص كل الحرص على تنفيذ أحكام الله، والعمل بكتابه، لما يتجلّى له من المصالح والمزايا التي نيطت بهذه الأحكام، ومِن أجلها جاء هذا التنزيل.

وأما الكافر فتسوقه تلك الحِكم الباهرة إلى الإيمان إن كان منصفًا، حين يعلم أنّ هذا التشريع الإسلامي قام على رعاية مصالح الإنسان.

الفائدة الثانية: الاستعانة على فهْم الآية، ودفع الإشكال عنها.

قال الواحدي: "لا يمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصّتها وبيان نزولها".

وقال ابن تيمية: "معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية؛ فإن العلْم بالسبب يورث العلْم بالمسبب".

وقد أشكل على مروان بن الحكم معنى قوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا ﴾ [آل عمران: ١٨٨] الآية، وقال: "لئن كان كل امرئ فرح بما أتى وأحب أن يُحمد بما لم يفعل معذّبًا، لنعذّبنّ أجمعون"؛ حتى بيّن له ابن عباس: "أن الآية نزلت في أهل الكتاب، حين سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره، وأرَوْه أنهم أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه". أخرجه الشيخان.

قال بعضهم: وما أجاب به ابن عباس عن سؤال مروان لا يكفي، لأن اللفظ أعمّ من السبب، ويشهد له قوله ﷺ: ((المتشبِّع بما لم يُعط كلابس ثوبَيْ زور))، وإنما الجواب: أن الوعيد مرتّب على أثر الأمريْن المذكوريْن، وهما: الفرح، وحبّ الحمد، لا عليهما أنفسهما؛ إذ هما من الأمور الطبيعية التي لا يتعلق بها التكليف أمرًا ولا نهيًا.

الفائدة الثالثة: دفْع توهّمِ الحصر عما يفيد بظاهره الحصر، نحو قوله ﷻ في سورة (الأنعام): ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

ذهب الشافعي إلى: أنّ الحصر في هذه الآية غير مقصود، واستعان على دفع توهّمه بأنها نزلت بسبب أولئك الكفار الذين أبوْا إلا أن يحرِّموا ما أحل الله، ويُحلّوا ما حرّم الله، عنادًا منهم ومحادّة لله ورسوله ﷺ؛ فنزلت الآية بهذا الحصر الصوري محادّة من الله ورسوله ﷺ، لا قصدًا إلى حقيقة الحصر.

الفائدة الرابعة: تخصيص الحكم بالسبب، عند من يرى: أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ.

فآيات الظِّهار في مفتتح سورة (المجادلة)، وسببها: أنّ أوس بن الصامت ظاهر من زوجته خولة بنت حكيم بن ثعلبة، والحكم الذي تضمّنته هذه الآيات خاص بهما وحدهما على هذا الرأي، أما غيرهما فيعلم بدليل آخر قياسًا أو سواه. وبدهي: أنه لا يمكن معرفة المقصود بهذا الحكم، ولا القياس عليه، إلا إذا عُلِم السبب، وبدون معرفة السبب تصير الآية معطّلة خالية من الفائدة.

الفائدة الخامسة: معرفة أن سبب النزول غير خارج عن حُكم الآية إذا ورد مخصّص لها، وذلك لقيام الإجماع على أن حُكم السبب باقٍ قطعًا، فيكون التخصيص قاصرًا على ما سواه. فلو لم يعرف سبب النزول، لجاز أن يفهم أنه مما خرج بالتخصيص، مع أنه لا يجوز إخراجه قطعًا، للإجماع المذكور.

الفائدة السادسة: معرفة مَن نزلت فيه الآية على التّعيين، حتى لا يشتبه بغيره، فيُتّهم البريء ويبرأ المريب؛ ولهذا ردت عائشة على مروان، حين اتّهم أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر بأنه الذي نزلت فيه آية: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ ﴾ [الأحقاف: ١٧] إلى آخر الآية، وقالت: "والله ما هو به، ولو شئت أن أسمّيه لسمّيته"... إلى آخر تلك القصة.

قلت: الصواب: ما ذهب إليه مروان، لأدلة أخرى؛ ومَن حفظ حجة على من لم يحفظ.

الفائدة السابعة: تيسير الحفظ، وتسهيل الفهم، وتثبيت الوحي في ذهن كل مَن يسمع الآية إذا عرف سببها؛ ذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات، والأحكام

بالحوادث، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة، كل أولئك من دواعي تقرر الأشياء وانتقاشها في الذهن، وسهولة استذكارها.

وهناك أمر ينبغي التنبيه عليه: وهو ما اعتبره بعض أهل العلم ملحَقًا بأسباب النزول، وإن لم يكن منها. وهو: قد تنزل الآيات لسبب خاص، ثم توضع مع ما يناسبها من الآي، رعاية لنظم القرآن وحسن السياق؛ فذلك الذي وضعت معه الآية النازلة على سبب خاص للمناسبة دلالة اللفظ عليه، هل هي كالسبب، فلا يخرج ويكون مرادًا من الآيات قطعًا، أو لا؟

اختار بعضهم: أنه رتبة متوسطة دون السبب، وفوق العموم المجرد.

ويستشهدون بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨]، فالمشهور: أنها نزلت بسبب مفتاح الكعبة؛ فإن مناسبتها للآية التي قبلها وهي: قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٥٠]، أن ذلك إشارة إلى كعب بن الأشرف، كان قدم إلى مكة، وشاهد قتلى بدر، وحرض الكفار على الأخذ بثأرهم، وغزو النبي ﷺ فسألوه: من أهدى سبيلًا: النبي ﷺ، أو هم؟ فقال: أنتم، كذبًا منه وضلالة -لعنه الله-. فتلك الآية في حقه وحقّ مَن شاركه في تلك المقالة، وهم: أهل كتاب يجدون عندهم في كتابهم بعث النبي ﷺوصفته، وقد أخذت عليهم المواثيق ألا يكتموا ذلك، وأن ينصروه، وكان ذلك أمانة لازمة لهم، فلم يؤدّوها وخانوا فيها؛ وذلك مناسب لقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨].

ولا يرد على هذا: أنّ قصة كعب بن الأشرف كانت عقب بدر، ونزول ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ ﴾ في الفتح أو قريبًا منها، وبينهما ست سنين، لأن الزمان إنما يشترط في

سبب النزول، ولا يشترط في المناسبة، لأن المقصود منها وضع آية في موضع يناسبها، والآيات كانت تنزل على أسبابها، ويأمر النبي ﷺ بوضعها في المواضع التي علِم من الله تعالى أنها مواضعها.

واعلم: أنه جرت عادة المفسرين أن يبدؤوا بذكر سبب النزول، ووقع البحث: أيما أوْلى: البداءة به بتقدّم السبب على المسبب؟ أو بالمناسبة، لأنها المصححة لنظم الكلام؟

والتحقيق: التفصيل بين أن يكون وجه المناسبة متوقفًا على سبب النزول، كالآية السابقة في: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾، فهذا ينبغي فيه تقديم ذكر السبب، لأنه حينئذ من باب تقديم الوسائل على المقاصد. وإن لم يتوقف على ذلك، فالأوْلى تقديم وجه المناسبة.

وقد ألحق بعضهم نوعًا من علوم القرآن بأسباب النزول، وهو: تقدم نزول آية على حكمها؛ والصواب: أن ذلك لا علاقة له بأسباب النزول، وغاية ما فيه: أنه متعلق بالأحكام المستنبطة من القرآن، إلا أن الحكم المستنبط لم يظهر إلا متأخرًا على النزول. وقد ذكرنا نبذة عن هذا النوع في تعريفنا لعلوم القرآن.

تعدد سبب النزول لنازل واحد: أولًا: قد يكون بعضها ضعيفًا وبعضها صحيحًا، فيقدَّم الصحيح

قد تتعدّد الروايات الواردة في سبب نزول آية واحدة أو آيات معيّنة، والعمل عند ذلك كالآتي:

أولًا: قد يكون بعضها ضعيفًا وبعضها صحيحًا، فيقدَّم الصحيح

مثال ذلك: ما أخرجه الشيخان وغيرهما، عن جندب قال: ((اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتيْن، فأتته امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى صاحبَك إلا قد تركك، فأنزل الله: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى: ١- ٣])).

وأخرج الطبراني وابن أبي شيبة، عن حفص بن ميسرة عن أمه، عن أمّها وكانت خادم رسول الله ﷺ: ((أنّ جروًا دخل بيت النبي ﷺ، فدخل تحت السرير فمات. فمكث النبي ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي. فقال: يا خولة، ما حدث في بيت رسول الله ﷺ؟ جبريل لا يأتيني. فقلت في نفسي: لو هيّأت البيت وكنستُه. فأهويت بالمكنسة تحت السرير، فأخرجت الجرو. فجاء النبي ﷺ ترعد لحيته، وكان إذا نزل عليه أخذته الرعدة، فأنزل الله ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَرْضَىٰٓ﴾)).

فنحن بين هاتيْن الروايتيْن نقدّم الرواية الأولى في بيان السبب، لصحّتها دون الثانية لأن في إسنادها من لا يُعرف. قال ابن حجر: "قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة، لكن كونها سبب نزول الآية غريب، وفي إسناده من لا يُعرف؛ فالمعتمد: ما في الصحيح".

قال السيوطي: "ومن أمثلته أيضًا: ما أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ((أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود. فاستقبله بضعة عشر شهرًا، وكان يحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٥٠]، فارتاب في ذلك اليهود، وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢]، فأنزل الله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾، وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾)).

وأخرج الحاكم وغيره، عن ابن عمر قال: "نزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾: أن تصلي حيثما توجهتْ بك راحلتك في التطوع".

وأخرج الترمذي، وضعّفه، من حديث عامر بن ربيعة، قال: ((كنا في سفر في ليلة مظلمة، فلم ندْرِ أين القبلة، فصلى كل رجل منا على حياله. فلما أصبحنا، ذكرنا ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت)).

وأخرج الدارقطني نحوه، من حديث جابر، بسند ضعيف أيضًا.

وأخرج ابن جرير، عن مجاهد قال: "لما نزلت: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠]، قالوا: إلى أين؟ فنزلت": مرسل.

وأخرج عن قتادة: أنّ النبي ﷺ قال: ((إن أخًا لكم قد مات، فصلوا عليه. فقالوا: إنه كان لا يصلي إلى القبلة. فنزلت)): معضل غريب جدًا.

فهذه خمسة أسباب مختلفة، وأضعفها: الأخير لإعضاله، ثم ما قبله لإرساله، ثم ما قبله لضعف رواته، والثاني صحيح، لكنه قال: "قد أنزلت في كذا"، ولم يصرّح بالسبب. والأول صحيح الإسناد، وصرح فيه بذكر السبب؛ فهو المعتمد.

ثانيًا: إذا كانت كلّها صحيحة، يقدّم الصريح في السببيّة

مثاله: ما أخرجه البخاري، عن ابن عمر قال: "أُنزلت: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢٣] في إتيان النساء في أدبارهن".

وتقدم عن جابر التصريح بذكر سبب خلافه. فالمعتمد: حديث جابر، لأنه نقل، وقول ابن عمر استنباط منه، وقد وهمه فيه ابن عباس، وذكر مثل حديث جابر، كما أخرجه أبو داود والحاكم.

وقد تقدّم في النقطة الأولى مثال لذلك أيضًا.

ثالثًا: إذا كانت كلّها صريحة في السببيّة، ينظر فلعلّ بعضها قُصد به التلاوة وليس النزول، وعبّر عنه بعض الرواة بالنزول

فقد يكون في إحدى القصتين: "فتلا"، فيَهِم الراوي فيقول: "فنزل".

مثاله: ما أخرجه الترمذي وصحّحه، عن ابن عباس قال: ((مر يهودي بالنبي ﷺ فقال: كيف تقول يا أبا القاسم؟ إذا وضع الله السموات على ذِهْ، والأرضين على ذِهْ، والماءَ على ذِهْ، والجبال على ذِهْ، وسائر الخلق على ذِهْ. فأنزل الله: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ ﴾ [الزمر: ٦٧])) الآية.

والحديث في الصحيح بلفظ: ((فتلا رسول الله)) ؛ وهو الصواب، فإن الآية مكية.

رابعًا: إذا لم يمكن ذلك، نقوم بالترجيح، فيقدم مثلًا الرواية التي كان الصحابي فيها حاضرًا على التي لم ينصّ على حضوره فيها

مثال ذلك: ما أخرجه البخاري، عن ابن مسعود قال: ((كنت أمشي مع النبي بالمدينة، وهو يتوكّأ على عسيب، فمرّ بنفر من اليهود، فقال بعضهم: لو سألتموه. فقالوا: حدثنا عن الروح. فقام ساعة ورفع رأسه، فعرفت أنه يوحَى إليه، حتى صعد الوحي. ثم قال: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٨٥])).

وما أخرجه الترمذي وصححه، عن ابن عباس قال: ((قالت قريش لليهود: أعطونا شيئًا نسأل هذا الرجل. فقالوا: اسألوه عن الروح. فسألوه. فأنزل الله: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾)).

فهذا الخبر الثاني يدل على أنها بمكة، وأن سبب نزولها: سؤال قريش إياه.

أما الأول: فصريح في أنها نزلت بالمدينة، بسبب سؤال اليهود إياه، وهو أرجح من وجهيْن:

أحدهما: أنه رواية البخاري.

أما الثاني: فإنه رواية الترمذي.

ومن المقرّر أن ما رواه البخاري أصح مما رواه غيره.

ثانيهما: أن راوي الخبر الأول، وهو: ابن مسعود، كان مشاهد القصة من أولها إلى آخرها، كما تدل على ذلك الرواية الأولى، بخلاف الخبر الثاني، فإن رواية ابن عباس لا تدل الرواية على أنه كان حاضر القصة؛ ولا ريب أن للمشاهدة قوة في التحمل وفي الأداء وفي الاستيثاق ليست لغير المشاهدة؛ ومن هنا أعملنا الرواية الأولى وأهملنا الثانية.

خامسًا: إذا تعذّر كل ذلك، وهو شبه مستحيل، يقال بتعدّد النزول، وأن الآية نزلت أكثر من مرة بعدد أسباب النزول التي تحدثت عنها الروايات

مثال ذلك: ما أخرجه البيهقي والبزار، عن أبي هريرة: ((أن النبي ﷺ وقف على حمزة حين استشهد، وقد مُثِّلَ به، فقال: لأُمَثِّلَنَّ بسبعين منهم مكانك، فنزل جبريل والنبي ﷺ واقف، بخواتيم سورة (النحل): ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦] إلى آخر السورة، وهن ثلاث آيات)).

وأخرج الترمذي والحاكم، عن أبيّ بن كعب، قال: "لما كان يوم أحد، أصيب من الأنصار أربعة وستون، ومن المهاجرين ستة، منهم: حمزة، فمثّلوا به. فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يومًا مثل هذا، لنربينّ، -أي: لنزيدنّ- عليهم. فلما كان يوم فتح مكة، أنزل الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ الآية".

فالرواية الأولى تفيد: أن الآية نزلت في غزوة أحد. والثانية: تفيد أنها نزلت يوم فتح مكة، على حين أنّ بين غزوة أحد وغزوة الفتح الأعظم بضع سنين؛ فبعُد أن يكون نزول الآية كان عقيبهما معًا؛ وإذًا لا مناص لنا من القول بتعدّد نزولها: مرة في أحد، ومرة يوم الفتح.

وقد ذهب البعض إلى: أن سورة (النحل) كلها مكية؛ وعليه، فتكون خواتيمها المذكورة نزلت مرة بمكة قبل هاتيْن المرتيْن اللّتيْن في المدينة، وتكون عدة مرات نزولها: ثلاثًا.

وبعضهم يقول: إن سورة (النحل) مكية ما عدا خواتيمها تلك، فإنها مدنية؛ وعليه فعدة مرات نزولها: اثنتان فقط.

قلت: لا يسلّم بما ذكر، فكل رواية مما سبق لا تخلو من مقال في إسنادها، والقول بأن الآيات الثلاث مكية لا حجة عليه. فهي بلا شك مدنية، والأقوى: نزولها عقب أُحد لشواهده الكثيرة.

وأخرج الحاكم وغيره، عن ابن مسعود قال: ((خرج النبي ﷺ يومًا إلى المقابر، فجلس إلى قبر منها، فناجاه طويلًا. ثم بكى فقال: إن القبر الذي جلستُ عنده قبر أمي، وإني استأذنت ربي في الدعاء لها، فلم يأذن لي. فأنزل عليّ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ ﴾)).

قلت: ذكر هذه الآية في رواية موت أبي طالب ليس على سبيل نزولها بعد ذلك مباشرة، والذي نزل بعد موته مباشرة قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ ﴾ [القصص: ٥٦] الآية، وهي مدنية لاشك؛ بل في سورة هي من أواخر ما نزل، فأين هي من مكة؟ وقد استمر النبي ﷺ والمؤمنون معه زمانًا يستغفرون للمشركين، حتى نهوا عن ذلك بنزول هذه الآية.

من القرآن ما تكرر نزوله

وقد صرح جماعة من أهل العلم: بأنّ من القرآن ما تكرّر نزوله.

قال ابن الحصار: "قد يتكرر نزول الآية، تذكيرًا وموعظة".

وقال الزركشي: "قد ينزل الشيء مرتيْن تعظيمًا لشأنه، وتذكيرًا عند حدوث سببه خوف نسيانه". ثم ذكر منه: آية الروح، وقوله: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ﴾ [هود: ١١٤] الآية.

قال السيوطي: "وهذا كما قيل في (الفاتحة) نزلت مرتين: مرة بمكة، وأخرى بالمدينة. وكما ثبت في (الصحيحين)، عن أبي عثمان النهدي عن ابن مسعود: ((أن رجلًا أصاب من امرأة قُبلة، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود: ١١٤]، فقال الرجل: ألي هذا؟ فقال: بل لجميع أمّتي)).

فهذا كان في المدينة، والرجل قد ذكر الترمذي أو غيره أنه: أبو اليسر، وسورة (هود) مكية بالاتفاق؛ ولهذا أشكل على بعضهم هذا الحديث، مع ما ذكرنا، ولا إشكال لأنها نزلت مرة بعد مرة.

وكذلك ما ورد في: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١]، أنها جواب للمشركين بمكة، وأنها جواب لأهل الكتاب بالمدينة.

والحكمة في هذا كلّه: أنه قد يحدث سبب من سؤال أو حادثة تقتضى نزول آية، وقد نزل قبل ذلك ما يتضمنها، فتؤدّى تلك الآية بعينها إلى النبي ﷺ تذكيرًا لهم بها، وبأنها تتضمن هذه. والعالم قد يحدث له حوادث، فيتذكر أحاديث وآيات

تتضمن الحكم في تلك الواقعة، وإن لم تكن خطرت له تلك الحادثة قبل مع حفظه لذلك النص.

قلت: هذه الحكمة وغيرها يكفي فيها مجرد تكرار التلاوة، لا النزول مرة أخرى.

ويحسن بنا: أن نتكلم عن موضع من مواضع الخلاف في أسباب النزول، لتعلّقه بمسألة التكرار هذه، وهو: ما جاء في سورة (الكوثر).

فقد وردت روايات تدل على كونها مدنية.

ومن ذلك: حديث أنس عند مسلم والنسائي في التفسير وغيرهما، وهو من رواية المختار بن فلفل عن أنس، وقد تفرد بهذه الرواية عن أنس. وسائر أصحاب أنس رووا الحديث بلفظ آخر ليس فيه هذه القصة. ومختار بن فلفل تكلّم فيه الإمام الحافظ السليماني، وعدّه في رواة المناكير عن أنس. ونحن لن نوافقه على ذلك، لإخراج روايته في الصحيح، إلا أننا نقول: لعل في اللفظ شيئًا من التصرف، خاصة وقد جاء بلفظ لا يتعارض مع مكية السورة؛ ولذا قال السيوطي: "وأخرج مسلم والبيهقي من وجه آخَر، بلفظ: ((ثم رفع رأسه فقرأ إلى آخر السورة))". قال البيهقي: "والمشهور فيما بين أهل التفسير والمغازي: أن هذه السورة مكية، وهذا اللفظ لا يخالفه، فيشبه أن يكون أوْلَى".

أقول: ويمكن أن يكون هذا فعلًا بانتقاء رواية لا إشكال فيها، وهي: ما أخرجه مسلم، وأحمد، وأبو داود، من طريق محمد بن فضيل عن المختار بن فلفل عن أنس. وإنما قلت ذلك، لما ثبت عن أنس من طرق في (الصحيحين) وغيرهما، في قصة الإسراء والمعراج: قول جبريل للنبي ﷺ: ((هذا الكوثر الذي أعطاكه الله)). وهذا يدل على تقدم نزول السورة على حادثة الإسراء والمعراج؛ فيكون الأمر هكذا: نزلت السورة على النبي ﷺ وأوحي إليه بتفسير "الكوثر"، فلما

عرج به أراه الله إياه، فسأل عنه جبريل فأخبره أنه هو هذا الذي أعطاك الله ووصفتُه لك.

أما على القول بمدنيّة نزولها: فيصعب الجمع بين ما تقدم.

وأمّا القول بأنه ﷺ تلا السورة مجرد تلاوة بالمدينة، ثم سأل الصحابة عن الكوثر فلم يعرفوه، - مع تقدم نزول السورة بمكة، وما حصل ليلة المعراج، واشتهار ما جرى له فيها من عجائب- ، فأمرٌ مستبعد.

وأقوى ما ورد في كونها مدنية، بعد حديث مسلم: حديث ابن عباس، قال: ((لما قدم كعب بن الأشرف مكة، قالت له قريش: أنت خير أهل المدينة وسيّدهم، قال: نعم. قالوا: ألا ترى إلى هذا الصنبور المنبتر من قومه، يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السدانة، وأهل السقاية. قال: أنتم خير منه، قال: فنزلت: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر: ١]. ونزلت: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ إلى قوله: ﴿نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥١- ٥٢])). أخرجه أحمد، وابن جرير، وابن حبان، والبزار، وإسناده صحيح. وليس فيه أن ذلك بعد الهجرة، ولكن المعنى: أن كعبًا قدم مكة بعد الهجرة بفترة. ويدل على ذلك: ما فيه من نزول آية (النساء)، وما جاء في الطرق الأخرى لهذه القصة، وهي كثيرة، منها: عن ابن عباس، ومنها: عن عكرمة. وجميع هذه الطُّرق لم يذكر فيه قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، ما أراها إلا وهمًا، لا سيما وقد روى هذا الحديث: عمرو بن دينار عند ابن أبي حاتم، عن عكرمة، فأرسله، ولم يذكرها فيه. ورواه عند الطبراني والبيهقي في (الدلائل)، فأثبت ابن عباس، ولم يذكرها فيه، وهي على كلّ مختصرة.

فالحاصل: أنّ ذكر هذه الآية في تلك القصة تفرد به ابن أبي عدي، عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس، ولا يخلو هذا الإسناد أصلًا من بعض مقال؛

ولولا معارضته لغيره لاعتمدناه على ما فيه، إلا أن مخالفته تجعلنا نضرب صفحًا عن هذا الجزء الذي تفرد به.

وقد يقال بتكرر نزول آية: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾، وهو قول لا بأس به، إذا قصد به هذه الآية فقط، وليس كل السورة، لسذاجة المعنى إذا قيل بنزولها كلها مرة ثانية.

ولا أرى: أن يقال في شيء من القرآن: تكرّر نزوله، لأنه إذا نزل وتلي فما معنى القول بالنزول مرة ثانية، حيث إنه إذا جاء جبريل بما تقدم نزوله؟ فإنما هو للتلاوة والتذكر، وليس إنزالًا مرة ثانية. وقد علمنا أنه ﷺ لا ينطق إلا بوحي؛ فمعنى ذلك: أنه كلما تلا شيئًا من القرآن، قيل بنزوله مرة ثانية، وبحمد الله لا يوجد رواية صحيحة في أسباب النزول -على الرغم من التتبع الشديد- تجعلنا نقول بتعدد النزول. وما ورد مما يقال فيه ذلك، ونظر فيه نظرة فاحصة بعد جمع الطرق والشواهد، ظهر أنّ الخطأ فيه من بعض الرواة المتكلم في حفظهم. والله أعلم.

وأما نزولها بمكة فهو المعتمد، لإجماع الحجة من أهل التفسير على حد تعبير الطبري - رحمه الله- على ذلك. ويوافقهم أهل (المغازي)، بالإضافة لوفرة الأدلة التي تؤيده مما ذكرناه، ومما لم نذكره هنا وينظر في (صحيح السيرة النبوية).

ويلاحظ: أنه لا مانع من تعدّد أسباب النزول لآية واحدة، بمعنى حصول أكثر من سبب في وقت متقارب سابق للنزول، فتنزل الآية بسبب ذلك جميعًا.

وهذا إذا ما استوت الروايتان في الصحة، ولا مرجح لإحداهما، لكن يمكن الجمع بينهما بأنّ كلًا من السببيْن حصل، ونزلت الآية عقب حصولهما معًا لتقارب زمنيْهما. فحكم هذه الصورة: أن نحمل الأمر على تعدد السبب، لأنه الظاهر، ولا مانع يمنعه. قال ابن حجر: "لا مانع من تعدد الأسباب".

تعدّد النّازل، والسّبب واحد

وننتقل إلى طرف آخَر من أطراف علم أسباب النزول، وهو عكس ما سبق ذكْره: تعدّد النازل والسبب واحد.

فقد يكون أمر واحد سببًا لنزول آيتين أو آيات متعدّدة، على عكس ما سبق؛ ولا مانع من ذلك لأنه لا ينافي الحكمة في إقناع الناس، وهداية الخلق، وبيان الحق عند الحاجة؛ بل إنه قد يكون أبلغ في الإقناع وأظهر في البيان.

مثال السبب الواحد تنزل فيه آيتان:

ما أخرجه ابن جرير الطبري، والطبراني، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: ((كان رسول الله ﷺ جالسًا في ظل شجرة، فقال: إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاء فلا تكلّموه)). فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق العينيْن، فدعاه رسول الله، فقال: علامَ تشتمني أنت وأصحابك؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا، حتى تجاوز عنهم؛ فأنزل الله: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ۚ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ ۖ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [التوبة: ٧٤].

وأخرج الحاكم وأحمد هذا الحديث بهذا اللفظ، وقالا: ((فأنزل الله: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٨])).

ومثال السبب الواحد ينزل فيه أكثر من آيتيْن:

ما أخرجه الحاكم والترمذي، عن أم سلمة أنها قالت: ((يا رسول الله، لا أسمع الله ذكَر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل الله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥])).

ومن أمثلته أيضًا: ما أخرجه البخاري، من حديث زيد بن ثابت: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ [النساء: ٩٥]، فجاء ابن أم مكتوم وقال: يا رسول الله، لو أستطيع الجهاد لجاهدت. وكان أعمى. فأنزل الله: ((أن رسول الله ﷺ أملى عليه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥])).

وأخرج ابن أبي حاتم، عن زيد بن ثابت أيضًا، قال: ((كنت أكتب لرسول الله ﷺ، فإني لواضع القلم على أذني، إذ أمر بالقتال، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه، إذ جاء أعمى فقال: كيف لي يا رسول الله، وأنا أعمى؟ فأنزلت: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ [التوبة: ٩١])).

قلت: لا شك أن بعض هذه الروايات فيها نظر من جهة ضبط رواتها، وربما ظهر عند التحقيق وهْم بعضهم في ذكر آية مكان آية، لا سيما وبعض الرواة الحفاظ كان لا يحفظ القرآن.

أمثلة لآيات لم يتّضح معناها إلا بمعرفة سبب نزولها

والأمثلة كثيرة، ونكتفي بمثالين:

المثال الأول: ما أشكل على مروان بن الحكم - رحمه الله- من معنى قوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٨]، حيث قال: "لئن كان كل امرئ فرح بما أتى، وأحبّ أن يُحمد بما لم يفعل معذَّبًا، لنعذَّبَنّ أجمعون". وبقي في إشكاله هذا، حتى بيّن له ابن عباس: أن الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألهم النبي ﷺ عن شيء، فكتموه إياه وأخبروه بغيره، وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه، واستُحمدوا بذلك إليه، أي: طلبوا منه أن يحمدهم على ما فعلوا. وهنالك زال الإشكال عنه، وفهم مراد الله من كلامه هذا ووعيده.

المثال الثاني: قال الله تعالى في سورة (البقرة): ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٥]. فهذا اللفظ الكريم يدل بظاهره على أن للإنسان أن يصلي إلى أية جهة شاء، ولا يجب عليه أن يولي وجهه شطر البيت الحرام، لا في سفر ولا حضر. لكن إذا عُلم أن هذه الآية نازلة في صلاة النافلة على الدابة خاصة، أو فيمن صلى باجتهاده ثم بان له خطؤه، تبيّن له أن الظاهر غير مراد.

ففي الصحيح عن ابن عمر: أن هذه الآية نزلت في صلاة النافلة على الراحلة أينما توجّهتْ. وقيل: عميت القبلة على قوم، فصلّوا إلى أنحاء مختلفة، فلما أصبحوا تبيّنوا خطأهم، فعُذروا، كما رواه الواحدي. وقيل في الآية غير ذلك...

اختلاف أهل الأصول: هل العبرة بعموم اللفظ، أو بخصوص السبب؟

اختلف أهل الأصول: هل العبرة بعموم اللفظ، أم بخصوص السبب؟

والأصح: الأوّل، وهو قول الجمهور.

قال ابن تيمية: "قد يجيء كثيرًا من هذا الباب قولُهم: "هذه الآية نزلت في كذا"، لا سيما إن كان المذكور شخصًا، كقولهم: "إن آية الظهار نزلت في امرأة ثابت بن قيس"، و"إن آية الكلالة نزلت في جابر بن عبد الله"، و"إن قوله: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم ﴾ [المائدة: ٤٩] نزلت في: بني قريظة والنضير"، ونظائر ذلك مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة، أو في قوم من اليهود والنصارى، أو في قوم من المؤمنين. فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أنّ حُكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم؛ فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق. والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه، فلم يقل أحد إن عمومات الكتاب والسُّنة تختص بالشخص المعيّن؛ وإنما غاية ما يقال: إنها تختص بنوع ذلك الشخص، فتعمّ ما يشبهه، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ. والآية التي لها سبب معيّن إن كانت أمرًا ونهيًا، فهي متناولة لذلك الشخص، ولمن كان بمنزلته". انتهى.

ومن الأدلة على اعتبار عموم اللفظ: احتجاج الصحابة وغيرهم في وقائع بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة، شائعًا ذائعًا بينهم:

فعن أبي معشر نجيح: "سمعت سعيد المقبري يذاكر محمد بن كعب القرظي، فقال سعيد: إن في بعض كتب الله: (إن لله عبادًا ألْسِنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمرّ من الصّبر. لبسوا لباس مسوك الضأن من اللين، يجترون الدنيا بالدِّين). فقال

محمد بن كعب: هذا في كتاب الله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [البقرة: ٢٠٤] الآية. فقال سعيد: قد عرفت فيمن أنزلت. فقال محمد بن كعب: إن الآية تنزل في الرجل، ثم تكون عامّة بعد".

قال الزرقاني: "اعلمْ أن لفظ الشارع الوارد جوابًا لسؤال أو سبب قد يكون مستقلًا أو مفيدًا وحده، بقطع النظر عن السبب أو السؤال الوارد فيه. وقد يكون غير مستقل بمعنى: أنه لا يفيد إلا إذا لوحظ معه السبب أو السؤال. ولكل من هذين النوعين حُكمه.

فأمّا الجواب الذي ليس بمستقل، فحُكمه: أنه يساوي السؤال في عمومه، باتفاق الأصوليين، ويساويه أيضًا في خصوصه، على الرأي السائد عندهم. فلو قال سائل: هل يجوز الوضوء بماء البحر؟ فأجيب بلفظ: "نعم"، أو لفظ: "يجوز"؛ كان المعنى: يجوز الوضوء بماء البحر لكل من أراد من الناس، لا لخصوص هذا السائل؛ وذلك لأن السؤال استفهام عن الجواز مطلقًا، من غير اعتبار خصوص المتكلّم؛ فكذلك جوابه، لأنه غير مستقل.

ولو قال السائل: "توضأت بماء البحر". فأجيب بلفظ: "يجزئك". كان معناه: أن الوضوء بماء البحر يجزئ السائل وحده، لأن السؤال خاص بالمتكلّم؛ فكذلك جوابه غير المستقل. أما غير المتكلم، فلا يعلم حُكمه من هذا الجواب، بل يعلم من دليل آخر كالقياس، أو كما روي في الحديث: "حكمي على الواحد حكمي على الجماعة". ذلك كله في الجواب غير المستقل.

وأما الجواب المستقل: فتارة يكون مثل السبب في أن كلًا منهما عام أو خاص، وحكمه إذًا أنه يساويه؛ فاللفظ العام يتناول كل أفراد سببه العام في الحكم، واللفظ الخاص مقصور على شخص سببه الخاص في الحكم. وهذا محل اتفاق بين

العلماء لمكان التكافؤ والتساوي بين السبب وما نزل فيه.

وأمثلة الأوّل: وهو العام فيهما، كثيرة. منها: الآيات النازلة في غزوة بدر، والآيات النازلة في غزوة أُحد من سورة (آل عمران).

ومثال الثاني: وهو الخاص فيهما: قوله ﷻ في سورة (الليل): ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ [الليل: ١٧، ١٨]، قال الجلال المحلي: "هذا نزل في الصّدّيق < ، لما اشترى بلالًا المعذَّب على إيمانه وأعتقه، فقال للكفار: "إنما فعل ذلك ليدٍ كانت له عنده"؛ فنزلت: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل: ١٩- ٢٠].

واعلمْ: أن هذا التمثيل لا يستقيم إلا على اعتبار أنّ "أل" في لفظ ﴿ ٱلْأَتْقَى ﴾ للعهد، والمعهود هو: الصّدّيق < ، كما سيأتي بيانه.

وتارة يأتي الجواب المستقل غير متكافئ مع السبب في عمومه وخصوصه، وتحت ذلك صورتان:

إحداهما: عقلية محضة غير واقعة، وهي أن يكون السبب عامًا، واللفظ خاصًا. وإنما كانت عقلية محضة وفرضية غير واقعة، لأن حكمة الشارع تجل عن أن تأتي بجواب قاصر لا يتناول جميع أفراد السبب. أضف إلى ذلك أنه يخل ببلاغة القرآن القائمة على رعاية مقتضيات الأحوال. وهل يعقل أن يسأل سائل، فيقول مثلًا: "هل يجوز لجماعة المسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم، ويقاتلوا مَن قاتَلهم؟"، فيأتي الجواب قائلًا: "لك أنت أن تدافع عن نفسك، وتقاتل مَن قاتلك".

الصورة الثانية: هي عموم اللفظ وخصوص سببه، وهذه الصورة هي موضوعنا، ومعناه: أن يأتي الجواب أعم من السبب، ويكون السبب أخص من

لفظ الجواب ؛ وذلك جائز عقلًا ، وواقع فعلًا ، لأنه لا محظور فيه ولا قصور ؛ بل إن عمومه مع خصوص سببه موفٍ بالغاية ، ومؤدٍ للمقصود وزيادة. بيْد أن العلماء اختلفوا في حكمه : أعموم اللفظ هو المعتبر؟ أم خصوص السبب؟

ذهب الجمهور إلى أن الحكم يتناول كل أفراد اللفظ ، سواء منها أفراد السبب وغير أفراد السبب. ولنضرب لذلك مثلًا :

حادثة قذْف هلال بن أمية لزوجته ، وقد نزل فيها قول الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ ﴾ [النور: ٤]، نلاحظ فيها أن السبب خاص وهو : قذف هلال هذا ، لكن جاءت الآية النازلة فيه بلفظ عام- كما ترى- ، وهو لفظ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ ﴾ ، وهو اسم موصول ، والموصول من صيغ العموم. وقد جاء الحكم بالملاعنة في الآية محمولًا عليه من غير تخصيص ، فيتناول بعمومه أفراد القاذفين في أزواجهم ولم يجدوا شهداء إلا أنفسهم ، سواء منهم هلال بن أمية صاحب السبب وغيره. ولا نحتاج في سحب هذا الحكم على غير هلال إلى دليل من قياس أو سواه ؛ بل هو ثابت بعموم هذا النص. ومعلوم أنه لا قياس ولا اجتهاد مع النص ، ذلك مذهب الجمهور.

وقال غير الجمهور : إنّ العبرة بخصوص السبب. ومعنى هذا : أنّ لفظ الآية يكون مقصورًا على الحادثة التي نزل هو لأجلها. أما أشباهها فلا يعلم حكمها من نص الآية ، إنما يُعلم بدليل مستأنف آخَر هو : القياس إذا استوفى شروطه ، أو قوله : "حُكمي على الواحد حكمي على الجماعة". فآية القذف السابقة النازلة بسبب حادثة هلال مع زوجه خاصة بهذه الحادثة وحدها ، على هذا الرأي. أمّا حكم غيرها مما يشبهها ، فإنما يُعرف قياسًا عليها ، أو عملًا بالحديث المذكور.

ويجب أن نلاحظ أن هذا الخلاف القائم بين الجمهور وغيرهم ، محله : إذا لم تقم قرينة على تخصيص لفظ الآية العام بسبب نزوله. أما إذا قامت تلك القرينة ، فإن الحكم يكون مقصورًا على سببه لا محالة ، بإجماع العلماء.

ثمرة الخلاف، واستدلال الجمهور

ولعل ثمرة هذا الخلاف ترجع إلى أمرين:

أحدهما: أن الحكم على أفراد غير السبب مدلول عليه بالنص النازل فيه عند الجمهور، وذلك النص قطعي المتن اتفاقًا، وقد يكون مع ذلك قطعي الدلالة. أما غير الجمهور، فالحكم عندهم على غير أفراد السبب ليس مدللًا عليه بذلك النص، بل القياس أو الحديث المعروف، وكلاهما غير قطعي.

الثاني: أن أفراد غير السبب كلّها يتناولها الحكم عند الجمهور، ما دام اللفظ قد تناولها. أما غير الجمهور، فلا يسحبون الحكم إلا على ما استوفى شروط القياس منها، دون سواه، إن أخذوا فيه بالقياس.

استدل الجمهور على مذهبهم بأدلة ثلاثة:

الأول: أننا نعلم أن لفظ الشارع وحده هو الحجة والدليل، دون ما احتف به من سؤال أو سبب، فلا وجه إذًا لأن تخصص اللفظ بالسبب؛ وكيف يسوغ أن نجعل ما ليس حجة في الشرع متحكمًا بالتخصيص على ما هو الحجة في الشرع؟ والدليل على أن لفظ الشارع وحده هو الحجة: أن الشارع قد يصرف النظر عن السؤال، ويعدل بالجواب عن سنن السؤال لحكمة، نحو قوله تعالى في سورة (البقرة): ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [البقرة: ٢١٥].

فإن ظاهر هذه الآية أن النبي سئل عن بيان ما ينفقونه، فجاء الجواب ببيان مَن ينفقون عليهم، وذلك من أسلوب الحكيم، لأن معرفة مصارف النفقة والصدقة أهم من معرفة المصروف فيهما. فإن إصلاح الجماعة البشرية لا يكون إلا عن طريق تنظيم النفقة والإحسان، على أساس توجيههما إلى المستحقين دون سواهم. وهذا وجه في الآية نراه وجيهًا، وإن كانت الآية قد أشارت إشارة خفيفة إلى بيان ما ينفقونه، بقوله ﷻ: ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ غير أنها إشارة إجمالية لا تشبع حاجة السؤال.

الثاني: أنّ الأصل هو: حمل الألفاظ على معانيها المتبادرة منها عند الإطلاق، أي: عند عدم وجود صارف يصرف عن ذلك المتبادر، ولا صارف للفظ هنا عن إرادة العموم، فلا جَرَم يبقى على عمومه. أما ما يتوهّمه المخالفون من أن خصوص السبب صارف عن إرادة العموم فمدفوع بأن مجرد خصوص السبب لا يستلزم إخراج غير السبب من تناول اللفظ العام إياه؛ فلا يصلح أن يكون قرينة مانعة من إرادة ما وضع له اللفظ العام، وهو: العموم الشامل لجميع الأفراد.

الثالث: احتجاج الصحابة والمجتهدين في سائر الأعصار والأمصار بعموم تلك الألفاظ الواردة على أسباب خاصة، في وقائع وحوادث كثيرة، من غير حاجة إلى قياس أو استدلال بدليل آخر. فاستدلوا بآية السرقة على: وجوب قطع كلّ يد، مع أنها نازلة في خصوص سرقة المجنّ أو رداء صفوان. واحتجوا بآيات الظهار على: وجوب الكفارة المذكورة فيها، والعمل بأحكامها على كل مّن ظاهَر، مع أنها نازلة في خصوص مَن عرفتَ قبل. وكذلك برهنوا بآيات اللعان على: شمول حُكمه لكل مَن قذف زوجته ولم يكن معه شهود، على حين أنها نازلة في خصوص مَن ذكرنا سابقًا.

استناد مخالفي الجمهور إلى شبهات خمس

استند مخالفو الجمهور- بأن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ- إلى شبهات خمس:

نكتفي بذكر شبهة واحدة : فهم يقولون: إن الإجماع قد انعقد على عدم جواز إخراج السبب من حكم العام الوارد على سبب خاص إذا ورَد مخصّص؛ وذلك يستلزم أن العام مقصور على أفراد السبب لا يتناول غيرها، لأنه لو لم يكن مقصورًا عليها لتساوت هي وغيرها في جواز الإخراج عند المخصّص؛ وذلك ممنوع للإجماع المذكور.

والجواب: أنّ الإجماع المذكور لا يستلزم قصر العام على إفراد الخاص كما يقولون؛ بل هو واقف عند حدود معناه من أن أفراد السبب لا تخرج بالمخصص، وذلك المعنى محقق لعدم التساوي بين أفراد السبب وغيرها في حالة الإخراج بالمخصص، لكنه لا يمنع دخول غير أفراد السبب في حكم العام إذا تناوله اللفظ، وذلك لأدلة الجمهور السابقة.

الحروف المقطعة في أوائل السور

عناصر الدرس

في وقوعها في القرآن

استفتح الله - جل وعلا - بعض سوَر القرآن بحروف التهجي، نحو: ﴿الٓمٓ﴾ [البقرة: ١]، ﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف: ١]، ﴿الٓمٓر﴾ [الرعد: ١]، ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١]، ﴿طه﴾ [طه: ١]، ﴿طسٓ﴾ [النمل: ١]، ﴿طسٓمٓ﴾ [القصص: ١]، ﴿حمٓ﴾ [الأحقاف: ١]، ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ [الشورى: ١]، ﴿قٓ﴾ [ق: ١]، ﴿نٓ﴾ [ن: ١]، وذلك في تسع وعشرين سورة.

قال الزمخشري: "وإذا تأمّلت الحروف التي افتتح الله بها السوَر، وجدْتَها: نصف أسامي حروف المعجم: أربعة عشر: الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والطاء، والسين، والحاء، والقاف، والنون، في تسع وعشرين: عدد حروف المعجم.

ثم تجدها مشتملة على أصناف أجناس الحروف: المهموسة، والمجهورة، والشديدة، والمطبقة، والمستعلية، والمنخفضة، وحروف القلقلة.

ثم إذا استقريت الكلام، تجد هذه الحروف هي أكثر دورًا مما بقي، ودليله: أن الألف واللام لما كانت أكثر تداورًا، جاءت في معظم هذه الفواتح. فسبحان الذي دقّتْ في كل شيء حكمته!" انتهى.

قال الزركشي: "قيل: وبقي عليه من الأصناف: الشديدة، والمنفتحة. وقد ذكر تعالى نصفَها.

أما حروف الصفير فهي ثلاثة، ليس لها نصف؛ فجاء منها: السين، والصاد، ولم يبق إلا الزاي.

وكذلك الحروف اللينة ثلاثة، ذكر منها اثنين: الألف، والياء. أما المكرر: وهو الراء والهاوي - وهو الألف- ، والمنحرف - وهو اللام- ، فذكرها. ولم يأت خارجًا عن هذا النمط إلا ما بين الشديدة والرخوة، فإنه ذكر فيه أكثر من النصف. وهذا التداخل موجود في كل قسم قبله، ولولاه لما انقسمت هذه الأقسام كلها.

ووهم الزمخشري في عدد حروف القلقلة، إنما ذكر نصفها، فإنها خمسة ذُكر منها حرفان: القاف والطاء".

وقال القاضي أبو بكر: "إنما جاءت على نصف حروف المعجم، كأنه قيل: من زعم أن القرآن ليس بآية، فليأخذ الشطر الباقي ويركب عليه لفظًا معارضة للقرآن".

قال الزركشي: "واعلم أن الأسماء المتهجاة في أول السوَر: ثمانية وسبعون حرفًا. فالكاف والنون كل واحد في مكان واحد. والعين والياء والهاء والقاف كل واحد في مكانين. والصاد في ثلاثة. والطاء في أربعة. والسين في خمسة. والراء في ستة. والحاء في سبعة. والألف واللام في ثلاثة عشر. والميم في سبعة عشر.

وجملة الحروف المقطعة بدون تكرار: أربعة عشر حرفًا، يجمعها قولك: "نص حكيم قاطع له سر". ومنهم من ضبطها بقوله: "طرق سمعك النصيحة" ، و"على صراط حق يمسكه"، وقيل: غير ذلك...

ثم بنيتها ثلاثة: حروف موحّدة: ص ق ن. وعشرة مثنى: ﴿ طه ﴾ ، ﴿ طسٓ ﴾ ، ﴿ يسٓ ﴾ ، ﴿ حمٓ ﴾ ، واثنا عشر مثلثة الحروف: ﴿ الٓمٓ ﴾ ﴿ الٓر ﴾ ﴿ طسٓمٓ ﴾ . واثنان حروفها أربعة: ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ ﴿ الٓمٓر ﴾ ، واثنان حروفها خمسة: ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ ﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ﴾ .

وأمّا ما بدئ بحرف واحد فاختلفوا فيه: فمنهم: من لم يجعل ذلك حرفًا، وإنما جعله اسمًا لشيء خاص. ومنهم: من جعله حرفًا، وقال: أراد أن يتحقق الحروف مفردها ومنظومها".

قال: "فأما ما ابتدئ بثلاثة أحرف ففيه سر:

وذلك أنّ الألف إذا بدئ بها أوّلًا كانت همزة، وهي أول المخارج من أقصى الصدر. واللام من وسط مخارج الحروف، وهي أشد الحروف اعتمادًا على اللسان. والميم آخر الحروف، ومخرجها من الفم. وهذه الثلاثة هي أصل مخارج الحروف، أعني: الحلق واللسان والشفتين.

وترتبت في التنزيل من البداية إلى الوسط إلى النهاية: فهذه الحروف تعتمد المخارج الثلاثة التي يتفرع منها ستة عشر مخرجًا ليصير منها تسعة وعشرون حرفًا عليها مدار كلام الخلق أجمعين، مع تضمنها سرًّا عجيبًا وهو: أن الألف للبداية، واللام للتوسط، والميم للنهاية. فاشتملت هذه الأحرف الثلاثة على: البداية، والنهاية، والواسطة بينهما.

وكل سورة استفتحت بهذه الأحرف، فهي مشتملة على مبدأ الخلق ونهايته وتوسطه، مشتملة على خلق العالم وغايته، وعلى التوسط بين البداية من الشرائع والأوامر. فتأمل ذلك في: (البقرة)، و(آل عمران)، و(تنزيل السجدة)، وسورة (الروم)".

قال: "وتأمل اقتران الطاء بالسين والهاء في القرآن، فإن الطاء جمعت من صفات الحروف خمس صفات لم يجمعها غيرها وهي: الجهر، والشدة، والاستعلاء، والإطباق، والإصمات. والسين: مهموس، رخو، مستفل، صفير، منفتح. فلا يمكن أن يجمع إلى الطاء حرف يقابلها كالسين والهاء، فذكر الحرفين اللذين جمعا صفات الحروف.

وتأمل السورة التي اجتمعت على الحروف المفردة، كيف تجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف، فمن ذلك: ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ [ق: ١]، فإنّ السورة مبنية على الكلمات القافيّة من ذكْر القرآن، ومن ذكْر الخلق، وتكرار القول ومراجعته مرارًا، والقرب من ابن آدم، وتلقي الملَكين، وقول العتيد، وذكر الرقيب، وذكر السابق

والقرين، والإلقاء في جهنم، والتقدم بالوعد، وذكر المتقين، وذكر القلب والقرن، والتنقيب في البلاد، وذكر القتل مرتين، وتشقق الأرض، وإلقاء الرواسي فيها، وبسوق النخل والرزق، وذكر القوم، وخوف الوعيد، وغير ذلك...

وسرّ آخَر وهو: أنّ كل معاني السورة مناسب لما في حرف القاف من الشدة والجهر والقلقلة والانفتاح.

وإذا أردت زيادة إيضاح، فتأمل ما اشتملت عليه سورة: ﴿ صٓ ﴾ [ص: ١] من الخصومات المتعددة: فأوّلها خصومة الكفار مع النبي ﷺ وقولهم: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ [ص: ٥] إلى آخر كلامهم، ثم اختصام الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصام الملأ الأعلى في العلم، وهو الدرجات والكفارات، ثم تخاصم إبليس واعتراضه على ربه وأمره بالسجود، ثم اختصامه ثانيًا في شأن بنيه، وحلفه ليغوينّهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم.

في عدّها آية، وفي قراءاتها، وفي رسمها، وما إلى ذلك

أخرج وكيع، وعبد بن حميد، عن أبي عبد الرحمن السلمي، أنه كان يعدّ: ﴿ الٓمٓ ﴾ [البقرة: ١] آية، و﴿ حمٓ ﴾ [الأحقاف: ١] آية.

قال الناظم:

ما بدؤه حرف التهجي الكوف عد ❖ لا الوتر مع ـاسين مع ذي الرا اعتمد

وأول الشورى لحمصي يعد ❖ موافقا للكوف فيما قد ورد

فالكوفيون يعدّون جميعها آية، مثل: ﴿ الٓمٓ ﴾، ﴿ الٓمٓصٓ ﴾، ﴿ يسٓ ﴾، ﴿ حمٓ ﴾، ما عدا المفرد منها مثل: ﴿ قٓ ﴾، ﴿ صٓ ﴾، ﴿ نٓ ﴾، وكذا: ﴿ طسٓ ﴾، وكذا ذوات الراء، مثل: ﴿ الٓر ﴾.

ووافقهم الحمصيون في عدّ أول (الشورى) آيتين وهما: ﴿ حمٓ ﴾، ﴿ عٓسٓقٓ ﴾.

وقرأ: ﴿ الٓمٓ ﴾ بالسّكت على كل حرف من حروفها الثلاثة: أبو جعفر من العشرة. ووجْه ذلك: أنها ليست حروف المعاني، بل هي مفصولة وإن اتصلت رسمًا، وفي كل واحد منها سرّ لله تعالى، أو كل حرف منها كناية عن اسم الله تعالى، كما يأتي في تفسيرها.

ووردت الإمالة، أو التقليل لجماعة من القراء في الحاء، والراء، والطاء، والهاء، والياء، من هذه الحروف.

وما كان في هذه الحروف به حرف مدّ فيُمدّ مدًّا مشبعًا لدى جميع القراء، وفي العين وجهان: التوسط، والإشباع.

وإذا وصل القارئ فاتحة (آل عمران) بما بعدها، فتح الميم تخلصًا من التقاء الساكنين، ولا يكسرها حفاظًا على تغليظ اللام في لفظ الجلالة، هكذا: ﴿ الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [آل عمران: ١، ٢].

وهذه الفواتح الشريفة على ضربين:

أحدهما: ما لا يتأتى فيه إعراب، نحو: ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ [مريم: ١] و﴿ الٓمٓ ﴾ [البقرة: ١].

والثاني: ما يتأتى فيه، وهو: إمّا أن يكون اسمًا مفردًا كـ﴿ صٓ ﴾ و﴿ قٓ ﴾ و﴿ نٓ ﴾، أو أسماء عدة، مجموعها على زنة مفرد، مثل: ﴿ حمٓ ﴾ و﴿ طسٓ ﴾ و﴿ يسٓ ﴾، فإنها موازنة لقابيل وهابيل، وكذلك: ﴿ طسٓمٓ ﴾ يتأتى فيها أن تفتح نونها فتصير ميم مضمومة إلى ﴿ طسٓ ﴾ فيجعلا اسمًا واحدًا.

فالنوع الأول محكي ليس إلا، وأما النوع الثاني فسائغ فيه الأمران: الإعراب والحكاية. ويوقف على جميعها وقف التمام، إن حملت على معنى مستقل غير محتاج إلى ما بعده؛ وذلك إذا لم تجعل أسماء للسوَر، وينعق بها كما ينعق بالأصوات، أو جعلت وحدها أخبار ابتداء محذوف كقوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ ﴾ أي: هذه السورة: ﴿ الٓمٓ ﴾، ثم ابتدأ فقال: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾.

كما أنها كتبت في المصاحف الشريفة على صورة الحروف أنفسها، لا على صورة أساميها؛ واتباع خط المصحف سُنّة لا تخالَف.

في فضل تلاوتها

أخرج البخاري في (تاريخه)، والترمذي وصحّحه، وابن الضريس، ومحمد بن نصر، وابن الأنباري في (المصاحف)، والحاكم وصحّحه، وابن مردويه، وأبو ذر الهروي في (فضائله)، والبيهقي في (شُعب الإيمان)، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: ((من قرأ حرفًا من كتاب الله، فله به حسنة، والحسنة بعشرة أمثالها؛ لا تقول: ﴿ الٓمٓ ﴾ حرف، ولكن: ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف)).

وأخرج محمد بن نصر، وأبو جعفر النحاس في كتاب (الوقف والابتداء)، والخطيب في (تاريخه)، وأبو نصر السجزي في (الإبانة)، عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: ((اقرؤوا القرآن، فإنكم تؤجرون عليه. أمَا إني لا أقول: ﴿ الٓمٓ ﴾ حرف، ولكن ألف عشر، ولام عشر، وميم عشر؛ فتلك ثلاثون)).

وأخرج محمد بن نصر، والبيهقي في (شُعب الإيمان)، والسجزي، عن عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: ((من قرأ حرفًا من القرآن، كتب الله له به

حسنة. لا أقول: ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾ [الفاتحة: ١]، ولكن باء وسين وميم، ولا أقول: ﴿ الٓمٓ ﴾، ولكن الألف واللام والميم)).

وأخرج محمد بن نصر السلفي في كتاب (الوجيز في ذكر المجاز والمجيز)، عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: ((مَن قرأ حرفًا من القرآن، كتب الله له عشر حسنات، بالباء والتاء والثاء)).

قال أبو السعود: ﴿ الٓمٓ ﴾ الألفاظ التي يعبر بها عن حروف المعجم التي من جملتها المقطّعات المرقومة في فواتح السوَر الكريمة أسماء لها، لا ندرجها تحت حد الاسم، ويشهد به: ما يعتريها من التعريف والتنكير والجمع والتصغير، وغير ذلك من خصائص الاسم. وقد نص على ذلك أساطين أئمة العربية. وما وقع في عبارات المتقدمين من التصريح بحرفيتها، محمول على المساحة. وأما ما روي عن ابن مسعود < من أنه ﷺ قال: ((من قرأ حرفًا من كتاب الله، فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول: ﴿ الٓمٓ ﴾ حرف، بل ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف)). وفي رواية الترمذي والدارمي: ((لا أقول: ﴿ الٓمٓ ﴾ حرف، و ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ حرف، ولكن الألف حرف، واللام حرف، والميم حرف، والذال حرف، والكاف حرف)) فلا تعلق له بما نحن فيه قطعًا. فإن إطلاق الحرف على ما يقابل الاسم والفعل، عرف جديد اخترعه أئمة الصناعة، وإنما الحرف عند الأوائل ما يتركب منه الكلم من الحروف المبسوطة، وربما يطلق على الكلمة أيضًا تجوزًا؛ فأريد بالحديث الشريف دفع توهم التجوز، وزيادة تعيين إرادة المعنى الحقيقي، ليتبين بذلك أن الحسنة الموعودة ليست بعدد الكلمات القرآنية، بل بعدد حروفها المكتوبة في المصاحف".

وقال الآلوسي: "يحكى عن الخليل: أنه سأل أصحابه: كيف تنطقون في الباء من: "ضرب" والكاف من: "لك"؟ فقالوا: "باء"، "كاف". فقال: إنما جئتم بالاسم لا الحرف، وأنا أقول: "بَهْ"، "كَهْ".

وما روي عن ابن مسعود < قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من قرأ حرفًا من كتاب الله تعالى، فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف))، فالمراد به غير المصطلح؛ إذ هو عرف جديد، بل المعنى اللغوي، وهو واحد حروف المباني. فمعنى ((ألف حرف...)) إلخ: مسمى ألف، وهكذا... ولعله ﷺ سمّى ذلك حرفًا باسم مدلوله، فهو معنى حقيقي له... فإن أريد من ﴿أَلَمْ﴾ مفتتح سورة (الفيل)، يكون المراد أيضًا منه مسماه، وتكون الحسنات ثلاثين. وفائدة النفي دفع توهم أن يكون المراد بالحرف فيمن قرأ حرفًا الكلمة، وإن أريد نحو ما هنا، فالمراد نفسه، ويكون عدد الحسنات حينئذ تسعين.

قلت: ونستخلص من ذلك ويؤكّده الروايات المذكورة لهذه الحديث: أنّ العشر حسنات على كل حرف لا على قولك: "ألف" من قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾، بل قولك: "أَلِف" يقابله ثلاثون حسنة: عشر حسنات لكل حرف من حروفه الثلاث المنطوقة.

وهكذا في بقية الحروف - والله أعلم -.

في معرفــــــة معناهـــــا

اختلف المفسرون في الحروف المقطّعة التي في أوائل السوَر:

فمنهم من قال: هي مما استأثر الله بعلمه، فردّوا علمها إلى الله ولم يفسروها.

ذكره القرطبي عن أبي بكر وعلي بصيغة التمريض. وذكره الرازي فقال: "وقال أبوبكر الصّدّيق < : "في كل كتاب سر، وسره في القرآن: أوائل السوَر". وقال علي < : "إن لكل كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب: حروف التهجي".

ولم أقف له على إسناد، ولا أراه إلا موضوعًا.

وأمّا عمر، وعثمان، وابن مسعود، فذكره القرطبي قائلًا: "وذكر أبو الليث السمرقندي عن عمر، وعثمان، وابن مسعود، أنهم قالوا: "الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسّر". اهـ. هكذا بدون إسناد، ولا أراه يصح.

وقال القرطبي أيضًا: "قال عامر الشعبي، وسفيان الثوري، وجماعة من المحدِّثين: "هي سرّ الله في القرآن. ولله في كل كتاب من كُتبه سرّ. فهي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه؛ ولا يجوز أن نتكلم فيها، ولكن نؤمن بها وتقرأ كما جاءت". اهـ.

وليس في تفسير سفيان شيء من ذلك.

أما الشعبي فقد روى ذلك عنه ابن المنذر، وأبو الشيخ في (التفسير) من طريق داود بن أبي هند قال: "كنت أسأل الشعبي عن فواتح السوَر، قال: يا داود إن لكل كتاب سرًا، وإنّ سرّ هذا القرآن: فواتح السوَر؛ فدَعْها، وسلْ عما بدا لك".

ولم أقف على بقية سنده للنظر فيه. وهذا يعارض ما صح عن الشعبي في تفسيرها، وسوف يأتي.

أما سفيان فلم أر من أسند ذلك عنه.

وقد ذكر ابن كثير: أنّ القرطبي نقله عن الربيع بن خثيم، وليس كما ذكر؛ وإنما ذكر عنه أثرًا في المتشابه، وهو ما رواه أبو بكر الأنباري بسنده عنه قال: "إن الله تعالى أنزل هذا القرآن فاستأثر عنه بعلم ما شاء، وأطلعكم على ما شاء. فأما ما استأثر به لنفسه، فلستم بنائلين فلا تسألوا عنه. وأما الذي أطلعكم عليه، فهو الذي تسألون عنه وتخبرون به. وما بكل القرآن ما تعلمون تعملون". وإسناده صحيح.

فالقول الأول: لم يثبت فيه شيء عن أحد من السلف. وأخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان، قال: "المتشابهات فيما بلغنا: ﴿الٓمٓ﴾ و﴿الٓمٓصٓ﴾ و﴿الٓمٓر﴾ و﴿الٓر﴾".

وأصحاب هذا القول اعتبروا ذلك من المتشابه المذكور في قوله: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧].

فإن قيل: ما الحكمة في إنزال المتشابه ممن أراد لعباده به البيان والهدى؟

قلت: إن كان مما يمكن علْمه، فله فوائد. منها:

الحث للعلماء على النظر الموجب للعلم بغوامضه، والبحث عن دقائقه؛ فإن استدعاء الهمم لمعرفة ذلك من أعظم القرب.

ومنها: ظهور التفاضل وتفاوت الدرجات؛ إذ لو كان القرآن كله محكَمًا لا يحتاج إلى تأويل ونظر، لاستوت منازل الخلق، ولم يظهر فضل العالِم على غيره.

وإن كان مما لا يمكن علمه، فله فوائد. منها:

ابتلاء العباد بالوقوف عنده، والتوقف فيه، والتفويض والتسليم والتعبد بالاشتغال به من جهة التلاوة، كالمنسوخ، وإن لم يجز العمل بما فيه.

وإقامة الحجة عليهم، لأنه لما نزل بلسانهم ولغتهم، وعجزوا عن الوقوف على معناه مع بلاغتهم وأفهامهم، دل على أنه نزل من عند الله، وأنه الذي أعجزهم عن الوقوف على معناه.

وقد اختاره أبو حاتم ابن حبان، وكأن الحافظ ابن كثير مال إليه حيث قال بعد أن ذكر الخلاف: "من ها هنا لحظ بعضهم في هذا المقام كلامًا، فقال: "لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها ﷻ عبثًا ولا سدًى". ومن قال من الجهلة: "إنه في القرآن ما

هو تعبد لا معنى له بالكلية"، فقد أخطأ خطأ كبيرًا؛ فتعيّن أن لها معنى في نفس الأمر. فإن صح لنا عن المعصوم فيها شيء قلنا به، وإلا وقفنا حيث وقفنا، وقلنا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: ٧]. ولم يجمع العلماء فيها (على) شيء معين، وإنما اختلفوا؛ فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه، وإلا فالوقف حتى يتبيّن".

القول الثاني: هي اسم من أسماء الله تعالى، وألفاظ الروايات تحتمل أن الاسم يتكون من حروفها، أو أن كل حرف منها يشير لاسم من الأسماء، أو أنها يركّب منها اسم الله الأعظم.

ثبت ذلك عن ابن عباس وعن ابن مسعود.

رواه ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: "هو قسَم أقسم الله به، وهو من أسماء الله تعالى". وإسناده حسن.

ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وغيرهما عن ابن عباس: ﴿الٓمٓ﴾، قال: "أنا الله أعلم". وفي إسناده عطاء بن السائب، ويشهد له بقية الطرق.

وأخرج ابن أبي حاتم وغيره، من طريق أبي الضحى، عن ابن عباس في قوله: ﴿الٓمٓ﴾، قال: "أنا الله أعلم"، وفي قوله: ﴿الٓمٓصٓ﴾، قال: "أنا الله أفصل"، وفي قوله: ﴿الٓر﴾ "أنا الله أرى".

وأخرج من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس، في قوله: ﴿الٓمٓ﴾ و﴿حمٓ﴾ و﴿نٓ﴾، قال: "اسم مقطّع".

وأخرج من طريق عكرمة، عن ابن عباس، قال: "﴿الٓر﴾ و﴿حمٓ﴾ و﴿نٓ﴾: حروف الرحمن مفرّقة".

ورواه ابن جرير عن شعبة، قال: سألت السدي عن: ﴿حمٓ﴾ و﴿طسٓ﴾ و﴿الٓمٓ﴾، فقال: قال ابن عباس: "هي اسم الله الأعظم". وهو منقطع.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن جرير، من طريق سعيد بن جبير عنه، قال: ﴿الٓمٓ﴾، ﴿حمٓ﴾، ﴿نٓ﴾، قال: "اسم مقطّع". وأخرج ابن مردويه عنه، قال: "فواتح السوَر كلها من أسماء الله تعالى".

ورواه ابن جرير عن مرة الهمداني، قال: قال عبد الله: ... فذكر نحوه، وإسناده جيد.

وقال السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿الٓمٓ﴾، قال: "أمّا ﴿الٓمٓ﴾، فهي حروف استفتحت من حروف هجاء اسم الله تعالى". وهو إسناد فيه خلط، وبالنسبة لابن عباس وابن مسعود فقد مر ما يشهد له.

وحكي عن علي، فقال الرازي: "روي عن علي # أنه كان يقول: "يا كهيعص، يا حم عسق".

قلت: أخرج ابن جرير، وابن ماجه في (تفسيره)، عن فاطمة بنت علي قالت: كان علي يقول: "يا كهيعص، اغفر لي". وإسناده ضعيف.

وقد سبق النقل عن علي أنه كان لا يفسرها، ولا يصحّ أيضًا.

وأخرج الحاكم وغيره من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس في: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، قال: "الكاف من: "كريم"، والهاء من: "هاد"، والياء من: "حكيم"، والعين من: "عليم"، والصاد من: "صادق".

وأخرج الحاكم أيضًا، من وجه آخر، عن سعيد عن ابن عباس، في قوله:

﴿ كهيعص ﴾، قال: "كاف "هاد"، "أمين"، "عزيز"، "صادق".

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق السدي، عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وناس من الصحابة، في قوله: ﴿ كهيعص ﴾ قال: "هو هجاء مقطع: الكاف من: "المِلك"، والهاء من: "الله"، والياء والعين من: "العزيز"، والصاد من: "المصوِّر".

وأخرج عن محمد بن كعب مثله، إلا أنه قال: "والصاد من: "الصمد".

وأخرج سعيد بن منصور، وابن مردويه من وجه آخَر، عن سعيد، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ كهيعص ﴾، قال: "كبير هاد أمين عزيز صادق".

وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ كهيعص ﴾، قال: "الكاف: "الكافي"، والهاء: "الهادي"، والعين: "العالِم"، والصاد: "الصادق".

وأخرج من طريق يوسف بن عطية، قال: سئل الكلبي عن: ﴿ كهيعص ﴾، فحدث عن أبي صالح عن أم هانئ عن رسول الله ﷺ قال: ((كاف: هاد أمين عالم صادق)).

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: ﴿ كهيعص ﴾ [مريم: ١]، قال: "يقول: أنا الكبير الهادي، عليٌّ أمين صادق".

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿ حم ﴾ [الأحقاف: ١]، قال: "حاء اشتُقت من: الرحمن، وميم اشتقت من الرحيم".

وأخرج ابن أبي حاتم، عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿ كهيعص ﴾، قال: "يا مَن يجير ولا يجار عليه".

وأخرج عن أشهب قال: "سألت مالك بن أنس: أينبغي لأحد أن يتسمى بـ"يس"؟ فقال: ما أراه ينبغي، لقول الله: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يس: ١، ٢]، يقول: هذا اسم تسميت به".

وقال الشعبي: "فواتح السور من أسماء الله تعالى"، أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم؛ وهو صحيح.

وكذلك قال سالم بن عبد الله، وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير.

وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي قال: "﴿الٓر﴾ [يونس: ١] من الرحمن".

وأخرج عنه أيضًا قال: "﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرحمن: ١]: الألف من الله، والميم من الرحمن، والصاد من: ﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف: ١].

وأخرج عن محمد بن كعب، في قوله: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ [الأحقاف: ١، ٢]، قال: الحاء والميم من الرحمن، والعين من العليم، والسين من القدّوس، والقاف من القاهر".

وأخرج أيضًا عن الضحاك في قوله: ﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف: ١]، قال: "أنا الله الصادق"، وقيل: معناه: ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]، وقيل: ﴿الٓر﴾ [يونس: ١] معناه: "أنا الله أعلم وأرفع". حكاهما الكرماني في غرائبه.

وأخرج عن محمد بن كعب، في قوله: ﴿طه﴾ [طه: ١]، قال: "الطاء من"الطاء من ذي الطول". وأخرج عنه أيضًا في قوله: ﴿طسٓمٓ﴾ [القصص: ١]، قال: " الطاء في ذي الطول، والسين من القدوس، والميم من الرحمن".

وأخرج عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿حمٓ﴾ [الأحقاف: ١]، قال: "حاء اشتقت

من الرحمن، وميم اشتقت من الرحيم".

وأخرج عن محمد بن كعب، في قوله: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ قال: "الحاء والميم من الحاء والميم من الرحمن، والعين من العليم، والسين من القدوس، والقاف من القاهر".

وأخرج عن مجاهد، قال: "فواتح السور كلها هجاء مقطع".

وأخرج عن سالم بن عبد الله قال: ﴿الٓمٓ﴾ و﴿حمٓ﴾ و﴿نٓ﴾، ونحوها: "اسم الله مقطعة".

وأخرج عن السدي، قال: "فواتح السوَر: أسماء من أسماء الرب -جل جلاله-، فرِّقت في القرآن".

وحكى الكرماني في قوله: ﴿قٓ﴾: "إنه حرف من اسمه: "قادر" و"قاهر".

وحكى غيره في قوله: ﴿نٓ﴾: "إنه مفتاح اسمه تعالى: "نور" و"ناصر".

القول الثالث: هو قسَم أقسم الله به:

تقدم في رواية علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وقد جمع فيه بين كونه من أسماء الله، وبين كونه قسمًا، ولا يمتنع ذلك.

وروى ابن أبي حاتم، وابن جرير، عن عكرمة أنه قال: "﴿الٓمٓ﴾ قسَم". وإسناده صحيح.

القول الرابع: أسماء للسوَر:

قال ابن كثير: "قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: "إنما هي أسماء السوَر".

قلت: أخرجه ابن جرير بإسناد صحيح، عنه رواية عن أبيه، عندما سئل عنها، وليس قولًا عنه مجردًا. وروايته عن أبيه ضعيفة.

وقال الزمخشري في (تفسيره): "وعليه إطباق الأكثر"، ونقله عن سيبويه أنه نص عليه.

قال ابن كثير: "ويعتضد هذا بما ورد في (الصحيحين)، عن أبي هريرة: ((أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة، (الم السجدة) السجدة و(هل أتى على الإنسان))).

قلت: وهذا ليس بمتّجه، فإنه سمّى سورة (الإنسان) بجزء من أوّل آياتها، ولم يقل أحد بأن ذلك اسم للسورة، كما أنه قال: (الم السجدة)، ولم يجتزئ بالحروف فقط، للاشتباه.

وعن مجاهد أنه قال: ﴿ الٓمٓ ﴾ و﴿ حمٓ ﴾ و﴿ الٓمٓصٓ ﴾ و﴿ صٓ ﴾: فواتح افتتح الله بها". أخرجه ابن جرير، وإسناده صحيح.

وفي رواية عنه أنه قال: "﴿ الٓمٓ ﴾: اسم من أسماء القرآن". وإسنادها صحيح أيضًا.

وهكذا قال قتادة.

قال ابن كثير: "ولعل هذا يرجع إلى معنى قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: "إنه اسم من أسماء السوَّر، فإن كل سورة يطلق عليها اسم القرآن، فإنه يبعد أن يكون ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ اسمًا للقرآن كلّه، لأن المتبادر إلى فهم سامع من يقول: "قرأت (المص)، إنما ذلك عبارة عن سورة (الأعراف)، لا لمجموع القرآن -والله أعلم-".

القول الخامس: أنها للدلالة على مدّة:

فالعرب لهم حساب يسمى: "حساب الجمَّل"؛ وذلك أنهم يحسبون كل حرف

من حروف "أبي جاد" بما يقابله من العدد، ابتداء من واحد إلى عشرة، ثم عشرين إلى مائة، ثم مائتين... إلخ.

فمن: أ، ب، ج، د، هـ، و، ز، ح، ط، ي: ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠. ك، ل، م، ن، ص: ٢٠، ٣٠، ٤٠، ٥٠، ٦٠، وهكذا...

فروى محمد بن إسحاق بن يسار -صاحب المغازي-، قال: حدثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله بن رياب، قال: ((مرّ أبو ياسر بن أخطب في رجال من يهود، برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة سورة (البقرة): ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ ﴾ [البقرة: ١، ٢]، فأتى أخاه حُيي بن أخطب في رجال من اليهود، فقال: تعلمون والله، لقد سمعت محمدًا يتلو فيما أنزل الله عليه: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ ﴾، فقال: أنت سمعته؟ قال: نعم. قال: فمشى حُيي بن أخطب في أولئك النفر من يهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، ألم تذكر أنك تتلو فيما أنزل عليك: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: بلى. فقالوا: جاءك بهذا جبريل من عند الله؟ فقال: نعم. قالوا: لقد بعث الله قبلك أنبياء، ما نعلمه بيّن لنبيّ منهم ما مدة ملكه، وما أجَلُ أمته غيرك. فقال حيي بن أخطب -وأقبل على من كان معه- فقال لهم: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون؛ فهذه إحدى وسبعون سنة. أفتدخلون في دين نبي إنما مدة مُلكه وأجل أمّته إحدى وسبعون سنة؟ ثم أقبل على رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد. هل مع هذا غيره؟ فقال: نعم. قال: ما ذاك؟ قال: ﴿ الٓمٓصٓ ﴾. قال: هذا أثقل وأطول. الألف: واحدة، واللام: ثلاثون، والميم: أربعون، والصاد: ستون؛ فهذه إحدى وثلاثون ومائة سنة. هل مع هذا يا محمد غيره؟ قال: نعم. قال: ما ذاك؟ قال: ﴿ الٓر ﴾. قال: هذا أثقل وأطول.

الألف: واحدة، واللام: ثلاثون، والراء: مئتان؛ فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة. فهل مع هذا يا محمد غيره؟ قال: نعم. ﴿الٓمٓر﴾. قال: فهذه أثقل وأطول. الألف: واحدة، واللام: ثلاثون، والميم: أربعون، والراء: مائتان؛ فهذه إحدى وسبعون ومائتان. ثم قال: لقد لبّس علينا أمرك يا محمد، حتى ما ندري أقليلًا أُعطيتَ أم كثيرًا. ثم قال: قوموا عنه. ثم قال أبو ياسر لأخيه حيي بن أخطب ولمن معه من الأحبار: ما يدريكم؟ لعله قد جمع هذا لمحمد كله: إحدى وسبعون، وإحدى وثلاثون ومائة، وإحدى وثلاثون ومائتان، وإحدى وسبعون ومائتان، فذلك سبعمائة وأربع سنين، فقالوا: لقد تشابه علينا أمره. فيزعمون أن هؤلاء الآيات نزلت فيهم: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾. [آل عمران: ٧])).

هكذا ذكره ابن كثير، بعد أن قال: "وأمّا من زعم أنها دالة على معرفة المدد، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم، فقد ادّعى ما ليس له، وطار في غير مطاره. وقد ورد في ذلك حديث ضعيف، وهو مع ذلك أدل على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته".

ثم قال عقِبه: "فهذا الحديث مداره على محمد بن السائب الكلبي، وهو ممن لا يحتج بما انفرد به. ثم كان مقتضى هذا المسلك -إن كان صحيحًا- أن يحسب ما لكل حرف من الحروف الأربعة عشر التي ذكرناها، وذلك يبلغ منه جملة كثيرة. وإن حسبت مع التكرر، فأطم وأعظم، والله أعلم".

قال السيوطي: "وقد استخرج بعض الأئمة من قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾: أن البيت المقدس تفتحه المسلمون في سنة ثلاثة وثمانين وخمسمائة، ووقع كما قاله".

وقال السهيلي: "لعل عدد الحروف التي في أوائل السوَر مع حذف المكرر، للإشارة إلى مدة بقاء هذه الأمة".

قال ابن حجر: "وهذا باطل لا يعتمد عليه؛ فقد ثبت عن ابن عباس < الزجر عن عدّ "أبي جاد"، والإشارة إلى أن ذلك من جملة السِّحر، وليس ذلك ببعيد؛ فإنه لا أصل له في الشريعة".

وقد قال القاضي أبو بكر بن العربي في فوائد رحلته: "ومن الباطل: علْم الحروف المقطّعة في أوائل السوَر. هكذا نقل السيوطي".

قلت: الحديث المذكور أخرجه ابن إسحاق في (السيرة)، وضعفه السيوطي أيضًا من هذه الطريق. وقول الحافظ ابن كثير: "مداره على محمد بن السائب، وهو ممن لا يحتج بما انفرد به"، منتقض بروايته من طريق أخرى في مغازي يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس وجابر بن رئاب به نحوه؛ وهذا إسناد حسن، فصّلتُ القول فيه في (صحيح السيرة)، وله شاهد عن ابن جريج مرسلًا، أخرجه ابن المنذر في (تفسيره).

ولا مانع من ذلك شرعًا أو عقلًا، إلا أن الحديث لا دلالة فيه على معنى الحروف المقطّعة، وإنما ذلك فهم فهمه اليهود من عند أنفسهم، ربما كان صحيحًا، وربما كان خطأ -والله أعلم-.

وقال ابن فارس: "وهو قول حسن لطيف، لأن الله تعالى أنزل على نبيه الفرقان، فلم يدع نظمًا عجيبًا ولا علمًا نافعًا إلا أودعه إياه، علِم ذلك مَن علِمه، وجهله مَن جهله".

القول السادس: أنها هجاء موضوع، وأظنه يعود إلى أنه من المتشابه لا يُعلم معناه، فهو كمن فسّر الماء بالماء:

عن مجاهد أنه قال: "فواتح السور كلها: ﴿قٓ﴾ و﴿صٓ﴾ و﴿حمٓ﴾ و﴿طسٓمٓ﴾ و﴿الٓر﴾، وغير ذلك: هجاء موضوع". أخرجه ابن جرير، وإسناده ضعيف. وقد تقدم عن مجاهد غير هذا القول بسند صحيح.

قال ابن كثير: "وقال بعض أهل العربية: هي حروف من حروف المعجم، استغني بذكر ما ذكر منها في أوائل السوَر عن ذكر بواقيها التي هي تتمة الثمانية والعشرين حرفًا، كما يقول القائل: ابني يكتب في ا ب ت ث، أي: في حروف المعجم الثمانية والعشرين؛ فيستغني بذكر بعضها عن مجموعها". حكاه ابن جرير.

وقد سبق ذكر بعض ذلك في بداية حديثنا عنها.

القول السابع: قول جامع:

عن أبي العالية، في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾، قال: هذه الأحرف الثلاثة من التسعة والعشرين حرفًا، دارت فيها الألسن كلها، ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه، وليس منها حرف إلا وهو من آلائه وبلائه، وليس منها حرف إلا وهو في مدة أقوام وآجالهم. قال عيسى بن مريم # وعجِب، فقال: "وأعجب أنهم ينطقون بأسمائه، ويعيشون في رزقه، فكيف يكفرون به؟! فالألف مفتاح اسم: اسم: الله، واللام مفتاح اسمه: لطيف، والميم مفتاح اسمه: مجيد. فالألف: آلاء الله، واللام: لطف الله، والميم: مجد الله. فالألف سَنَة، واللام: ثلاثون سَنَة، والميم أربعون سَنَة".

رواه ابن أبي حاتم، وإسناده حسن. وما رواه عن عيسى # يبدو أنه أخذه من

بعض أهل الكتاب، وهو غريب وفيه ركاكة.

قال ابن كثير، بعد أن عزاه لابن جرير: "وليس فيه عن أبي العالية، وإنما عن الربيع بن أنس".

ثم شرع يوجّه كل واحد من هذه الأقوال، ويوفّق بينها، وأنه لا منافاة بين واحد منها وبين الآخر، وأن الجمع ممكن: فهي أسماء للسوَر، ومن أسماء الله تعالى يفتتح بها السوَر، فكل حرف منها دل على اسم من أسمائه، وصفة من صفاته، كما افتتح سورًا كثيرة بتحميده وتسبيحه وتعظيمه. قال: "ولا مانع من دلالة الحرف منها على اسم من أسماء الله، وعلى صفة من صفاته، وعلى مدة، وغير ذلك... (كما ذكره) الربيع بن أنس عن أبي العالية، لأن الكلمة الواحدة تطلق على معانٍ كثيرة، كلفظة "الأمّة"، فإنها تُطلق ويُراد بها: الدّين، كقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٢]. وتُطلق ويُراد بها: الرجل المطيع لله، كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]. وتُطلق ويُراد بها: الجماعة، كقوله: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦]. وتُطلق ويُراد بها: الحين من الدهر، كقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]، أي: بعد حين -على أصح القولين-. قال: فكذلك هذا".

هذا حاصل كلامه موجّهًا، ولكن هذا ليس كما ذكره أبو العالية؛ فإن أبا العالية زعم أن الحرف دل على هذا، وعلى هذا، وعلى هذا معًا، ولفظة "الأمّة" وما أشبهه من الألفاظ المشتركة (في الاصطلاح)، إنما دل في القرآن في كل موطن على معنى واحد دل عليه سياق الكلام، فأما حمله على مجموع محامله إذا أمكن، فمسألة مختلف فيها بين علماء الأصول، ليس هذا موضع البحث فيها -والله أعلم-.

ثم إن لفظ "الأمّة" يدل على كل (من) معانيه في سياق الكلام بدلالة الوضع، فأما دلالة الحرف الواحد على اسم يمكن أن يدل على اسم آخر من غير أن يكون أحدهما أوْلى من الآخر في التقدير أو الإضمار بوضع ولا بغيره، فهذا (مما) لا يُفهم إلا بتوقيف. والمسألة مختلف فيها، وليس فيها إجماع حتى يحكم به.

وما أنشدوه من الشواهد على صحة إطلاق الحرف الواحد على بقية الكلمة، فإن في السياق ما يدل على ما حذف، بخلاف هذا، كما قال الشاعر:

قلنا لها: قفي فقالت: قافْ ❖ لا تحسبي أنا نسينا الإيجافْ

تعني: وَقَفتُ.

وقال الآخر:

ما للظليم عال كيف لا يا ❖ ينقدّ عنه جلده إذا يا

قال ابن جرير: "كأنه أراد أن يقول: "إذا يفعل كذا وكذا"، فاكتفى بالياء من: "يفعل".

وقال الآخر:

بالخير خيرات وإن شرًا فا ❖ ولا أريد الشر إلا أن تا

يقول: "وإن شرًا فشر، ولا أريد الشر إلا أن تشاء"؛ فاكتفى بالفاء والتاء من الكلمتين عن بقيتهما، ولكن هذا ظاهر من سياق الكلام -والله أعلم-.

قال القرطبي: "وفي الحديث: ((من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة...)) الحديث. قال شقيق: هو أن يقول في "اقتل": "اقْ".

واختار ابن فارس وغيره: أن تجعل هذه التأويلات كلها تأويلًا واحدًا، فيقال: إن الله -جل وعلا- افتتح السوَر بهذه الحروف، إرادة منه للدلالة بكل حرف منها

على معانٍ كثيرة، لا على معنى واحد؛ فتكون هذه الحروف جامعة لأن تكون افتتاحًا، وأن يكون كل واحد منها مأخوذًا من اسم من أسماء الله تعالى، وأن يكون الله ﷻ قد وضعها هذا الوضع فسمّى بها، وأن كل حرف منها في آجال قوم وأرزاق آخرين. وهي مع ذلك مأخوذة من صفات الله تعالى في إنعامه وإفضاله ومجده، وأن الافتتاح بها سبب لأن يسمع القرآن من لم يكن سمع، وأن فيها إعلامًا للعرب أن القرآن الدال على نبوة محمد ﷺ بهذه الحروف، وأن عجزهم عن الإتيان بمثله مع نزوله بالحروف المتعالمة بينهم دليلٌ على كفرهم وعنادهم وجحودهم، وأن كل عدد منها إذا وقع أول كل سورة، فهو اسم لتلك السورة.

قال: "وهذا القول الجامع للتأويلات كلّها. والله أعلم بما أراد من ذلك".

في الحكمة من ذكرها

ويعرض لنا سؤال، وهو: بغَضِّ النظر عن معاني هذه الحروف: ما هي الحكمة من إيرادها، غير ما قدّمناه في حكمة المتشابه؟

قال بعضهم: إنما ذُكرت لنعرف بها أوائل السوَر. حكاه ابن جرير.

قال ابن كثير: "وهذا ضعيف، لأن الفصل حاصل بدونها، فيما لم تذكر فيه، وفيما ذكرت فيه البسملة تلاوة وكتابة".

وقال آخرون: "بل ابتُدِئ بها لتَفتح لاستماعها أسماعَ المشركين، إذ تواصَوا بالإعراض عن القرآن؛ حتى إذا استمعوا له، تلا عليهم المؤلف منه". حكاه ابن جرير أيضًا.

قال ابن كثير: "وهو ضعيف أيضًا، لأنه لو كان كذلك، لكان ذلك في جميع السوَر، لا يكون في بعضها؛ بل غالبها ليس كذلك، ولو كان كذلك أيضًا لا

نبغي الابتداء بها في أوائل الكلام معهم، سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك. ثم إن هذه السورة والتي تليها -أعني: (البقرة) و(آل عمران)- مدنيتان، ليستا خطابًا للمشركين، فانتقض ما ذكروه بهذه الوجوه.

ومثل ذلك، من قال: هي فواتح للسوَر، كما يقولون في أول القصائد: "بل"، و"لا بل".

وقال آخرون: بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها، بيانًا لإعجاز القرآن، وأن الخلْق عاجزون عن معارضته بمثله. هذا مع أنه (رُكّب) من هذه الحروف المقطّعة التي يتخاطبون بها.

قال الزمخشري: "ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن، وإنما كررت، ليكون أبلغ في التحدي والتبكيت، كما كررت قصص كثيرة، وكرر التحدي بالصريح في أماكن".

وقد جاء منها على حرف واحد، وحرفين، وثلاثة، وأربعة، وخمسة، كما سبق أن فصّلناه، لأن تركيب كلام العرب على هذا: من الكلمات ما هو على حرف، وعلى حرفين، وعلى ثلاثة، وعلى أربعة، وعلى خمسة، لا أكثر من ذلك.

قال ابن كثير: "ولهذا، كل سورة افتتحت بالحروف، فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته؛ وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع؛ ولهذا يقول تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: ١، ٢]. ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ [آل عمران: ١- ٣]، ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾

[الأعراف: ١- ٢]، ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١]، ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ١، ٢]، ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١- ٢]، ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ١- ٣]، وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر، والله أعلم".

وقال غيره: "لولا أن العرب كانوا يعرفون أن لها مدلولًا متداولًا بينهم، لكانوا أول من أنكر ذلك على النبي ﷺ، بل تلا عليهم: ﴿حمٓ﴾ فصلت و﴿صٓ﴾، وغيرهما، فلم ينكروا ذلك؛ بل صرّحوا بالتسليم له في البلاغة والفصاحة، مع تشوّفهم إلى عثرة وغيرها وحرصهم على زلة؛ فدل على أنه كان أمرًا معروفًا بينهم، لا إنكار فيه".

وقيل: إن العرب كانوا إذا سمعوا القرآن لغَوْا فيه، فأنزل الله هذا النظم البديع ليعجبوا منه، ويكون تعجّبهم منه سببًا لاستماعهم، واستماعهم له سببًا لاستماع ما بعده، فترقّ القلوب وتلين الأفئدة.

وقيل: هي أمارة جعلها الله لأهل الكتاب، أنه سينزل على محمد كتابًا في أوّل سوَر منه حروف مقطّعة.

وقد أطال الآلوسي في ذكر كثير من الغرائب حول هذه الحروف، ولا نطيل بذكر شيء منها، لعدم اعتبارها في الحقيقة.

في شبهات من حولها

هناك شبهات حول الحروف المقطعة في أوائل السور:

الرأي الأول: يقولون: إن القسم المكّيّ من القرآن، قد اشتمل على لغو من الكلام في كثير من فواتح السوَر، مثل: ﴿ الٓمٓ ﴾ و ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾، وذلك يبطل دعوى المسلمين: أن القرآن بيان للناس وهدًى، وأنه كلام الله؛ وأي بيان وأي هدًى في قوله: ﴿ الٓمٓ ﴾، وقوله: ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾؟ بل هذه الأحرف وأمثالها في غاية البُعد عن الهُدى، بدليل أنه لم يهتدِ أحد منهم، ولا الراسخون في العلم لإدراك معناها؛ فالخطاب بها كالخطاب بالمهمَل. وإنما هذه الألفاظ مِن وضع كتبةِ محمد ﷺ من اليهود، تنبيهًا على انقطاع كلام واستئناف آخر، ومعناها: "أوعز إلي محمد"، أو "أمرني محمد"، يشيرون بذلك إلى براءتهم من الإيمان بما يأمرهم بكتابته.

وقريب من هذا: قول بعضهم: إن الحروف العربية غير المفهومة، المفتتح بها أوائل بعض السوَر، إما أن يكون قصَد منها التعمية، أو التهويل، أو إظهار القرآن في مظهر عميق مخيف، أو هي رمز للتمييز بين المصاحف المختلفة، ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن فصارت قرآنًا.

وننقض هذه الشبهة بأمور:

أوّلها: أنه لم يكن للرسول ﷺ كتبة من اليهود أبدًا.

ثانيًا: أنه لا دليل لهم أيضًا على أن فواتح هذه السوَر تُستعمل في تلك المعاني التي زعموها، وهي: "أوعز إليّ محمد"، أو "أمرني محمد"، لا عند اليهود ولا عند غيرهم في أية لغة من لغات البشر.

ثالثها: أن اليهود لم يُعرف عنهم الطعن في القرآن بمثل هذا، ولو كان هذا مطعنًا عندهم لكانوا أوّل الناس جهرًا به وتوجيهًا له، لأنهم كانوا أشد الناس عداوة للنبي ﷺ والمسلمين.

رابعها: أن اشتمال القرآن على كلمات غير ظاهرة المعنى، لا ينافي وصْف القرآن بأنه بيان للناس وهدى ورحمة؛ فإن هذه الأوصاف يكفي في تحققها: ثبوتها للقرآن باعتبار جملته ومجموعه، لا باعتبار تفصيله وعمومه الشامل لكل لفظ فيه.

وهذا الجواب مبنيّ على أحد الرأيين في فواتح تلك السوَر، وهو: أن المعنى المقصود غير معلوم لنا، بل هو من الأسرار التي استأثر الله بعلمها، ولم يُطلع عليها أحد من خلْقه، وذلك لحكمة من حِكَمه تعالى السامية وهي: ابتلاؤه سبحانه وتعالى وتمحيصه لعباده حتى يميز الخبيث من الطيب وصادق الإيمان من المنافق، بعد أن أقام لهم أعلام بيانه، ودلائل هدايته، وشواهد رحمته، في غير تلك الفواتح من كتابه، بين آيات وسوَر كثيرة لا تُعتبر تلك الفواتح في جانبها إلا قطرة من بحر، أو غيضًا من فيض. فأما الذين آمنوا فيعلمون أن هذه الفواتح حق من عند ربهم، ولو لم يفهموا معناها، ولم يدركوا مغزاها، ثقةً منهم بأنها صادرة من لدن حكيم عليم، عمّت حكمته ما خفي وما ظهر من معاني كتابه، ووسع علمه كلّ شيء عرفه الخلق أو لم يعرفوه من أسرار تنزيله. ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٧].

ونظير ذلك: أن يكون لك أصدقاء تريد أن تعرفهم، أو تعرف منهم مدى صداقتهم لك، فتبتليهم بأمور يزلّ عندها المزيّفون، ويظهر الصادقون، على حد

قول القائل وعلى حد المثل القائل: "إن أخاك من واساك".

ابْلُ الرجال إذا أردت إخاءَهمْ ❖ وتوسّمنّ فعالَهمْ وتفقّدِ

فإذا ظفرتَ بذي الديانة والتّقَى ❖ فبه اليدينِ قريرَ عينٍ فاشدُدِ

ونظير ذلك أيضًا: أن تكون أستاذًا معلمًا، وتريد أن تقف على مدى انتباه تلاميذك، ومبلغ ثقتهم فيك وفي علمك، بعد أن زوّدتهم منك بدراسات واسعة وتعاليم واضحة؛ فإنك تختبرهم في بعض الأوقات بكلمات فيها شيء من الإلغاز والخفاء، ليظهر الذكي من الغبي، والواثق بك الوامق لك من المتشكك فيك المتردد في علمك وفضلك. فأما الواثق فيك، فيعرف أن تلك الألغاز والمعمّيات صدرت عن علم منك بها، وإن لم يعلم هو تفسيرها، ويعرف أن لك حكمة في إيرادها على هذه الصورة من الخفاء، وهي: الاختبار والابتلاء. وأما المتشكك فيك، فيقول: "ماذا أراد بهذا؟ وكيف ساغ له أن يورده؟ وما مبلغ العلم الذي فيه؟"، ثم ينسى تلك المعارف الواسعة الواضحة التي زودتَه بها من قبْلِ ذلك، وكلها من أعلام العلم وآيات الفضل. ولا يفوتنك في هذا المقام، أن تعرف أن ابتلاء الله لعباده ليس المراد منه: أن يعلم ﷻ ما كان جاهلًا منهم، حاشاه حاشاه! فقد وسِع كل شيء علمًا. إنما المقصود منه: إظهار مكنونات الخلق، وإقامة الحجج عليهم من أنفسهم، فلا يتّهمون الله في عدله وجزائه إذا جعل من الناس أهلًا لثوابه وآخرين لعقابه، ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

والرأي الثاني في فواتح السور: أنّ لها معنى مقصودًا معلومًا، قالوا: لأن القرآن كتاب هداية، والهداية لا تتحقق إلا بفهم المعنى، خصوصًا أننا أُمرنا بتدبّر القرآن والاستنباط منه، وهذا لا يكون إلا إذا فُهم المعنى أيضًا.

غير أن أصحاب هذا الرأي تشعبت أقوالهم في بيان هذا المعنى المقصود بفواتح تلك السوَر.

وقد تقدم ذكر أوجه كلامهم فلا نعيده.

في غرائب تتعلق بها

فقيل: إن ﴿طه﴾ و﴿يسٓ﴾ بمعنى: "يا رجل"، أو "يا محمد"، أو "يا إنسان"؛ وقد تقدم في المعرب.

وقيل: هما اسمان من أسماء النبي ﷺ.

قال الكرماني في (غرائبه): "ويقوّيه في: ﴿يسٓ﴾: قراءة "يسينَ" -بفتح النون-، وقوله: ﴿آلِ يَاسِينَ﴾.

وقيل: ﴿طه﴾، أي: "طأِ الأرض"، أو "اطمئن"؛ فيكون فعل أمر، والهاء: مفعول، أو للسكت، أو مبدلة من الهمزة.

أخرج ابن أبي حاتم، من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿طه﴾: "هو كقولك: "افعل". وقيل: ﴿طه﴾ أي: "يا بدر"، لأن الطاء بتسعة، والهاء بخمسة؛ فذلك أربعة عشر، إشارة إلى البدر، لأنه يتم فيها". ذكره الكرماني في (غرائبه).

وقيل، في قوله: ﴿يسٓ﴾، أي: "يا سيد المرسلين"، وفي قوله: ﴿صٓ﴾، معناه: "صدق الله".

وقيل: أقسم بالصمد الصانع الصادق. وقيل: معناه: "صاد يا محمد عملك بالقرآن"، أي: "عارضْه به"؛ فهو أمر من المصادّة.

وأخرج عن الحسين، قال: "صاد حادِثِ القرآن. يعني: انظر فيه".

وأخرج عن سفيان بن حسين، قال: "كان الحسن يقرؤها: "صادِ والقرآن"، يقول: "عارض القرآن".

وقيل: معناه: "صاد محمد قلوب العباد". حكاها الكرماني كلّها.

وحكى في قوله: ﴿ الٓمٓصٓ ﴾، أن معناه: ﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴾ [الشرح: ١]، وفي: ﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ﴾: أنه جبل قاف.

وقيل: ﴿ قٓ ﴾: جبل محيط بالأرض. أخرجه عبد الرزاق عن مجاهد.

وقيل: أقسم بقوة قلب محمد. وقيل: هي القاف من قوله: قُضي الأمر؛ دلت على بقية الكلمة.

وقيل: معناها: "قف يا محمد على أداء الرسالة والعمل بما أمرت". حكاهما الكرماني.

وقيل: "﴿ نٓ ﴾ هو: الحوت". أخرج الطبراني عن ابن عباس، مرفوعًا: ((أول ما خلق الله القلم والحوت. قال: اكتب. قال: ما أكتب؟ قال: كل شيء كائن إلى يوم القيامة. ثم قرأ: ﴿ نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ ﴾. فالنون: الحوت، والقاف: القلم)).

وقيل: "هو اللوح المحفوظ". أخرجه ابن جرير من مرسل ابن قرة، مرفوعًا.

وقيل: "هو الدواة". أخرجه عن الحسن وقتادة.

وقيل: "هو المداد". حكاه ابن قرصة في غريبه.

وقيل: "هو القلم". حكاه الكرماني عن الجاحظ.

وقيل: "هو اسم من أسماء النبي ﷺ". حكاه ابن عساكر في (مبهماته).

وفي (المحتسب) لابن جني: أن ابن عباس قرأ: "حمسق" بلا عين، ويقول: السين كل فرقة تكون، والقاف كل جماعة تكون".

قال ابن جني: "وفي هذه القراءة دليل على: أن الفواتح فواصل بين السوَر، ولو كانت أسماء الله، لم يجز تحريف شيء منها، لأنها لا تكون حينئذ أعلامًا، والأعلام تؤدّى بأعيانها ولا يحرّف شيء منها".

وقال الكرماني في (غرائبه)، في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ [العنكبوت: ١، ٢]: "الاستفهام هنا يدل على انقطاع الحروف عما بعدها، في هذه السورة وغيرها".

وقال طنطاوي جوهري، في تفسيره لسورة (آل عمران) ما نصه: "اعلمْ: أن القرآن كتاب سماوي، والكتب السماوية تصرّح تارة، وترمز تارة أخرى. والرمز والإشارة من المقاصد السامية والمعاني والمغازي الشريفة. وقديمًا كان ذلك في أهل الديانات. ألم تر إلى اليهود الذين كانوا منتشرين في المدينة وفي بلاد الشرق أيام النبوة، كيف كانوا يصطلحون فيما بينهم على أعداد الجمّل المعروفة اليوم في الحروف العربية، فيجعلون الألف بواحد، والباء باثنين، والجيم بثلاثة، والدال بأربعة، وهكذا... مارّين على الحروف الأبجدية إلى الياء بعشرة، والكاف بعشرين، وهكذا إلى القاف بمائة، والراء بمائتين، وهكذا إلى الغين بألْف... كذلك ترى أن النصارى في إسكندرية ومصر وبلاد الروم وفي سوريا، قد اتخذوا الحروف رموزًا دينية معروفة فيما بينهم أيام نزول القرآن. وكانت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية في مصر، وكانوا يرمزون بلفظ "إكسيس" لهذه الجملة: "يسوع المسيح ابن الله المخلص"، فالألف من "إكسيس" هي: الحرف الأول من لفظ "إيسوس يسوع"، والكاف منها هي: الحرف الأول من "كرستوس المسيح"... إلى آخر ما ذكر". ثم قال:

ولفظ "إكسيس" اتفق أنه يدل على معنى: سمكة، فأصبحت السمكة عند هؤلاء رمزًا لإلههم؛ فانظر كيف انتقلوا من الأسماء إلى الرمز بالحرف، ومن الرمز بالحرف إلى الرمز بحيوان دلت عليه الحروف". قال: "... فإذا كان ذلك من طبائع الأمم التي أحاطت بالبلاد العربية وتغلغلت فيها، ونزل القرآن لجميع الناس من عرب وعجم، كان لا بد أن يكون على منهج يلذّه الأمم، ويكون فيه ما يألفون".

ثم ذكر بعضًا مما قيل فيها، فقال:

"الطريقة الأولى: أن تكون هذه الحروف مقتطعات من أسماء الله، كما روي عن ابن عباس } ... أقول: إنما أراد ابن عباس بذلك أن تكون الحروف مذكِّرة بالله ﷻ في أكثر الأحوال، وذكر الله أجل شيء. ويرجع الأمر إلى أنها أسماء مرموز لها بالحروف، كما تقدم عن الأمم السالفة من النصارى في إسكندرية ورومة، ولكن لا بد أن يكون هناك ما هو أعلى وأجل.

الطريقة الثانية: أن هذه الحروف من أعجب المعجزات والدلالات على صدق النبي ﷺ، وهذا مما ترضاه النفوس. ألا ترى أن حروف الهجاء لا ينطق بها إلا مَن تعلم القراءة، وهذا النبي الأمي قد نطق بها. والذي في أول السوَر: أربعة عشر حرفًا منها، وهي كلها ثمانية وعشرون حرفًا -إن لم تعدّ الألف حرفًا برأسه-. فالأربعة عشر نصفها، وقد جاءت في تسع وعشرين سورة، وهي: عدد الحروف الهجائية -إذا عُدّت فيها الألف-. وقد جاءت من الحروف المهموسة العشرة -وهي: (فحثه شخص سكت)- بنصفها، وهي: الحاء، والهاء، والصاد، والسين، والكاف. ومعلوم أن الحروف إما مهموسة، أي: يضعف الاعتماد عليها -وهي ما تقدم-، وإما مجهورة، وهي: ثمانية عشر، نصفها وهو: تسعة، ذكرت في فواتح السوَر، ويجمعها: (لن يقطع أمر). والحروف الشديدة: ثمانية -وهي: (أجدت طبقك)-، أربعة منها في الفواتح، وهي:

(أقطك). والحروف الرخوة: عشرون، وهي الباقية، نصفها عشرة، وهي في هذه الفواتح يجمعها: (حمس على نصره). والحروف المطبقة: أربعة: الصاد والضاد والطاء والظاء، وفي الفواتح نصفها: الصاد والطاء. وبقية الحروف -وهي أربعة وعشرون حرفًا- تسمى منفتحة، نصفها وهو: اثنا عشر في الفواتح المذكورة. فانظر كيف أتى في هذه الفواتح بنصف الحروف الهجائية -إن لم تعدّ الألف-، وجعلها في تسع وعشرين سورة -عدد الحروف وفيها الألف-. وكيف أتى بنصف المهموسة، ونصف المجهورة، ونصف الشديدة، ونصف الرخوة، ونصف المطبقة، ونصف المنفتحة".

قال: "وإني موقن أن المتعلّم لو طُلب منه أن يأتي بهذه الحروف منصفة على هذا الوجه، ما استطاع إلى ذلك سبيلًا؛ فإنه إن راعى نصف الحروف المطبقة، فكيف يراعي الحروف الشديدة؟ وكيف يراعي نصف المجهورة في نفس العدد؟ إن ذلك دلائل على صدق صاحب الدعوة".

قال: "ففيه إعجاز للعقول وحيرة؛ فيقال: كيف تنصّف الحروف الهجائية، وتنصّف أنواعها -من مهموسة، وشديدة... إلخ-، وهذه الأنواع لم يدرسها أحد في العالم أيام النبوة؟ ثم لما ظهرت تلك الدراسات، وافقت تلك الحروف بأنصافها.

الطريقة الثالثة: أن الله تعالى خلق العالم منظمًا محكمًا متناسقًا متناسبًا، والكتاب السماوي إذا جاء مطابقًا لنظامه، موافقًا لإبداعه، سائرًا على منهاجه، دل ذلك على أنه من عنده. وإذا جاء الكتاب السماوي مخالفًا لنهجه، منافرًا لفعله، منحرفًا عن سننه، كان ذلك الكتاب مصطنعًا مفتعلًا منقولًا مكذوبًا. ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. والعالم المشاهد فيه عدد الثمانية والعشرين، وذلك فيما يأتي:

مفاصل اليدين، في كل يد أربعة عشر.

خرزات عمود ظهر الإنسان، منها أربع عشرة في أسفل الصلب، وأربع عشرة في أعلاه.

خرزات العمود التي في أصلاب الحيوانات التامة الخلقة، كالبقر، والجمال، والحمير، والسباع، وسائر الحيوانات التي تلد أولادها، منها: أربع عشرة في مؤخر الصلب، وأربع عشرة في مؤخر البدن".

وذكر أمثلة أخرى، ثم قال:

"عدد الحروف التي في لغة العرب التي هي أتم اللغات: ثمانٍ وعشرون حرفًا، منها أربعة عشر يدغم فيها لام التعريف، وهي: ت، ث، د، ذ، ر، ز، س، ش، ص، ض، ط، ظ، ل، ن. وأربعة عشر لا تدغم اللام فيها، وهي: أ، ب، ج، ح، خ، ع، غ، ف، ق، ك، م، هـ، و، ي.

والحروف التي تخط بالقلم قسمان: منها أربعة عشر معلّمة بالنقط، وهي: ب، ت، ث، ج، خ، ذ، ز، ش، ض، ظ، غ، ف، ق، ن. وأربعة عشر غير معلمة، وهي: ا، ح، د، ر، س، ص، ط، ع، ك، و، هـ، ل، م، لا. وهذا الحرف هو الألف التي هي من حروف العلة، أما الأولى فهي الهمزة؛ فهذه أربعة عشر حرفًا. وبقيت الياء، وهي تنقط في وسط الكلمة، ولا تنقط في آخرها، فأصبحت الحروف المعلّمة أربعة عشر، وغير المعلّمة أربعة عشر. والحرف التاسع والعشرون معلّم وغير معلّم، لتكون القسمة عادلة".

ثم قال: "وكأنه تعالى يقول: أي عبادي! فلتعلموا أن هذا القرآن هو تنزيل مني، لأني نظمت حروفه على هذا النمط الذي اخترته في صنع المنازل والأجسام الإنسانية والأجسام الحيوانية، ونظام الحروف الهجائية، فمن أين لبشر كمحمد

ﷺ أو غيره، أن ينظم هذا النظام، ويجعل هذه الأعداد موافقة للنظام الذي وضعته، والسنن الذي رسمته؟".

ولا شك أن ما ذكره الجوهري فيه توسّع وإغراب، كعادته في كتابه، إلا أنه لا مانع من ذكر بعض ذلك استكمالًا لما قيل في هذه الفواتح، وللاستفادة ببعض ما قيل.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قائمة المراجع العامة

١. (الإتقان في علوم القرآن)

أبو بكر عبد الرحمن بن الكمال السيوطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م.

٢. (إعجاز القرآن)

أبو بكر بن الطيب الباقلاني، تحقيق: عماد الدين حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٩٩١م.

٣. (البرهان في علوم القرآن)

محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م.

٤. (التعريفات)

علي محمد الجرجاني، دار الكتاب المصري، ١٩٩١م.

٥. (التوقيف على مهمات التعاريف)

محمد عبد الرؤوف المناوي، عالم الكتب، ١٩٩٠م.

٦. (صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري)

ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.

٧. (العجاب في بيان الأسباب)

ابن حجر العسقلاني، دار ابن الجوزي، ١٩٩٧م.

٨. (فضائل القرآن)

أحمد بن شعيب النسائي، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٩٨٥م.

٩. (فيض القدير شرح الجامع الصغير)

محمد بن عبد الرؤوف المناوي، دار المعرفة، ١٩٨٠م.

١٠. (**السبعة في القراءات**)

أحمد بن موسى بن مجاهد، دار المعارف، ١٩٨٨م.

١١. (**لسان العرب**)

محمد بن مكرم بن منظور، طبعة دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٩م.

١٢. (**مباحث في علوم القرآن**)

صبحي الصالح، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م.

١٣. (**مباحث في علوم القرآن**)

مناع خليل القطان، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٠م.

١٤. (**المستدرك على الصحيحين**)

محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م.

١٥. (**مناهل العرفان**)

محمد بن عبد العظيم الزرقاني، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م.

١٦. (**التبيان في تفسير غريب القرآن**)

شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري، المكتبة المحمودية، ١٩٦٠م.

١٧. (**دلائل الإعجاز**)

عبد القاهر الجرجاني، دار الكتب العلمية، ١٩٨٨م.

١٨. (**فهم القرآن**)

الحارث بن أسد المحاسبي، دار الكندي للطباعة والنشر، ١٩٨٢م.

١٩. (**نفائس البيان شرح الفرائد الحسان في عد آي القرآن**)

الشيخ عبد الفتاح القاضي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٣٥٥هـ.

٢٠. (**الأصلان في علوم القرآن**)

محمد عبد المنعم القيعي، طبعة المكتبات الأزهرية، ١٩٨٠م.

٢١. (**مختصر في قواعد التفسير**)

خالد السبت، مطبعة ابن الجوزي، ١٤٢٣هـ.

٢٢. (**الصحيح المسند من أسباب النزول**)

مقبل بن هادي الوادعي، الرياض، مكتبة المعارف، ١٤٠٠هـ.

٢٣. (**موسوعة فضائل سور وآيات القرآن**)

محمد بن رزق الطرهوني، مكتبة العلم، ١٩٩٤م.

٢٤. (**سنن القرّاء ومناهج المجوّدين**)

عبد العزيز القارئ، مكتبة الدار للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠م.

٢٥. (**النشر في القراءات العشر**)

محمد بن الجزري، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٧٠م.

